بعد طول إنتظار

أحمد خالد عبد الحليم

بعد طول إنتظار
لـ أحمد خالد عبد الحليم
تدقيق لغوي :عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم الإيداع

دار فصله للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
FB.com/Faslapub

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظه

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصله للنشر والتوزيع
إن أي تصوير أو إعادة طابعه أو نشر بشكل ورقي أو إليكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتياً بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

بعد طول إنتظار

أحمد خالد عبد الحليم

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

تحية شكر وإجلال وتقدير .

إلى أبي وأمي اللّذان كان لهما الفضل عَلَيّ، فَلكلٍ منهما أسلوبه وطريقته في توجيهي، فأدركت الآن أن حصاد ذلك إيجابي، وأن الُمعضلة تَكمُن في استقبال المعلومة، فَهُما كانا وما زالا دعمي الأول في إنجاز أي عمل، فالحق لهما والفضل كل الفضل لهما لما أنا عليه الآن.

***

أحمد خالد عبد الحليم

إهداء

إلى كل عربيٍ حُرٍ يطمح في غدٍ أفضل، ومستقبل أفضل لبلاده، ولكل الأمة العربية، حلم الوطن العربي ليس ببعيد المنال، ولكن فقط علينا أن نربي أجيالنا القادمة على المحبة والإخاء، وعلينا أن نكون مُتصالحين مع أنفسنا لكي نتقبل اختلافاتنا. تلك الأمور في أيدينا بعيدًا عن الحكومات، وبعيدًا عن سياساتها، فلن نتفق جميعًا على شيء، كما لن نختلف جميعًا على شيء، ولكن دعونا نتآلف مع اختلافاتنا، لكي نمضي إلى الأمام، لكي نكون أُمةً واحدةً بحق.

****

يولد الأبطال من رحم المعاناة

النهـايـة

شتاء عام ٢٠١٤،

«حاولت سلطات الطيران الفرنسية التواصل لتنسيق حركة الطيران مع قائدي طائرة آير باص كانت متجهة من جزيرة لانزاروتي (جزر الكناري) الإسبانية إلى مطار بروكسل، ولكن أحدًا لم يرد. فأرسل الفرنسيون طائرة حربية، تحسبًا لأي تهديد إرهابي، وقامت الطائرة الحربية بإيقاظهما فوق سماء مدينة نانت الفرنسية».

كانت تلك هي أحد الأخبار التي تقرأها، فالقارة الأوروبية تعيش أجواء من القلق إزاء الأحداث الدائرة في البلاد الآونة الأخيرة من هجمات إرهابية، خاصة في فرنسا. هي فتاة في عقدها الثالث من العمر، كانت ترتدي الأسود وكأنها في فترة حداد، انتهت من قراءة الأخبار الصباحية على موقع الجريدة المفضلة لديها، ثم نهضت تنظر من شرفتها. شارع نظيف، وأجواء ماطرة نقية، وهدوء وسكينة تدعو لصفاء الذهن،

حتمًا إنها ليست القاهرة، وإنما هي العاصمة الفرنسية باريس في شارع Rue Des Gravilliers وسط المدينة، حيث يقع الفندق الذي تسكن فيه تلك الفتاة.

شردت في التفكير وهي ناظرة إلى السماء الملبدة بالغيوم، فهي في

عاصمة النور فكيف لا تكف الأمطار عن هطولها، وتشرق شمسٌ ربما تبعث بعض الأمل فيها! طالما كانت تحب هذه الأجواء سابقًا ولكنها باتت لا تتحملها الآن!

كانت وكأنها تتذكر شيئًا مؤلمًا، فتلك الملابس السوداء، وذلك الوجه الأبيض الشاحب كالثلج يوحي بأنها كانت غارقة في البكاء منذ أيامٍ مضت، إضافة إلى الصمت المؤلم الذي كان يعم الغرفة، فهي تجلس وحدها بالفعل، ولكن في بعض الأحيان يكون للصمت صوت، ولكن ذلك الذي كانت فيه كان صمتًا تامًا.

اخترق جرس الهاتف حاجز الصمت لتجيب الفتاة، كانت تتحدث بالإنجليزية، وكان المتصل فتاة تدعى برانيا، وسألتها الفتاة عن قرارها بشأن أحد الروايات التي ترغب في أن تكتبها برانيا، إجاباتها كانت مقتضبة تدل على أنها لا ترغب أن تُحدِّث أحد، لتخبرها بإيجاز أن تأخذ ما يلزمها من الوقت لإنجاز الأمر بصورة ممتازة، وأن الأمر بمثابة التكريم له! وطالبتها أن يلتقيا لتأخذ معلومات منها وتبدأ بحصر بعض المعلومات من الأهل والأقارب لتكون رواية شاملة عن حياته!

****

أيرلندا – مدينة دنلافن ، يوم ١٧ مارس عام ، ٢٠٢٧

في هذا اليوم من كل عام يحتفل الأيرلنديون بعيد القديس باتريك، حيث يكتسي السكان باللون الأخضر، فضلًا عن اكتساء الأرض أيضًا بالمساحات الخضراء الشاسعة التي تتميز بها البلاد.

وعادة تتسم بلاد شمال الكرة الأرضية بشتاء طويل، إلا أن نسمات الهواء الربيعية المختلطة ببعض الدفئ بدأت تلامس وجوه المحتفلين في شوارع العاصمة دبلن، ولكن في مدينة دنلافن يختلف الأمر قليلًا، فهي تبعد عن العاصمة مسافة ٦٠ كيلو متر، وبطبيعة الأجواء وتعداد

السكان القليل في أيرلندا عمومًا فإنك لن تجد تجمعات كبيرة في مدن أخرى خارج العاصمة كمدينة دنلافن.
استيقظت سيدة قرابة وقت الظهيرة، وخرجت تقف أمام منزلها تطالع الأجواء لترى بعض الأطفال وهم فَرِحون بالعيد، عمرها كان يقارب الأربعين، ولكن في مظهرها كانت تبدو في ريعان شبابها، وهو ما يدل على معيشتها المترفة.
عقدت ذراعيها على صدرها تحتضن نفسها لإحساسها ببعض البرد، وأتت شابة أخرى سنها يقارب الحادية عشر عامًا، وهي ابنتها، وسألتها أين سيحتفلون هذه السنة، لتجيبها أمها بشيء من الغموض وهي مبتسمة: «هذا العام علينا الاحتفال في المنزل، فنحن في انتظار ضيف تحبينه!»
لم تُبدِ الفتاة أي استياء، ولكنها أعربت عن رغبتها في قراءة إحدى روايات والدتها الحديثة، حيث أن تلك السيدة هي أديبة وروائية، ويبدو أن ابنتها تسير على نفس خطاها.
حاولت الفتاة أن تتوقع من هو ذلك الضيف إلا أنها لم تستطع، لتقول لها أمها أنهما ذاهبتان لاستقباله في المطار، لذا لا داعٍ لإجهاد نفسها بالتفكير حول الأمر، ذهبت البنت لغرفتها وبدأت في قراءة إحدى روايات والدتها، حتى موعد ذهابهما إلى المطار لاستقبال الضيف، الذي ما أن رأته الفتاة جَرَت نحوها بفرح قائلة: «مرام، هذا أنت!»
كان يبدو أنها ضيفة عزيزة عليها، وربما تكون من أقاربها الآتيين من بلاد والدتها –فرنسا- لمشاركتهما الاحتفال لكن اسمها لم يكُن يوحي بذلك.
هي سيدة مصرية تُدعى مرام، في نفس عمر تلك السيدة الأيرلندية، وهي من قلائل المصريات التي يقارب عمرها سن الشيخوخة وما تزال

تحافظ على رشاقتها، كانت قليلة في حجمها ووجها، لا ترى عليه ملامح الكِبر، وإنما بياض لامع، وشعرها كستنائي يتدلى على كتفيها، وكأنها فتاة في العشرين، لم تأخذ وقت كبير لإنهاء إجراءتها في المطار، فكانت تبدو شخصية هامة وذات شأن على مستوى عالمي.

لقاءً ودودًا يوضح أنهم على علاقة قوية تمتد لسنين مضت، وبعد جلسة مطولة في الحديث عن الرحلة، وعن الوقت الذي مضى، بدأ حديث غريب عن شيء مبهم تنتظرانه السيدتان، فهما بصدد فتح ملفات الماضي، الذي يبدو أنه كان أليمًا بعض الشيء في أحداثه!

السيدة: «أأنتِ متحمسة للقيام بالأمر؟»

مرام: «بالتأكيد! فنحن نتحدث عن شيء غير معلوم لقرابة الخمسة عشر عامًا».

السيدة: «لا أدري لماذا اختار سويسرا تحديدًا!»

مرام: «سرية وشفافية حسابات البنوك هي ما جعلته يختار المكان».

السيدة: «حسب الرسالة المذكورة أن الجهاز له شفرة دخول، أليس هذا كافيًا؟»

مرام: «لقد كان حريص لأقصى درجة، لكي يُبقيَ على أمل تنفيذ المشروع حتى بعد وفاته».

السيدة: «صحيح». ثم أكملت وهي تبتسم في خجل: «وكذلك كان يهتم بأمر المصل، ربما كان يتوجب عليه ترك القرار إليكِ، لكنه كان يخشى أن يستمر البعض في مطاردتك».

مرام: «أنت مُحقه، كان يحاول أن يجنبني الصراع الذي يعيشه، وحاول ألا أكون أنا كبش الفداء!»

لاحظت السيدة الأيرلندية تلك النبرة الحزينة وبدأت تواسيها: «هذه أحد سماته الرائعة، إنه يفعل للآخرين أكثر مما يفعل لنفسه، وخاصة

عندما يحب». ثم أكملت وهي تسترجع ذكريات الماضي شاخصة البصر: «يبدو أنه قدم نفسه كبش الفداء بدلًا عنكِ، فقد أوقف أعماله حقًا منذ علم بوجودك في إنجلترا». ثم عادت مرة أخرى إلى الواقع قائلة لتشجعها: «يجب ألا تبكي وعليكِ أن تفخري بأن هذا هو الرجل الذي أحببتيه».

بدأت تستعيد مرام توازنها وأزاحت نظارتها لتمسح الدموع، ثم تستكمل السيدة الأيرلندية حديثها: «بالمناسبة إليكِ إحدى المفاجآت، لقد أَعدَتُ الرواية».

نظرت إليها مرام بنظرة متفاجئة وابتسامة: «منذ ١٤ عامًا قد جرى بيننا حديث عبر الهاتف لتبدئي من يومها، وأنهيتها اليوم! أنا متفاجئة!»

ضحكة السيدة الأيرلندية التي اتضح أنها تُدعى برانيا: «أنت تعلمين بما مررنا به في السنين الماضية، الأهم أن الأمر قد تم على أكمل وجه كما كنا نأمل».

مرام: «إياكِ وأن تكوني قد اختزلتي بعض الأحداث التي تحدثنا عنها سابقًا!»

ضحكت برانيا وردت تقول: «كما اتفقنا، ولم أختزل شيء، أتمنى أن تنال إعجابك».

ثم غازلتها مرام: «بالطبع، فَكاتبتها هي أفضل الروائيين في أوروبا».

ابتسمت برانيا وقالت: «لا تُبالغي، أنا فقط سردت الأمر بأسلوبي، أتمنى ألا تمليها سريعًا، خاصةً وأننا علينا الانتظار».

مرام: «صحيح ما يزال أمامنا ثلاثة أيام علينا انتظارهم حتى موعد السفر، واثقه أنني سوف أمضي الوقت أقرؤها بشغف».

كان عليهما الانتظار لمدة ثلاثة أيام حتى يسافروا إلى سويسرا، حيث هناك الشيء غير المعلوم إلى الآن، والذي يوضح حديثهما أنهما تنتظرانه

منذ زمنٍ بعيد، لذا أمضيتا الأيام في قراءة تلك الرواية، التي بدأن يقرأنها ثلاثتهن (برانيا وابنتها وصديقتهما مرام).

الفصل الأول: حياة جديدة.

حياة جديدة

مازن إمام مصطفى زيدان هو شاب يدرس في الصف الثاني الثانوي لعام ٢٠٠١م، ربما لم يكن يدري أن في هذا العام سوف يحدث له ما هو غير متوقع، إضافةً إلى أن هذا المتغير الجديد الذي سوف يدخل حياته سوف يكون عامل مؤثر بشكل قوي طوال امتداد حياته الباقية.

في المجال العلمي كان المتغير هو حبه من البداية أن يكون مفيدًا لغيره، وذا نفع يعود على المجتمع، ولذلك نستطيع القول إن ما زاد على ذلك من تأثير في هذا العام هو حُبُه وشغفه بمادة الكيمياء، والتي أعطى لها اهتمام بالغ دون باقي المواد، وعلى أي حال هو كان متفوق في دراسته عمومًا، لكن في مادة الكيمياء تحديدًا كان متفوقًا فوق العادة، وكأنه وجد المجال المناسب الذي يستطيع فيه أن يحقق غايته بنفع الآخرين وإفادة المجتمع.

المتغير الثاني كانت زميلته مرام، التي تحضر معه في درس الكيمياء، حيث كان يُخالجُه شعور بأنه يحبها، ورغم ذلك إلا أن شعوره لم يترجم لشيء من الواقع، فظلّا زملين في الدرس فقط دون أن يصرح لها بشيء، ولم تكن مصدرًا لإلهائه عن دروسه، خاصةً وإنه ليس درس أي مادة وإنما هي مادة الكيمياء، التي يكاد يستذكرها يوميًا بقدر شُربهِ للمياه.

المتغير الثالث هو أسرته، أسرته لم تكن جديدة عليه، لكن الجديد في الأمر هو اتساع مداركه، وبداية تكوين شخصيته المستقلة، ذلك الأمر الذي خلق فجوة كبيرة في تباين الآراء والأفكار، واختلاف شاسع بينه وأسرته -التي تعجز عن فهم متطلبات عمره- خاصةً أباه.

إمام زيدان، هو شخصية قوية، قيادية، محبة للسيطرة، إنسان عصامي

بدأ من الصفر وصولًا لأعلى القمم كونه الآن رجل أعمال ناجح، إضافةً لكونه رَبَّ أسرة بمعنى الكلمة؛ لأنه استطاع أن يوازن بين عمله وأسرته، فقد نجد هذه الأيام رجل أعمال ناجح ولكن ثَمَن نجاحه هو أسرة لا تملك مقومات الأسرة الكاملة، فربما تجد الأم عادةً بالخارج والابن فاشل -وذلك أضعف الإيمان- أو ربما أسوء، وصولًا إلى أَحَط النماذج التي تكون قد انحلت أخلاقها، وذلك على مستوى الذكور والإناث، الأم رَبَّةُ منزل لتكون هي القلب الحنون على أولادها، والأب للثواب والعقاب، والشدة إذا لَزم الأمر، وكان ذلك ملائم لإمام كونه شخصية قوية.
ما جعل الخلافات متكررة بين الابن وأبيه هو أن لكل مرحلة عمرية متطلباتها، فتلك القيادة الصارمة والقبضة الحديدية لا تُجدي نفعًا مع شاب في مرحلة بناء ذاته، فكيف يُكَوِن ذاته ويرسم مستقبله بنفسه في حين أن هناك من يأمر ولا يعطي مجالًا لحرية التصرف! فتجد الأب دائمًا في اتجاه والأبناء في اتجاهٍ آخر

.

مثال: ا

قال إمام متأملًا: «أنتظر مازن أن يُنهي دراسته بفارغ الصبر».
ردت مديحة وهي تضحك وتمازح زوجها: «ماذا عساه يفعل! لا يمكنه أن يقفز من فوق السنين لكي تنتهي دراسته غدًا، عليك أن تتحلى بقليل من الصبر فكل شيء بأوان».
انتبه مازن لحديث والديه ورَد في تعجب: «وماذا سوف يحدث حين أنتهي من الدراسة؟ ماذا تخططان؟»
رد الأب وهو مُستاء: «بالطبع سوف تساعدني في عملي، ألا ترى كم الضغوط التي أتحملها؟»

فوجئ مازن بتلك التخطيطات المسبقة لمستقبله، الذي من المفترض أن يكون شأنه الخاص، ورد باندهاش: «ولكن أنا لا أرغب بالأعمال الإدارية، ولا أريد دراستها من الأساس في الجامعة!»

نظر إمام إلى زوجته في ذهول وقال: «أتسمعين يا مديحة ما يقوله ابنك! ابني الوحيد، الذي من المفترض أن يكون سندي وعونًا لي، لا يرغب بإدارة أعمال والده نيابة عنه». ثم أكمل في سخرية: «حسنًا إذًا ماذا تود أن تدرس في الجامعة؟»

تدخلت مديحة سريعًا لتهدئة الوضع -معتقدة أنها توصلت إلى حل يرضي جميع الأطراف- وقالت: «عزيزي مازن، أنت ابننا الوحيد ويجب عليك ذلك، فليس هناك سواك لكي يدير أعمال الشركة والمصنع، وعليك تعلم تلك الأمور من أبيك جيدًا فهذه أملاكك ويجب أن ترعاها، وإذا لم تكن راغب في دراسة الإدارة فلا يتوجب عليك، وإنما ادرس ما تشاء وسوف تتعلم الإدارة حين تباشر أعمال والدك».

مازن: «يا أمي أنا لست راغب بالعمل في مجال الإدارة، وإنما أنوي دراسة العلوم، ومن ثم أتخصص في مجال العلوم الكيميائية».

لم يكن من إمام غير أنه استشاط غضبًا ورمى بالجريدة الصباحية، ثم هم بمغادرة مائدة الإفطار.

****

مثال:٢

مع الوقت وزيادة المشاكل واحتدام النقاشات المتعلقة بمستقبل مازن، صارت الأم هي همزة الوصل بين الأب وابنه، وصار الكلام بينهما شحيح في أي شيء، ولكن بعيدًا تمامًا عن مستقبل مازن تجنبًا للمشاكل، ولذلك كانت الأم هي من تحاول تلطيف الأجواء.

مديحة: «عليك أن تجتهد قليلًا هذا العام، نرغب في أن نراك من الأوائل على مستوى الجمهورية؛ وحينها سوف يكافئك والدك ويهدي إليك الشقة التي تحبها بمدينة ٦ أكتوبر، حتى يحين موعد زواجك عندما تكبر يا عزيزي».

مازن: «لكل حديثٍ مقال يا أمي، وهذا أمر سابق لأوانه».

كان إمام حاضرًا معهما في غرفة المعيشة، وكالعادة يطالع الجرائد ويسمعهما بغير اهتمام؛ لكيلا تستفزه ردود مازن.

مديحة: «لماذا يا عزيزي؟ فأنت لا ينقصك شيء، فقط تنتهي من دراستك واختر الفتاة التي يريدها قلبك».

مازن: «ما زال هناك الكثير أمامي أريد أن أصل إليه، ولدي طموح كبير أبعد من نهاية الدراسة الجامعية، فضلًا عن أنني لا أريد الشقة».

تدخل إمام وهو ثائر: «هل فقدت عقلك! ألا ترغب بأي شيء! لا تريد أن تعمل معي، ولا تريد أن تساعدني في العمل، ولا تريد أن تدرس إدارة الأعمال، ولا تريد الشقة، إذًا ماذا تريد؟! ألست أنا والدك وتلك الأموال والثروة سوف تصبح لك بعد مماتي! ألا يتوجب عليك أن تتعلم شيء لكي تستطيع الحفاظ عليها؟! ألست أنا والدك فلماذا ترفض مني كل شيء؟!»

سَكَتَ مازن تعبيرًا عن الضيق من أسلوب أبيه المعتاد، ولم يفعل شيء غير أنه كانت له إماءة تدل على الأسى وخيبة الأمل في أن تفهمه أسرته.

أكمل إمام بعد لحظات من الصمت كان ينتظر فيها رد ابنه وهو يراقب نظرات الحصرة في عينيه: «أترين يا مديحة؟! ابنك كعادته يلزم الصمت ولا يرد».

وقف مازن عازمًا أن يترك المجلس بعد أن اشتد ضيقه ولكنه كتمه احترامًا لأبيه، وقال: «أرغب في أن أكون إنسان عصامي، وأن أبني نفسي

بنفسي مثلك، أريد أن أبدأ من الصفر كما فعلت أنت».
صار مازن متجهًا لغرفته وقال له أبوه ساخرًا وهو يمشي: «عليك أن تبحث عن الصفر أولًا أيها الأبله!»
ربما ولد في شخصية مازن كان ليفخر أبواه به؛ لكونه يرغب في أن يكون رجل ويتحمل مسؤولية نفسه، ولكن ما كان ليتوائم شخص مثل مازن مع طبع مثل طبع أبيه المسيطر. وبالحديث عن طباع مازن فهو يمتلك من كل شيء ما يلزم، فتجد لديه كل شيء وعكسه، عطف وقسوة، طيبة وشر، عاطفة وعقلانية، خجل وجرأة، إلخ. ولكن إجمالًا تستطيع القول إنه إنسان حساس لدرجة عالية، وإن كانت هناك حاجة لوصفه في كلمتين فسوف تكون طيب وعاطفي، لأن كل ما يفعله دائمًا من أجل شخص آخر.

بَدَت الحياة على هذا المنوال في كل نقاش يدور حول مستقبل مازن، ذلك الولد المثير للجدل، وهو رافض تمامًا الدخول إلى عالم أبيه في العمل، ويرفض بشدة أيضًا أن يساعده أبوه في تَكْوين مستقبله، لذلك بدأ مازن لا يُبالي بتلك المشكلة المتكررة، ويَصُب كامل تركيزه في دراسته فقط، ومَرَّت عليه فترة اهتم فيها بالحياة السياسية في البلاد والصراع الفلسطيني الإسرائيلي، حيث بدأ في شراء كتب عن إسرائيل واليهود ليقرأها في وقت فراغه حين يكتفي من المذاكرة.
وكان كالعادة يُهاتف أصدقائه آدم ومحمد وأحمد ليذهبوا سويًا إلى سور الأزبكية في الأحياء المصرية القديمة ليشتري كتبه من هناك، وهو مكان يقصده كثيرٌ من محبي القراءة في مصر، حيث يضم أكثر من ١٢٠ مكتبة، فضلًا عن وجود نسخ من كتب قديمةلم تعد تطبع، بالإضافة إلى أسعاره الزهيدة، فبالرغم من ثراء أبيه إلا أنه كان يحب أن يعيش

بسيطًا، لا يشتري من الأماكن الغالية ما يمكن شرائه بنفس الجودة ولكن بسعر أرخص بكثير في أماكن بسيطة، يحب النزول مع أصدقائه في مواصلات عامة رغم إمكانية نزوله مع سائق الأسرة، وكان يقول: «الزحام موجود في شتا الأحوال، إذًا لن يختلف الأمر سواء نزلت مع السائق أو نزلت بمفردي». ولذلك كانوا أصدقاؤه كثيرًا ما يقولون له أنه يحب أن يشقى ويتعب رغم وسائل الراحة المتوفرة لديه، ولكنه كان يرفضها تمامًا.

وفي إحدى الليالي كان مازن عازمًا على النزول لاقتناء كتاب جديد، ورأته شقيقته ميار يتأنق للذهاب؛ فبدأت تتحدث إليه بقليل من المزاح لتطلب منه أن يقتني لها أحد الكتب: «إلى أين أنت ذاهب في هذا الوقت يا ولد! أأنت ذاهب لملاقات إحدى الفتيات؟»

نظر إليها مازن مبتسمًا وهو ناظر في المرآة وقال ساخرًا: «إي نعم، وسوف أذهب للمرقص أيضًا وربما أحتسي الجعة».

ضحكت ميار لِسعَة مخيلته السريعة لترتيب الأحداث المنافيه تمامًا لأخلاقه وردت تقول: «وتعترف أيضًا؟ يا لجرأتك غير المعهودة! إذًا فلن أسمح لك بالخروج إلا إذا أعطيتني رشوة».

رد مازن يسايرها في المزاح: «لك ما تريدين، ولكن شرط ألا تخبري أمي وأبي».

عادت تقول: «لو قلت لهم أنك ذاهب إلى المرقص لملاقات فتيات، وسوف تحتسي الجعة، سوف يعتقدون أنني جننت وسوف يشككون في قدراتي العقلية، فلا تقلق يا صديقي أنت فوق مستوى الشبهات».

ابتسم مازن ورد يسألها: «هل تحتاجين لشيء حقًا أم أنك فقط تُضيعين وقتي؟»

استمرت تمازحه قائلة: «معذرة يا سيدي، لم أنتبه إلى أن وقتك ضيق،

آسفة أنني أخذت من وقتك الثمين كثيرًا، ولكن لن يضر إذا اشتريت لي أحد الكتب التي تتحدث عن الأبراج».

تعجب مازن وصار يضحك لكون أخته لم تعتد يومًا شراء الكتب أو الاهتمام بها: «ما شاء الله، أرى أنك بدأت تطورين من قدراتك العقلية وتحاولين تنميتها».

سايرته قائلة: «أتقصد أنني غبية يا أستاذ؟!»

مازن مبتسمًا: معاذ الله، ولكن أنت دومًا لا تبالين بأمر الكتب والقراءة».

ردت ميار بحكمة الأخت الأكبر: «يا عزيزي أنت تعلم جيدًا دراستي الجامعية، فضلًا عن بعض الأعمال التي يوكلها لي أبي».

نظر إليها مازن في أسى متذكرًا تحكم أبيه وقبضته الحديدية التي يفرضها عليه كثيرًا: «لو أنه يترك لنا الاختيار! نحن لسنا أطفال، كما أنه ربانا كما ينبغي؛ فعليه بترك القليل من الثقه في تصرفاتنا وقراراتنا».

حاولت ميار أن تعود لجو المزاح مرة أخرى: «يا أخي، دراستي في كلية الاقتصاد هي اختياري، ربما كان لأبي تأثير قليلًا، إلا أنني لم أكن لأختارها دون اقتناع، وفي النهاية يجب على أحدنا تحقيق أمنية والدك، كما أنك أكثر مني براعة حتى توازن بين دراستك وبين هواياتك التي تحبها».

جال بنظره بعيدًا عنها في أسف: «ليته يضع الثقة في أنني ربما قد أصل بقدراتي لما هو أفضل من إدارة الأعمال!»

ردت ميار تؤازره: «أنا أثق بقدراتك، لا عليك الآن سوى أن تثبت له ذلك، واستمر في تفوقك، وسواء اليوم أو غدًا سوف يقتنع، وتأكد أنه لن يغصبك أحدٌ على شيء».

ميار هي الأخت الوحيده لمازن، وهي أكبر منه بخمسة أعوام، كثيرًا ما تعتبر أخاها رجلها الذي بإمكانها الاعتماد عليه، فرغم صغر سنه إلا

أنه تبدو عليه ملامح العبقرية وتحمل المسؤولية، وتؤمن أنه ينتظره مستقبل باهر.
على مستوى الدراسة فقد حاول إمام أن يجذبها منذ سن صغير إلى حب الأرقام وإدارة الأموال، ونمَّى فيها المسؤولية أيضًا بعد أن تعلمت بعض الأعمال البسيطة، ولذلك استطاع أن يوكل لها إدارة بعض أعماله في البورصة منذ أن كانت في المرحلة الثانوية من تعليمها، وما أن تخرجت حتى وجدت مجالها المناسب في كلية اقتصاد وعلوم سياسية، فبات هناك الآن على الأقل من يستطيع تحقيق أمنية الوالد في دخول أولاده في إدارة الشركة وتخفيف الحمل عنه.

****

اتصل بصديقه آدم ليخبره بالأمر، لكنه اعتذر لوجود ضيوف بمنزله ولا يستطيع النزول ما داموا موجودين، كما اعتذر محمد أيضًا لتوَعُّكه وعدم قدرته على النهوض من الفراش. فقرر مازن أن ينزل وحيدًا، وبالفعل ذهب للأزبكية واقتنى كتابه وقام بشراء أحد الكتب التي تتحدث عن الأبراج كما طلبت منه ميار ليعود إلى المنزل.
المنزل يقع بمدينة مينا جاردن سيتي في الحي المتميز -مدينة يُحيطها سور ولها عِدة مداخل خاصة في أماكن مختلفة من أنحاء المدينة- وبطبيعة الحال لأسرة من طبقة الأثرياء كان لهم فيلا خاصة تُطِل على سور المدينة المقابل لجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.
الساعة قرابة العاشرة إلا ربع حين كانت تقف ميار مُطِلة من شُرفَتِها مُتأملة الهدوء المحيط حولها، لتجد صوت مكتوم آتٍ من خارج أسوار المدينة فشعرت بالذُعر لما تسمعه ولا تراه عيناها، فأقبلت على الاتصال بأمن المدينة.
رجل الأمن: «عمت مساءً سيدي».

ميار: «مساء الخير، منذ قليل كنت أقف بالتراس، وقد لاحظت حركة غريبة أمام سور المدينة، وسمعت صوت صراخ مكتوم، وأخشى أن يكون ذلك الصوت لأحد سكان المدينة!»

رجل الأمن: «رجاءً آنستي، هل ما رأيته أمام سور المدينة من الداخل أم من الخارج؟»

ميار: «لا، أمام سور المدينة من الخارج، وكما تعلم الرؤية غير واضحة لارتفاع الأشجار لذلك لم أستوضح شيء».

رجل الأمن: «رجاءً أخبريني برقم منزلك؟»

ميار: «فيلا رقم A٧ مقابل لسور المدينة جامعة مصر».

رجل الأمن: «حسنًا آنستي، لا داع للخوف، وسوف نخرج حالًا لمعاينة المكان المحدد، ورجاءً في حال رأيتِ أي شيء أخبرينا».

ميار: «حسنًا، شكرًا لكم».

مَرَّت ساعتان وجاء الأب من عمله، وحَكَت له مديحة عما حدث بعد أن أخبرتها ميار، وسأل عن مازن فأخبرتاه أنه ذهب لشراء كُتب، فاستاء الأب من تأخره وغضب بشدة.

ذهبت ميار بعدها مباشرةً لتتصل بأخيها ليُعَجِل بمجيئه، لتجد الهاتف مغلق فانتابها القلق، وفجأة خطر ببالها ما حدث منذ ساعتين وازدادت قلقًا على أخيها، فهرولت للاتصال بالأمن مرة أخرى.

رجل الأمن: «عمت مساءً سيدي، أمن المدينة يحدثك، تفضل».

ميار: «كنت قد اتصلت منذ ساعتين تقريبًا لأُبلغ عن حركة غريبة تحدث أمام سور المدينة؟»

رجل الأمن: «هل رأيت شيئًا آخر آنستي؟»

ردت ميار بصوت يرتجف خوفًا: «لا ولكني أرغب في متابعة الأمر، ماذا وجدتم هناك؟»

رد رجل الأمن بهدوء موظفي خدمة العملاء المعهودة: «لا داع للذعر آنستي، فقد ذهبنا إلى المكان الذي أخبرتنا به ولم نجد أي شيء».
ردت ميار بصوت أكثر ارتفاعًا لاستفزازها من تلك اللكنة الباردة في حين أن الذعر تملك منها: «ولكني متأكدة أنه كان هناك شخصٌ ما يصرخ! هل نظرتم جيدًا؟ ألم تجدوا أي شيء؟ ربما كان هناك بعض اللصوص يحاول سرقت أحد المارة؟»
كانت تود أن تسمع كل شيء ينفي تمامًا ذلك الربط الذي قامت به بين تأخر أخيها وبين تلك الواقعة التي حدثت منذ ساعتين؛ فهي تخشى أن يكون ذلك أخاها.
رجل الأمن: «سيدتي، لقد ألقينا نظرة عن كثب في ذلك المكان، كما قمنا بفحص الشارع الفاصل بين أسوار المدينة وجامعة مصر بطوله، ولم نجد أي شيء سوى كتاب».
عندما سَمِعَت كلمة كتاب فوقعت عليها كوقع من يتلقى خبر وفاة وأصابتها الصدمة.
رجل الأمن: «آنستي؟ هل ما زلتِ معي على الخط؟ آلو!»
رمت ميار السماعة واتجهت مُسرعة إلى أبيها وهي تصرخ لتخبره اختطاف مازن!

****

كان مازن جالس على كرسي في منتصف غرفة واسعة، مُكبل اليدين، معصوب العينين، لا يدري أي عالم خلف ذلك المنديل المربوط على عينيه، ولم يسمع شيء سوى صوت غليظ يقول: «التقرير يا سيدي، تفضل».
ذلك الأمر لم يحمل الطمأنينة لقلب مازن، فإذا لم يكونوا لصوص يُريدون سرقته أو عصابة خطفته لطلب فدية، فتُرى من يكونون؟

تحدث صوت آخر وقال: «انزع الرباط عن عينيه وارحل.
تحول الصوت في هذه اللحظة إلى شخص مُتَجهم الملامح، شكله يُشير إلى ملامح جامدة وقاسية، ذي شارب كثيف السواد، وعادةً من يحمل تلك الملامح هم ضباط أمن الدولة.
أشعل الضابط سيجار وبدأ ينفث دخانها وهو يطالع التقرير: «كيف حالك؟»
انتبه مازن أنه لم يعد غيره في الغرفة ليوجه إليه الكلام: «من أنتم؟ وماذا تريديون؟»
لم يرفع الضابط عينيه عن الأوراق وظل يتحدث وهو يطالعها: «أنت معذور، لم يكن من المفترض أن تأتي إليّ مباشرة، وإنما هناك مرحلة أولى تدعى وصلة تعذيب، لربما وقتها أتيت لي وأنت مدرك أين أنت ومن نحن».
أدرك مازن على الفور أنه محتجز في أحد أروقة جهاز أمن الدولة، ولكن لم يدرك بعد ما الذي قام به لكي يأتي إلى هنا، وذلك لم يجعل له رد فعل غير التعجب من الأمر!
أغلق الضابط التقرير وهَبَّ واقفًا وصار ماشيًا حول مقعد مازن:
«أخبرني يا مازن لماذا أنت مهتم بإسرائيل والكتابات اليهودية؟»
اندهش مازن! ولم يكن يتوقع أن تكون قراءته لتلك الكتب هي السبب في مجيئه إلى هنا، أيعقل ذلك!: «إنه أمر طبيعي فأنا أحب القراءة».
بدأ التحول في نبرة صوت الضابط تدريجيًا نحو نبرة أكثر قسوة ليخرج بهدوء من سكونه القاطن خلفه الكثير والكثير: «إجابة خاطئة، ليس أمرًا طبيعيًا، من يهوى القراءة يقرأ في كل المجالات ليس السياسة فقط، وأنت في الفترة الأخيرة اهتماماتك كانت تتمحور حول إسرائيل واليهود وتحديدًا الكتب السياسية منها».

لم يهب مازن هذه الأجواء وتلك النبرة الهادئة من الضابط، لأنه يعلم ما يُخفي ورائها، ولذلك كان رده على الضابط جريئًا: »حسنًا -أخذ نفسًا عميقًا دال على الضيق- سألتني وجاوبت سؤالك، وأنا لست متهمًا كي يتم استجوابي«.

تعجب الضابط من عدم رهبة مازن للموقف ورده بكل جرأة، وذلك ما جعل شعلة الغضب تتأجج بضوئها الأحمر لينفجر غضب الضابط: »حسنًا، أنت لا تريد الطريق السهل، ويبدو أنك ما زلت لا تعلم مع من تتحدث، وهذا لكي تعلم جيدًا«.

ثم صفعه على خده الأيسر وأكمل حديثه في غضب: »أنت مراقب منذ فترة ليست قصيرة، ونعلم جيدًا الكتب التي اشتريتها -ثم ذهب يقلب في أوراق التقرير مرة أخرى بانفعال شديد- القبيلة ١٣، الكهنوت الشيطاني، اليهود وراء كل جريمة، أحجار على رقعة الشطرنج، ضباب أحمر فوق أمريكا، وأخرها بروتوكولات حكماء صهيون، صدقني لن تعود لمنزلك إلا بعد أن أسمع ما أود معرفته منك«.

رد مازن باستهزاء غير مبالٍ بما قاله الضابط: »معذرة لم يكن في معلومي أن الحكومة فرضت حظر على قراءة هذه الكتب!«

الضابط: »أنت ما تزال طفلًا، وصدقني لن تتحمل وصلة تعذيب، أنت لست بحاجة لكل ذلك، فقط أخبرني لكي يعود جميعنا إلى منزله آمنين، هل كانت تأتي لك مراسلات في تلك الكتب؟«

****

وعلى الجانب الآخر كانت الأسرة في تمام الانهيار، الأم كصنبور يذرف الدموع، والأخت لا تستطيع تصديق ما جرى في حالة إغماء وهي مفتوحة العينين من شِدة الذهول والصدمة، والأب يحاول إجراء بعض الاتصالات بأحد له نفوذه ليساعده، كل ذلك بعد أن تأكدوا من الكتاب

الذي وجده رجال أمن المدينة أنه يتكلم عن الأبراج، فعلمت ميار أنه حدثت مقاومة من مازن ما أدى إلى سقوط الكتاب ليأخذوه هاربين.
ولأن مازن كان حسن الاختيار لأصدقائه؛ فكانت قد تعرفت أسرته عليهم سابقًا، ولذلك أخبرت ميار والدتها أن مازن كان دائمًا يذهب لشراء الكتب برفقة أصدقائه، فاتصلت بهم على الفور آملين أن يكون أحد أصدقائه معه، ولكن لم يجيب هاتف محمد لأنه كان نائم إثر توعُكه، وآدم أخبرها إنه لم يكن مع مازن، وظلّ حائرًا مثله مثل أسرة مازن، يخشون ما هو آتٍ من أخبار بين لحظة والثانية.
ظلت الأمور هكذا في لحظات وساعات تمر ببطء في قلق وريبة واتصالات من الأصدقاء ليطمئنوا على سلامة مازن، لتُغلق الهواتف دون أن يُطفأ لهيب خوفهم مما هو أسوأ، حتى جاء اتصال لإمام في تمام الساعة الثالثة إلا رُبع فجرًا.
إمام: «آلو!»
الصوت: «لقد خرج مازن الآن من قسم الأزبكية بوسط البلد».
رُدت للأب روحه بعد أن تلقى الخبر ليعود يتنفس الصعداء من جديد: «أشكرك جزيل الشكر، لا أعلم كيف أوفيك حقك فقد أزعجناك».
الصوت: «لا عليك يا إمام، ولكن احذر ألا يتكرر ذلك الأمر مع مازن، فكما تعلم أنا لا أتعامل مع ذلك المستوى من الضباط، ولكن للضرورة أحكام ومازن مثل ابني».
إمام: «أنا ممتن جدًا لحضرتك!»
الصوت: «لم أفعل إلا الواجب، وحمدًا لله على سلامة مازن وحاول أن تتصل بي صباحًا لكي أطمئن عليه».

****

في اليوم التالي صباحًا تكاثرت الاتصالات إلى مازن من أصدقائه ليطمئنوا

عليه، واتفقوا على أنهم آتين إلى منزله بعد أن رفض أن يقابلهم بالخارج لشعوره بالقليل من الألم، فنهض من فراشه استعدادًا للّقائهم، وعندما نَزِل ليقابل أصدقاءه بحديقة الفيلا ووجده أباه في ملابس الخروج.

الأب: «وكأن شيء لم يكن، تخرج الآن وكأنه لم يحدث شيء بالأمس!»

رد مازن وهو في حالة ارهاق لا تسمح له بتحمل احتدام أي نقاش مع أبيه: «أبي من فضلك، أصدقائي كانوا يريدون مقابلتي في الخارج وقد رفضت، ولأنهم يريدون أن يطمئنوا عليّ أصروا على لقائي في حديقة المنزل، أي أنني لن أذهب إلى أي مكان، وإنما أنا موجود أمام المنزل».

مديحة: «يا بني نحن نخاف عليك أن يتكرر الأمر، أنت لم تر كيف كانت حالتنا بالأمس خوفًا عليك!»

إمام: «إضافة إلى أنني اضطررت إلى أن أطلب سيادة اللواء بالأمس، ولم يكتف بمساعدتي، وإنما كان مهتم بالاتصال صباحًا لكي يطمئن على سلامة سعادتك! ما ذنب الرجل لكي نزعجه ليلًا وهو لديه عمل في الصباح!»

أجاب مازن بشيء من اليأس: «ألا تهتم بعودتي سالمًا، وتهتم بأنك أبقيت سيادة اللواء ساهر بالأمس قليلًا!»

رد إمام وهو يجز على أسنانه: «لا يا غبي، أنا أقصد أن تكون واعيًا بالقدر الكافي، وأن تتحلى بقليل من المسؤولية وتتحمل نتيجة تصرفاتك».

ذهب مازن بعد أن تلقى الطريحة من أبيه متأملًا نسيانها سريعًا عندما جاء الأصدقاء، فاطمئنوا على مازن ثم بدأ المزاح حول ما حدث بالأمس.

آدم: «أرى أنك أصبحت مجرم متمرس، فقد أصبح لك سجل في ملفات أمن الدولة».

إسلام: «وهذه نهاية كل من يخرج معك».

مازن: «في حقيقة الأمر إنها تجربة غريبة وفريدة من نوعها، لا أظن أن نسيانها بالأمر الهين».
قال أحمد ضاحكًا: «بالطبع لا تستطيع أن تنساها فما زالت آثارها موجودة، كما أنك لن تستطيع أن تنسى من أبرحك ضربًا».
عَلَت ضحكاتهم جميعًا وقال مازن مازحًا: «كنت أتمنى أن تكون معي يا أحمد، كي يبرحوك ضربًا عوضًا عني، ولكيلا تسخروا مني، أنا أعترف بالفعل أنني أُوسعت ضربًا، ولكن لم يستطع أحد أن يقترب من قفاي، كان من الممكن أن أصل لتلك المرحلة ولكن أنقذنتني تلك الاتصالات التي قام بها أبي حتى تركوني».
آدم: «أخبرنا كيف تركوك؟»
مازن: «لا أعرف ترتيب الأحداث بالضبط، ولكن كان الضابط ينهمر علي بكثير من الأسئلة، وأنا لا أدري عنها شيء مطلقًا، ولكن أعتقد أنهم كانوا يظنون أنني جاسوس أو ربما أتلقى بعض المراسلات من خلال تلك الكتب التي أشتريها، كان الضابط شديد الانفعال وأنا لا أدري كيف كان لي الشجاعة لكي أحافظ على هدوئي الشديد في الرد عليه، وذلك كان يغضبه أكثر، إلى أن جاء إليه اتصال فذهب خارج الغرفة ليرد، وكان هناك ثلاثة أشخاص آخرين موجودين غير الضابط، وما أن خرج حتى بدأوا بمباشرة عملهم بضربي، حتى دخل الضابط وقال لهم في هدوء أن يتركوني، ثم توجه بالحديث إلي وقال: «لقد استطعت أن تنجو هذه المرة، ولكن انتبه لخطواتك القادمة فربما سوف نلتقي».
قال أحمد ساخرًا: «على ما يبدو أنه متأثر كثيرًا بمشاهدة الأفلام».
آدم غير مباليًا بكلام الضابط: «لا تضع كلامه في رأسك، ولا تفكر به، ودعه يشاهد أفلامه، وليبحث عنك في تلك الأفلام».
أحمد: «الأهم، هل ما زلت تشعر بالتعب الآن؟»

****

أصدقاؤه لم يكونوا مجرد أصدقاء، وإنما هم بالنسبة له أشقاؤه الذكور الذين تمناهم طوال حياته، لكن أنعم الله عليه بشقيقته ميار فقط، وعوَّضَهُ بأصدقائه ليكونوا له مثل إخوته. ورغم معاناة مازن أيضًا مع أسرته في أمر أنه لم يجد من يفهمه ومن يؤيد تفكيره، أو على الأقل يُكَمِّل تفكيره إلا أن إسلام وأحمد وآدم جاؤوا أيضًا ليكونوا أسرته خارج المنزل، فبالرغم من اختلاف اهتماماتهم -فتجد آدم مولع بالموسيقى والفن والأصول القديمة في الحياة، وأحمد مُقدِس لحياة العائلة والعمل، وإسلام قد يكون ودودًا وهادئ لدرجة البرود إلا أنه يحب الحياة- إلا أنك تجد أسلوب وطريقة التفكير متقاربة بينهم، وأجمل ما بينهم هو الروح الجميلة الطيبة التي هي أساس تعاملاتهم في الحياة، وربما قد يستاء البعض من مثاليتهم الزائدة لأنهم قرروا أن يقوموا بالدور الرجولي النبيل طوال مسيرة حياتهم على أن يُمثِلوا دور الخسيس الجبان، وفَضَّلوا أيضًا طيبتهم ونبلهم على أن يقوموا بالدور الوَسَطي الذين لا ينتمون للنبلاء ولا للأخساء، وهؤلاء تكون صفتهم هي الضعف، وربما يُفسِر آخرون طيبتهم هذه على أنه ضعف، لكن الحقيقة هي العكس، ومع الأسف قليل من يُدرِكون الحقيقة، لأن ذلك الزمن الكاحل الظلام غَطَت فيه الغيوم السوداء على كل ما هو أخضر وجميل من صفات وأصالة، لتُمحى أثرها وتُنزع جذور المبادئ الحقيقية وتستبدلها بالمبادئ المزيفة، وهي كذبة هذا الزمن.

حياة الأصدقاء

محمد المصري، وهو أحد أصدقاء مازن، فكلما ذهب للعب الكرة عند منزل إسلام يكون محمد هناك، وأثناء اللعب يسمع الآخرين يُنادونه: «باصي هنا يا مصري»، إضافةً إلى أنه أحد زملاء المدرسة أيام الثانوية، لكن معرفتهما لم تتوطد إلا وهما يلعبان كرة القدم، وزادت أكثر عندما التحقا بالجامعة. محمد هو كائن قصير ووزنه بالتأكيد لا يقل عن ١١٠ كيلو جرامات، ورغم هذا الشكل الذي يوحي بأنه مثل جبل مُتَنَكِر في جسم إنسان إلا أن حركته خفيفة ولذلك يعشق لعب الكرة، وكثيرًا ما جُبِّسَت قدمه بسببها.

****

منذ أن كان مازن في الصف الأول الثانوي وهو يحب أن يُثقِل معرفته في كل شيء، وبغض النظر عن ولعه بمادة الكيمياء في الصف الثاني الثانوي، وشغفه بالسياسة وحب معرفة العالم وما يدور فيه خلال فترة الثانوية عمومًا، كان يحب أن يدرس اللغات أيضًا فخصص الإجازة السنوية من كل عام لدراسة لغة ما، وكانت الحصيلة في عام ٢٠٠٣م -عندما كان في عامه الأول من كلية العلوم- هي ثلاث لغات: إنجليزية، فرنسية، إسبانية.

كانت الجامعة بالنسبة له عالم جديد لأنها بالطبع مرحلة جديدة عليه، وإن كانت اختلفت المجالات بينه وأصدقائه، وتغيرت الأماكن بعد أن كانوا مرافقين لبعضهم في المدرسة وفي الدروس الخارجية، إلا أن أخويتهم ظلت كما هي حتى وإن قلَّت تجمعاتهم، فما يجمعهم أكثر

من لقاء مباشر وجهًا لوجه، وإنما هو أمر يُشبه الاتصال الروحي. وبعيدًا عن ذلك العالم الذي قد يكون أقرب للخيال فكان يوجد بينهم الهواتف وتلك الشبكة العنكبوتية التي جعلت العالم مثل قرية صغيرة، وإيجازًا في الشرح والوصف فقد تغير الزمان والمكان وهُم ظلّو كما هُم، ولم تتأثر علاقتهم ببعض بتلك العوالم الجديدة التي يطرقونها.

****

بعد مرور شهر في الجامعة بدأ إسلام في استيعاب دراسته الجديدة الحاسبات والنظم، واعتاد على التجول في أي مكان بحقيبة المعدات الخاصة، والتي قد تصور للبعض من أصدقائه أنه أشبه بفني السيارات سخريةً من صديقهم ومزاحًا معه، واستطاع الجميع التأقلم مع ذلك العالم الجديد، وبدأوا يعتادون التكاليف غير المعهودة التي تُطلَب منهم، فذلك الأمر يختلف تمامًا عن واجباتهم أيام كانوا في المدرسة، كما بدأوا أيضًا في التعرف على أصدقاء جُدد وذلك بحكم اختلاف مجالاتهم. فقد التحق آدم بكلية فنون تطبيقية لحبه الشديد لمادة الرسم والإبداع الزخرفي، وأحمد في كلية الطب ذلك الأمر الذي تطلب اندماجهم وتكوين دائرة معارف جديدة.

وبحكم وجود أحمد في كلية الطب بمستشفى القصر العيني، وهي تَبعُد عن كلية العلوم القابعة بمنطقة الجيزة بمسافة ٤ كيلو مترات تقريبًا، فقد كان يذهب إليه مازن كثيرًا، وفي إحدى المرات رأى مرام وتفاجأ لدرجة أنه كان يُكَذِّب عينه، ولكي يتأكد سأل أحمد لأنه كان معهما في درس الكيمياء.

في داخل ساحات جامعة القاهرة العريقة كان يسير مازن برفقة صديقه أحمد وسأله باندهاش: «أترى تلك الفتاة هناك؟ أليست هي مرام التي كانت تدرس معنا مادة الكيمياء؟»

أحمد: «بالفعل هي، نسيت أن أخبرك أنها تدرس في كلية الصيدلة».
أجابه مازن مندهشًا من تلك الصدفة: «سبحان الله، ألم تتحدثا سويًا؟»
أحمد: «في بادئ الأمر رأيتها ولم أُرد إزعاجها، وكما تعلم أنا لست ذلك الشاب الذي يتودد لمحادثة فتاة، إلى أن تصادف لقائنا على طاولة واحدة في قاعة المكتبة، تلك المرة التي جئتُ إليك، وبالطبع ألقيت عليها التحية وعَلِمتُ أنها تدرس صيدلة».
أخذ نَفَسًا عميقًا ورد قائلًا: «صدق من قال إن العالم صغير!»
بعد أن عاد إلى المنزل شَرَدَ للحظات تذكر فيها عامين حين كان في الصف الثاني الثانوي، وقت كان يساوره الشعور بحب هذه الفتاة، وصار يتذكر أيامه مع أصدقائه قائلًا: سبحان الله! لقد مر عامان ولكني أشعر أن أشياءً كثيرة قد تغيرت، وكم هي الدنيا صغيرة، سبحان الله!»

****

كذلك أيضًا التقت مرام بمازن، ولكن أمام مبنى المكتبة حيث اتفقت مع صديقتها نادين على الذهاب إلى مكتبة الجامعة لحاجتهما لبعض المراجع، كانت تسير باتجاه المكتبة مسرعة لكي تلحق بصديقتها التي انتظرتها على إحدى طاولات المكتبة، وأمام المبنى مباشرةً عند أول درجات السلم إذ بمازن أمامها ينهي إحدى مكالماته الهاتفية.
مازن في ذهول: «مرام، هذا أنت! ما الذي أتى بكِ إلى هنا!»
لم تكن مرام رأت مازن منذ ما يقرب من عامٍ ونصف ولم تتوقع لقاءه في جامعة القاهرة، لذلك كان ردها مرتبكًا: «مازن! أنت تدرس هنا؟!»
مازن: «نعم في كلية العلوم، أخبرني أحمد أنك تدرسين الصيدلة».
مرام: «بالفعل قابلته مرة أو اثنتين من قبل».
خَفَّت درجة ذهول مازن ورد يُمازِحُها: «إذًا، لما لم ترتدي نظارة إلى الآن؟»

ضحكت مرام ورَدَت تبادله المزاح: «لا تتعجل فلم يمض على دراستي سوى شهر واحد، انتظر قليلًا وسوف تراني أرتدي النظارة والمعطف الأبيض أيضًا».

ظلّا يتحدثان لمدة طويلة لدرجة أنه نسيَ لماذا كان ذاهبًا إلى المكتبة، وكأن القدر قاده إلى هناك ليلقاها، وهي أيضًا نَسيت أنها كانت سوف تلقى صديقتها في المكتبة، كانا يتحدثان في كل شيء، عن الدراسة في الجامعة وأنه عالم جديد عليهما، وعن الصف الثالث الثانوي تلك السنة التي انقطعت فيها أخبراهما ولم يعد يعلم أي منهما شيئًا عن الآخر، وعن مادة الكيمياء، تلك المادة التي كان يجمعهم درسها. كان يبدو التآلف بينهما، ذلك الأمر الذي أشار إلى أنه في القريب سوف يُصبِحان صديقين من الدرجة الأولى. على أي حال عودةٌ سريعة لذلك الحديث الذي لم ينته بغير رنين هاتف مرام؛ نظرت في اندهاش ورددت قبل أن تجيب على هاتفها: «يا إلهي، لقد نسيت!»

مرام: «آلو! رجاءً أعذريني فقد نسيت الأمر تمامًا، أنا بجوار المكتبة الآن، آتيةٌ إليكِ». أنهت الاتصال وتوجهت بالحديث إلى مازن وهي على عجلة من أمرها: «أعذرني يا مازن، سوف أذهب الآن لأنني نسيت أن صديقتي نادين تنتظرني في المكتبة».

أجاب مازن ممازحًا: «وتتركينها تنتظر كل هذا الوقت!»

مرام: «عندما قابلتك أمام المكتبة كنت صاعدةً إليها، ولكني نسيت الأمر تمامًا!»

مازن: «لا عليك، اذهبي الآن كيلا تتأخري أكثر، ومؤكد سوف نلتقي مرة أخرى».

ودعته وأدارت ظهرها باتجاه المكتبة تُسرع الخطى، وهي مبتسمة ولا تدري لماذا؟ هل لأنها تأخرت على صديقتها حقًا؟ أم لأنها سعيدة بلقاء

مازن؟ فقد كان أيام الدراسة صديقًا مميز بالنسبة لها؛ لتأدبه وخلقه النبيل، وها هي الآن قد استعادت ذلك الصديق النبيل، أما بالنسبة لمازن ربما كان الأمر يتجاوز صديقة مميزة فبدأت تثار التساؤلات داخله إذا كان يحبها حقًا أم لا، فهو متأكد تمام التأكد أن شعوره سابقًا كان مجرد مرحلة عمرية وسوف تنتهي، فترُى هل ما زال في نفس تلك المرحلة العمرية؟ أم أن شعوره نحوها صادقٌ وحقيقي؟

****

مرام فخري وهي تقريبًا النسخه الأُنثَوية من مازن، من حيث الطباع والطموح والشخصية والنشأة الاجتماعية.

أولًا:

من حيث النشأة الاجتماعية، حيث ولدت وفي فمِّها ملعقة من ذَهَب في وسط أسرة قبطية مُترفة في حياتها، وتَرَبت على الرُقي ولكن مع الحفاظ على العادات والتقاليد الشرقية، فلا تجدها مُبالِغة في ملابسها بعدم الاحتشام أو فيما يُعد أنه ملابس عارية في عصرنا هذا.

ثانيًا:

من حيث الشكل، كانت جميلة، عينان لونهما عسلي فاتح، وربما في ضوء الشمس تجدهم خُضر، وجه أبيض خمري يُشبه الملائكة، وأيضًا في ضوء الشمس تجد وجهها لامع كَشَمْعة تنصهر أو كالفتاة الصهباء، وجهها دائري دقيق المعالم كلوحة مرسومة، يعلوه شعرها الكستنائي الناعم الذي يمثل تاج الأميرة.

ثالثًا:

من حيث الطباع والطموح، مثلما ذكرنا أن لدى مازن من كل شيء ما يلزم، فلديها الجدية والمرح، الضعف والقوة، الحنان والقسوة، الحزم والدلال، تَسوق دلالها على من تحب، وتبدو في قمة ضعفها إذا أغدقها

حبًا؛ إيمانًا منها بأن أنوثة المرأة تكمن في ضعفها، وفي الوقت نفسه تعلم جيدًا أن أنوثتها قوة وليست ضعف، وتُظهِر مخالبها وقت الجَد، وإذا ضاقت الأمور تستطيع أن تنقلب ١٨٠ درجة لتُظهِر القسوة وتُثبِت أنها رجل وليست أُنثى.

شخصيتها عمومًا محبوبة ومرحة تحب الضحك، ومتعاونة واجتماعية، ومع ذلك مُحبة لاختلاس وقت خاص بها لتعيشه وحدها، وتحب مساعدة الغير، وصريحة، فإذا تم دمج هذه الأوصاف إلى التربية الفاضلة من قِبَل أَبَوَيها إلى جمالها الفاتن فيكون الناتج إنسانة نقية كالماء، شخصية قوية كجفاء الرمال، جمالها ملتهب كالنار، وحياتها عمومًا صراع كعاصفة هوائية، تارة اتجاهها واحد يسارًا أو يمينًا، وتارة مثل الدوامة، وتارة أخرى ربيعية هادِئة.

دائمًا كانت تَود أن تُصبح طبيبة اقتداءً بوالدتها التي توفت وهي في عامها الرابع عشر، كان ذلك الطموح منذ الطفولة لأن الأب كان كثير السفر، ولذلك كانت الأم لها كل شيء، ولا عجب أنها ارتبطت بوالدتها أكثر من والدها بحكم أشغاله وأعماله المرتبطة بعِدة دول، وبالطبع تغيرت الأحوال بوفاة والدتها، حيث عاد الأب لبلده ليرعى ابنته الوحيدة محاولًا إدارة أمور أعماله الخارجية من مصر، وعندما بَلَغَت مرام من العمر ما يجعلها تتفتح ذهنيًا لتحدد أكثر مما كانت تريد أيام الطفولة، ولَطالما أنها اقتدت بوالدتها فَأَحَبت أن تنال لقب الدكتورة يومًا ما، وذلك الهدف اكتمل بشيء من المنطق عندما بدأت تعي ماذا تريد أن تكون؟

ولكي يكتمل التماثل اللّا إرادي بينها وبين مازن فجمعهما أيضًا الشغف بمادة الكيمياء، ذلك الأمر الذي جعل مرام تجمع بين ما تحب الكيمياء، وما ارتبطت به منذ الطفولة الدكتورة، ولذلك التحقت بكلية الصيدلة

طامحة في أن تكون أحد البارعين في تركيب الأدوية.
****
منذ ذلك اليوم ومازن يقابل مرام أكثر مما يقابل صديقه أحمد، وتعرف على أصدقائها أيضًا وأصبحوا أصدقاءه لدرجة أنه ذهب لها يومًا ما ولم يجدها فجلس مع أصدقائها، وكما نعرف جميعًا أن صداقات الجامعة ربما تُفرض عليك بعض الأشخاص الذين لا تقبلهم، وصداقتنا لهم تنشأ بحكم مجال الدراسة فقط، فهناك من لا تتقبلهم مرام من هذا النوع من الأصدقاء ومع الأسف كانوا ضمن من تَعَرَّف عليهم مازن، وهو ما جعل مرام تشعر رويدًا رويدًا بالغيرة حين يتحدث مازن إلى أحد أصدقائها التي لا تثق بهم، ربما هو شعور ليس من حقها أن تشعر به، ولكن هي بدأت في مرحلة ما قبل الاعتراف، وهي التي يُخيل فيها أن لها كل الصلاحيات وكل الحق في مازن رغم أنهما ما يزالان مجرد صديقين.
بسبب تلك الحالة التي فيها مرام بدأ يظهر عليها التوتر في كل حوار يدور بينها وبين أصدقائها حين يسألونها عن مازن وأخباره، تلك الإشارات التي لم تفهمها سوى صديقتها نادين لتحاورها بشكل مباشر، وقالت لها بابتسامة ممازحة: «أرى أنك بدأت تشعرين بالغيرة!»
ردت مرام في ثبات منافي تمامًا لحقيقة ما بداخلها: «أغار على من؟ ممن؟»
أضاقت نادين عينيها ورفعت حاجبها الأيسر وقالت بكل ثقة: «ومن غيره! تغارين على مازن، الأمر واضح لا يحتاج لتفسير».
ناورتها مرام في قولها: «إذا كان الأمر واضحًا ولا يحتاج لتفسير، فلما تسألين إذًا؟»
نادين بابتسامة عريضة: «فقط لتأكيد ظني، وبالفعل قد حصلت على

إجابة».
مرام بسخرية وابتسامة تملأ شدقيها: «ألم أقل لكِ سابقًا أنك تمتازين بذكاءٍ خارق».
ردت نادين ضاحكة: «كفاكِ مناورات، الأمر الذي لا تقولينه تفضحه أفعالك يا سندريلا».
تفاجأت مرام ولم تَكُن تدري أن الحُب قد ظهر على وجهها، لكنها رَدَت باتزان: «وتلقبينني أيضًا بسندريلا! يا عزيزتي لعل الأمر يبدو للبعض كذلك، ولكن حقيقة الأمر أنه ليس هناك أي شيء بيننا، فقط مازن صديق مميز بالنسبة لي، ولا أنفي أنني ربما أحبه مع الوقت، ولكن الآن لا أستطيع قول ذلك مطلقًا فهو فقط صديق مقرب».
سكتت نادين قليلًا وظلت تسير بجوار مرام لتنهي الموضوع بكلماتها الواثقة وابتسامة سعيدة من أجل صديقتها: «بالطبع أنا أصدقك، ولكن صدقيني لن يطول الأمر كثيرًا حتى تحبيه فمازن شاب جيد».
لم تدر مرام هل هذا تحدٍ لها لكون نادين على يقين بما هو آت، أم أنه ثناء على مازن لتشجيعها وإقناعها أنه يستحقها، أم أن نادين تحسدها على تلك العلاقة! جالت مرام ببصارها واتسع شدقيها واستفاقت سريعًا من هوس الغيرة الذي بدأ يطاردها، وعادت تقول لنفسها: «ربما هب محقة، مازن حقًا شاب ممتاز».

****

انجلت أيام الخريف سريعًا، وبدأت نسمات الشتاء تكشر عن أنيابها، وكلما تعمقت يزداد الاهتمام بالدراسة خاصة مع اقتراب موعد امتحانات منتصف العام، التي تتزامن مع رأس السنة الميلادية، ولذلك كانت تقل مقابلات مازن بأصدقائه مع انشغال الجميع بأمور الدراسة، وعلى الرغم من اختلاف المجال الدراسي بين مازن ومحمد إلا أن كثيرًا

من الأشياء كانت تجمعهما مثل اتفاقهما سويًا لمشاهدة مباريات دوري أبطال أوروبا، كما أخذت السياسة قسطًا كبيرًا من اهتماماتهما وكانت عامل مشترك، ولشعور مازن بالحاجة إلى بعض المرح قليلًا بعد أن درس لمدة تجاوزت خمسة أيام بكل تركيز وجدية، أراد أن يمضي بعض الوقت مع أحد أصدقائه، وقام بالتواصل مع صديقه محمد ليقابله في ساقية الصاوي لحضور ندوة سياسية يحاضر فيها أحد الخبراء السياسيين العرب في منطقة الشرق الأوسط، ويدعى علي الجزار. وبعد انتهاء الندوة المثيرة، وأثناء سيرهما في شوارع حي الزمالك المجاور لمكان عرض الندوة، اقترح محمد على مازن أن يذهب معه في اليوم التالي لحضور عرض مسرحي، كنوع آخر من قضاء الوقت والمرح.

المصري: «هل لديك مواعيد غدًا؟ فهناك عرض مسرحي بوسط البلد».

نظر إليه مازن ممازحًا وتذكر الندوة التي كانوا فيها ورد قائلًا: «ولكن رجاءً ألا تكون مثل تلك الندوة».

ضحك محمد وبادله المزاح: «إي نعم هو كان متفاعل كثيرًا، ولكن الرجل حقًا شرحه رائع».

رد مازن مبتسمًا ليقول: «انتبهت كيف كان كلامه عن الحكومات؟! كنت أشعر أنه هناك ضباط من أمن الدولة حاضرين الندوة، وسوف يهبون بين اللحظة والأخرى ليلقوا القبض على كل من في القاعة، وإعدام ذلك المحاضر في ميدان عام».

ضحك المصري ورد قائلًا: «أرى أنك بدأت تخاف يا صديقي».

بدأ الحوار يصبح أكثر جدية لينتهيا من مزاحهما، ليرد مازن بسخرية قائلًا: «إذًا أنت لا تستطيع أن ترى! يا عزيزي أنا لا أخشى على نفسي شيء، وإنما أنا لا أريد المشاكل لأسرتي، كما أنك تعلم جيدًا ما حدث لي عندما تم القبض عليّ المرة الماضية».

غضب قليلًا المصري ورد في انفعال: «أخبرني، هل يعجبك حال البلاد الفترة الماضية؟ وإذا لم نتكلم نحن فمن يتكلم! صدقني لم يؤخرنا شيء غير الصمت!»

نظر مازن حوله خوفًا أن يكون انتبه أحدهم إلى حديثهما السياسي العميق، وبدأ في تهدئة صديقه، وعاد يوضح له وجهة نظره في الأمر، وكيف يتعامل مع الوضع الراهن في البلاد: «صدقني أنا مثلك، شديد الرغبة في أن تتغير الأحوال بين ليلة وضحاها، ولكن كيف ذلك! فلا يتغير شيء بشكل جذري، فنحن نتكلم عن دولة بأكملها وجهاز حكومي كامل، إذًا العنف والصياح لن يفيدنا بشيء فما هي إلا مجرد استهلاك لطاقتنا، الأمر فقط يحتاج لترويض وتحايل أكثر من الحماس والاندفاع، فالعنف لن يؤدي إلا لعنف، صدقني وكن على يقين أنه سوف نجد حلًا، ولن تظل البلاد على هذا الحال كثيرًا بمرور أجيال وأجيال، حسنًا فالننس أمر السياسة، أخبرني ما اسم المسرحية؟»

رد المصري في امتعاض: «هو عرض مسرحي قصير في الكنيسة الكاثوليكية اسمها الأخوة كرامازوف». ثم أكمل حديثه ممازحًا بانفعال: «لا تَقُل لي أننا سوف نتهم بقضية فتنة طائفية!»

على الرغم من صحة كلامه إلا أن حكمة مازن كانت صحيحة أيضًا، فإن ما يثير محمد هو أنه إعلامي، أي أنه أقرب للأحداث وأقرب لما يدور في البلاد، لكن كونه إعلامي أيضًا فلا بد أن يكون صدره أكثر اتساعًا وأكثر هدوءً لكي يكون موضوعيًا، كما أن حِكمَة مازن لم تكن من فراغ، فإذ لم يُعتَقل سابقًا فلم يكن بمثل هذه الحِنكة.

وبطبيعة الحياة فإن من ينشأ نشأة ناعمة ومترفة دون أي مجهود فلن يتعلم منها شيء، ذلك النهج الذي لم يَسلُكَهُ مازن دون إرشاد من أحد

رغم بيئته التي كانت تؤهله ليُصبح في الحياة ابن ذوات دون أن يتعلم منها ما يفيده، وهو وحيد لكي يعتمد على نفسه دون أن ينتظر شيء من أحد.

والسياسة بصفة عامة كاهتمام مشترك بينهما أثارتهما على مدار السنين باختلاف وتزايد خبراتهم في كل عام عما سبقه، وانصَّبَ اهتمامهما على عِدة أشياء تحدث في البلاد وهم يرفضونها، ومنها على سبيل المثال السياسات الخارجية للبلاد إزاء القضية الفلسطينية، وكم كانا يكرهان ذلك الكيان الصهيوني وتلك الجماعات الطفيلية التي تعيش على أرض ليست أرضها، وداخليًا كانا يرفضان سياسة توريث الحكم التي كان مبارك في صدد اتباعها، إضافةً لتلك المشكلات المعهودة في المجتمع المصري مثل البطالة وغلاء الأسعار، والنظافة والتلوث البيئي، والرواتب والتجاهل المتعمد إزاء كم المشاريع التي بإمكانها أن تصنع نهضة في كافة المجالات، والقمع السياسي المتبع في قضايا حرية الرأي والتعبير.

فكلٌ منهما كانت ظروفه كفيلة أن تجعله يأمل بالغد الأفضل لبلده، فمازن كثيرًا ما كان يسافر إلى الخارج ويرى مجتمعات وثقافات مختلفة جعلته يشعر بالغيرة على وطنه، وأحب أن يُصبح كما يحلم به، إضافةً لذلك الوجه الأسود الذي رآه عندما اعتقل ممن يعملون على ذلك الوطن، لكن ليس لمصلحة الوطن وإنما لمصالح شخصية، ومحمد اهتمامه المسبق بالسياسة إضافةً لدراسته التي وضعت يده على كثير من الأخطاء في البلاد، إضافةً أنه وجد ما يشجعه على ذلك ويتبنى مشكلة الوطن معه -مازن- فكل ذلك كان حافزًا لإثارة دمِّه الحُر على الوطن المسلوب.

****

على مدار عامين من الدراسة الجامعية، كانت علاقة مرام ومازن تثير

شكوك الجميع من أصدقائها وأصدقائه، مجال الدراسة لم يكن يسمح بأن تكون علاقتهما وطيدة إلى تلك الدرجة، ولكن ظل التجاذب بينهما يزداد ويزداد متجاهلًا اختلاف مجال الدراسة وأماكن الدراسة، حيث تبعد كلية مازن عن مكان كلية الصيدلة تمامًا، حتى بدأت تتردد الشائعات هنا وهناك من بعض الفتيات والفتية الذين لا يشغل تفكيرهم سوى أمر الآخرين ممن حولهم، وعلى الرغم من وفود العديد من الناس القادمين إلى القصر العيني، ربما للدراسة أو للعلاج في أحيانٍ كثيرة، إلا أنه كان ملحوظ للكثير أن أكثر المترددين على كلية الصيدلة هو مازن، فمرام رغم دراستها الجادة والتي لا تسمح بأن يتخللها أي نوع من الهرج والمرج، إلا أنها كانت الفتاة الأكثر شعبية في الكلية بصفة عامة، ومعروفة لدى كثير من شباب دفعتها وإلى الممرضين والأساتذة هناك. كان الأمر أشبه بنجمين سنيمائيين وتسربت بشأنهما الشائعات والأقاويل إلى أن بدأت تصل أصدائها إليهما وكان أمرًا مزعجًا لمرام أن تسمع تلك السخافات حتى وإن كانت معجبة بمازن حقًا. ولعدم تقبل مازن للموضوع أيضًا بدأ يحد من زياراته لمرام لكيلا يُشعرها بالحرج من تلك الأقاويل، ولكن الأمر لم يرق لصديقه آدم الذي كان يرغب في حل أكثر صرامة وحِدَّة.

تحدث آدم بكل جدية إلى مازن قائلًا: «عليك أن تحدد موقفك إذا كنت تحبها أم لا».

تفاجأ مازن من مباشرة صديقه بالتحدث صراحة في الأمر فهو لم يكن يرغب أن يطرح عليه أحدٌ هذا السؤال! وكأنه لا يعلم الجواب! فهو بطبيعته يخشى الفشل، ولذلك لم يكن قد استقر قلبه وفكره بشأن مرام بشكل كامل، فما زالت تلوح في الأفق بعض شكوكه، فضلًا عن كونها تكبره بما يقرب العام.

- «مرام فتاة ممتازة ولا ينقصها شيء، لماذا تسألني هذا السؤال؟!»
تعجب آدم وأضاق عينه قائلًا: «لماذا تناور يا صديقي! أنا لم أسألك عن رأيك في مرام! أتعلم أنها تحبك؟ فيبدو هذا واضحًا في تصرفاتها معك، وإذا لم تكن تبادلها نفس الشعور فيتوجب عليك الابتعاد عنها تمامًا، لكيلا تتسبب لها في الألم لأنها سوف تنتظر منك شيء، وأنت لن تقدمه لها مطلقًا إذا كنت لا تحبها».
كلامه كان مقنعًا تمامًا؛ لذلك كان يتوجب على مازن إعادة التفكير مرارًا وتكرارًا، وبدأ بلوم نفسه ولوم صديقه، وكأنه يقول لنفسه: «لماذا فتحت عليّ جبهة جديدة تضاف لمشاغلي وتفكيري يا آدم؟ ألا يكفي مشاكلي مع أبي، وهمّ دراستي ومستقبلي الذي أحاول أن أخطوه خطوة تلو الأخرى؟! ولكني حقًا معجب بمرام. أيعقل أنني أنكر حبي لها بحجة أنها تكبرني بعام؟ أم لأنني أخشى ألا تستمر علاقتي معها لأني أحبها لدرجة تجعلني أخشى أي اختلاف بيننا بمرور الزمن، فنحن ما نزال صغار في السن؟!»

****

تفكيره لم يكن تفكير شاب مراهق، وإنما تفكير شخص ناضج يفكر في غيره، ويفكر بكل منطقية وموضوعية لا تدل على وجود تلك العاطفة المهولة التي قد تجعله يكتم حبه داخله، لكيلا يخسرها حتى كصديقة لأنه يريد أن يحافظ على علاقته بها أيًا كانت، ولكن سوف يكتب يومًا ما لهذه العلاقة أن تنتهي مجرد أن تنتهي دراستهما الجامعية، فلا مفر من ذلك الوداع، إما أن يخرج عن صمته وليعش يومه دون تخطيط للغد، ذلك هو التمثيل للصراع داخل رأس مازن بين الواقع والمأمول.
ولكن تاريخ ميلاد مازن في ١٩٨٧/٢/٢٣، وتاريخ ميلاد مرام في ١٩٨٦/٧/١٤ مما يجعلها أكبر منه بـ٢٢٣ يوم ولعل البعض يعتبره فرق

يوضع في الاعتبار، والبعض الآخر لا يضع لمثل هذه الأمور أهمية ضِمن حساباته، لكن ليت هذه هي المشكلة فالأهم وما ليس يدري به أيٌّ منهما أن مرام قبطية ومازن مُسلِم، ذلك الأمر الذي لم تسنح أي فرصة لأيٍ منهما في أن يتعرف على طائفة الآخر رغم الصداقة التي تكاد تكون أكثر منها أخُوة، لكن كما يعلم جميعنا أن الحب لا يعرف المنطق.

***

أستراليا عام ٢٠٠٥

في عام ٢٠٠٥م أُجريَت تجربة اختبار أحد الطائرات الجديدة، حيث أجرى يابانييون اختبار لتصميم ثوري لطائرة ركاب أسرع من الصوت وتختلف عن طائرة الكونكورد البريطانية-الفرنسية التي أُحيلَت للتقاعد قبل عامين، وقالت وكالة استكشاف الفضاء اليابانية جاكسا إن النموذج يبلغ طوله ١١ مترًا، وأُطلق بواسطة صاروخ من موقع اختبار وومیرا في الصحراء الأسترالية، وانفصل النموذج عن الصاروخ كما كان مخططًا له، وأجرى طيرانًا اختباريًا مدة ١٥ دقيقة بسرعة تُعادل ضعف سرعة الصوت، وقد انفصلت الطائرة عن الصاروخ في ارتفاع ١٨ألف متر لتبدأ رحلتها وسط جو من القلق. ولكن صرحت متحدثة يابانية بأن الاختبار تم بنجاح، وتتميز الطائرة أيضًا بالاتساع لنحو ٣٠٠ مسافر، وأنها أقل ضوضاء وإضرار للبيئة، وأقل استهلاكًا للوقود.

حَضَر هذا الحدث ثلاثة من علماء الوطن العربي وهم: د.سليمان حافظ من مصر، د.كِندة عمّار من سوريا، د.مصطفى زياني من تونس، وقد تمت دعوتهم من قِبل بعض أصدقائهم في الخارج لحضور الاختبار. وبدورها حضرت د.كِندة كأحد علماء الفضاء، وحضر الدكتوران سليمان ومصطفى العلماء بالمجال الكيميائي والمفعلات كأحد المهتمين بتلك

التجربة، مع العلم بأنه كانت توجد سابق معرفه بسيطة بينهم لاشتراك مجال العمل والبحث -المفاعلات النووية- لكن لم يكن يدري كلاهما أن الآخر ذاهب لحضور التجربة، ولذلك فوجئ كلٌ منهما برؤية الآخر خصوصًا، وأنهما لم يلتقيا منذ عامين.

- «زياني هذا أنت!»

أدار مصطفى ظهره في اندهاش وما أن رأى الشخص الذي يناديه حتى ترامت الأحضان: «لا يعقل، هذا أنت! مرحبًا بك صديقي سليمان، كيف حالك؟»

أجاب سليمان والسعادة تعترم بوجهه: «حمدًا لله، أوحشتني أيها العجوز».

ضحك مصطفى ورد مازحًا في سخرية: «حسنًا أيها الشاب مفتول العضلات، وأنت أيضًا يا صديقي، أخبرني أين اختفيت كل هذه المدة؟»

سليمان: «اعذرني يا عزيزي، ولكن مشاغل الحياة لا تنتهي، فقد كنت في بعثة خارج مصر في كندا لمدة عامين».

مصطفى: «وهل ما زلت هناك؟»

سليمان: «نعم ما زال لدي عام آخر هناك، وأنت أخبرني عنك؟»

أجاب مصطفى بما يُعَبر عن التعب والهِرَم: «لقد سئمت العمل الروتيني، وأود أن أتقاعد وأتفرغ قليلًا لأعمالي الخاصة، أتتذكرها؟»

ابتسم سليمان وأجاب في غموض: «لم أنس الأمر بالطبع، وتأكد أننا في مركب واحدة».

ظلّا يتحدثان كَديوك تتصارع مع بعضها، ولكن ما جعل الأمر كوميدي هو أنهم ديوك كبيرة في السن، حيث يبلغ دكتور سليمان من العمر ٥٦ عام، ودكتور مصطفى ٥٢ عام، ذلك الأمر الذي يجعل عنادهم لبعضهم أمر مُضحك، واستمرا على هذه الحال إلى أن رأى دكتور سليمان دكتورة

كِندة وذهب ليتحدث إليها حيث جمعهم لقاء سابق بولاية كالفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية كأساتذة محاضرين بالجامعة.
وبعد أن انتهى الاختبار الذي ظنَّ علمائنا العرب في أنه ربما مجرد سِتار لتجربة أخرى تجري في الظلام، ولتوجيههم لشيء معين، خصوصًا مصطفى وسليمان حيث أنهما كانا يعملان منذ فترة على إنجاح تجارب اختبار خاصة بمفاعل يعتمد على إنتاج الطاقة النووية عن طريق الاندماج النووي وليس الانشطار النووي، وعلى الرغم من العدد الكبير من التجارب التي تم القيام بها في كل أنحاء العالم منذ خمسين سنة، فإنه لم يتم التوصل إلى بناء مفاعل يعمل بالاندماج، وكل ما استطاع الإنسان التوصل إليه في هذا المجال جاء في المجال العسكري بابتكار القنبلة الهيدروجينية، والاندماج النووي يعني تجمع نواتان ذريتان لتكوين نواة واحدة أثقل، ولكي يكون هناك مثال حي من الطبيعة على تنفيذ الفكرة فهناك الشمس مثلًا التي تُعد النواة الكبيرة التي تحمل بداخلها عِدت أنوية تُطلِق خلال اندماجها كمية هائلة من الطاقة تظهر على شكل إشعاع وحرارة، حرارة الشمس.
ومنذ عام ونصف جَرَت محادثة عن طريق الإنترنت بين سليمان ومصطفى كانا يتبادلان فيها المعلومات والاستنتاجات التي توصل إليها كلٌ منهما، كانت فكرة العمل على مفاعل يعمل بالاندماج تسير ببطئ نظرًا للبُعد بينهما وقِلة اللقاءات، والتي لم تساعد الظروف في كثرتها، وباجتماعهما اللاإرادي اليوم، ولقائهما بدكتورة كِندة هو ما جعل الأذهان تفكر مرة أخرى في الأمر، وذلك لوجود طرف كانا يحتاجان إليه -عالم فضاء- ولا يستطيعان أن يأمنا أحد على ذلك العمل الذي يسير بمجهودات شخصية في الخفاء، وبناءً عليه اتفق الجميع على تضافُر جهودهم لإنجاز عمل تاريخي.

مولود لا يشيخ

١- شَكٌ واعتراف.

في صيف عام ٢٠٠٥ وبعد ظهور نتيجة الامتحانات النهائية، جاءت تُبَشر مازن بالمستقبل الباهر الذي طالما كان يسعى إليه طوال حياته، ليطمئن أن مجهوده ومساعيه تحصد نتاجًا ممتاز ولذلك، وكعادته، التحق بأحد المعاهد الخاصة لدراسة البرمجة في دورة مكثفة حتى يستطيع إنهائها خلال فترة إجازته.

أما مرام جاء تقديرها أضعف بقليل بتقدير جيد جدًا، وبطبيعة شخصيتها التي لا تقبل الفشل، ولا ترضى في عملها بالقليل، أقبلت على تسجيل اسمها في دورات التقوية الصيفية وكثفت جهودها للبدء بتدريب عملي، ولم يكن ذلك ببعيد عن مساعي والدها ذي النفوذ والعلاقات الواسعة.

وقد كان لها مرادها، فانغمست في الدراسة وظلت تطالع الدروس والأبحاث استعدادًا للسنة الدراسية الجديدة.

وعلى الرغم أن الكليات العلمية لا تُعطي لك متسع من الوقت لكي تهتم بالآخرين أو حتى تهتم بأفراد بيتك إلا أن علاقتها بمازن توطدت وظلت متماسكة بل ربما أكثر قوة وترابط.

فرغم الإجازة والمسافات بينهما واختلاف المجال الدراسي إلا أن تجاذب أطراف الحديث الذي لا ينقطع بينهما ظل مستمرًا، ليتغلب على كل تلك الحقائق التي من المفترض أن تخلص إلى أن علاقتهما لن تدوم طويلًا أو على أقل تقدير لن تكون بمثل هذه القوة!

مرات عدة كان الحوار بينهما علمي ومرات أخرى على حال البلاد وأوضاعه السيئة، لم يتطرق الحديث أبدًا إلى الأحاديث الغرامية ولكن بعيدًا عن الأحاديث الجادة كانا يمازحان بعضهما على غرار مشاكلهما أو بأحد تعليقات مازن الساخرة على أسلوب مرام، محادثاتهما كانت إما عن طريق الهاتف أو من خلال الشبكة العنكبوتية، وأحيانًا تمتد أحاديثهما لساعات، مداعبات بغلظة لتنتهي بينهما بهدوء.

نهضت مرام بكسل في نهارٍ حارٍ تطالع درجة حرارة مكيف الهواء، انزعجت بشدة عندما رأت مؤشر الحرارة على الدرجة ٢٤ فأيقنت أن والدها قبل أن يغادر إلى عمله دخل يقبلها كعادته ورفع درجة حرارة المكيف، ولكنها لم تشعر به هذه المرة فقد سهرت ليلًا حتى الساعة الثالثة فجرًا تتحدث إلى مازن عبر الإنترنت، وتحضِّر تكليف أوكل إليها من قبل أحد الدكاترة التي تتابع معها في دروس التقوية الصيفية، ثم قامت بتعديله إلى ٢٢ درجة ورمت بالريموت جانبًا، وبعد مرور وقت قصير وكأنها استفاقت من غفوة سريعة رفعت رأسها مسرعة ناحية ساعة الحائط التي تتوسط غرفتها، وفوجئت أن الساعة قد تجاوزت الـ ١١ ظهرًا، وسريعًا أخذت تنظر لهاتفها وهي تحك عينها لمحاولة إدراك الأمور من حولها لتجد تسعة اتصالات من صديقتها نادين!
وعلى طريقة سوبر مان هبت واقفة في عجالة لترتيب أغراض دراستها ووضع التكليف الذي كان من المفترض أن تسلمه ذلك الصباح في تمام العاشرة والنصف، ولكنها لم تنتبه لوالدها أو لمكالمات صديقتها أو لمنبه الهاتف الذي كانت قد ضبطته على الساعة التاسعة صباحًا!
ذهبت مسرعة غير مبالية بهندامها وصارت تصارع السيارات من حولها لكي تجتازها سريعًا وصولًا إلى الجامعة، بالطبع لم تعرف كيف تعبر عن

أسفها لصديقتها التي انتظرتها كثيرًا، ولكن كان أول أولوياتها الدكتور الذي كان ينتظرها.

نادين: «لقد انتظرتك كثيرًا، وكذلك انتظرك الدكتور لمدة تجاوزت النصف ساعة، ولما ضاق به الأمر سألني عن التكليف ورددت عليه بخوف شديد، وقلت له إن التكليف معك».

اتسعت عيني مرام وردت تتسأل في خوف وهياب: «وماذا بعد؟ ماذا فعل؟»

نادين: «أخذ نظارته وأغلق كتابه، ونهض يغادر القاعة دون كلام».

ردت مرام وهي نادمة على ما حدث: «يا الله كم أنا غبية! بالطبع لن يقبل أن يستمر معنا وعلى مستوى الدراسة فقد أيقن أنني إنسانة مهملة وغير جديرة باهتمامه!»

ابتسمت نادين لتحاول تهدئة الأمور وتيسيرها على صديقتها: «أرى أنك أعطيت للأمر حجمًا كبيرًا! دكتور قاسم ليس بهذه القسوة، فقط يتوجب عليك إيجاد حجة قوية، ولكن أخبريني هل كل شيء على ما يرام؟ لقد انتابني القلق حينما اتصلت أكثر من مرة ولم أجد ردًا؟»

مرام: «أنا بخير فقط كنت نائمة، ولا تسأليني كيف لي ألا أنتبه لكل تلك الاتصالات فأنا شخصيًا مندهشة، أنا لم أنتبه حتى لوالدي حين كان مغادرًا إلى عمله!»

نظرت إليها بنفس الابتسامة وأضاقت عينيها لتسأل: «وما الذي جعلك تتأخرين في نومك أمس حتى لا تشعرين بأحد هذه الصبيحة؟!»

بدأت مرام تدرك أن صديقتها تعلم الإجابة، ولكنها تحاول فقط استدراجها للحديث بشأن مازن: «اطمئني لقد سهرت ليلًا لكي أنهي أمر التكليف بالإضافة أنه كان هناك أحد مباريات كرة القدم كنت أشاهدها».

ضحكة نادين بشدة وهي تقول: «أي فتاةٍ أنت!» ثم أكملت وهي تنظر إليها بخبث وضاقت عيناها: «ولكن أخبريني، أهذا فقط؟ ألم تكوني تتحدثين إلى مازن؟»

صمتت مرام لثوانٍ وهي تنظر للفراغ من حولها بعيدًا عن النظر مباشرةً لنادين، وردت تحاول المناورة بحديثها: «وإن كان! لقد كنت أقوم بعمل أكثر من شيء في وقت واحد، فلم يكن مازن السبب في نومي متأخرة ولا المباراة».

أخذت نادين نفسًا عميقًا ودخلت في صلب الموضوع: «تحاولين أن توحي لي بأن اهتمامك به غير مؤثر على حياتك».

بدأ نقاشهما يكون جادًا أكثر لتتحرر مرام من خجلها قليلًا وتتحدث عن مشاعرها: «أنا غير مبالغة في اهتمامي بمازن فقط لأنه صديق مقرب إليّ، كما أنني لا أنكر إعجابي به ولكن لا تستطيعين أن تنكري إحساسك أيضًا باهتمامه بي».

ردت نادين سريعًا بابتسامة: «لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك، ولكن ما فائدة الاهتمام دون الفعل، كذلك كمن يقول ولا يفعل، وصراحةً أنا قد بدأت أشُك في أمر مازن».

تفاجأت مرام من كلام صديقتها، وصارت تتسائل ما الذي تشُك بأمره في مازن، لتجاوبها بما لم يخطر أبدًا على بالها: «أنا أشُك في أمر ديانته، هل أخبركِ يومًا عن دينه؟»

لم يخطر الأمر على بال مرام أبدًا ولم ولن توصلها الشكوك أبدًا لهكذا احتمال، ولذلك كان توقع نادين بالنسبة لها كالصدمة، لتصمت لثوانٍ معدودة، ثم تعود ترد وهي تحاول أن تُبعِد ذلك الشك الذي بدأ يتسلل إلى قلبها: «لم أنتبه لهذا من قبل، ولكن لا توجد أي احتمالات تقول إنه مسلم».

ردت نادين في هدوء مفزع: «كما لا يوجد أيضًا أي احتمال يقول إنه مسيحي».

لم يكن لدى مرام أي رد لتقنع به نفسها وتقنع صديقتها أن شكها لا أساس له من الصحة، بل ربما أيضًا بدأت تقتنع وتتيقن أن هذا هو السبب الحقيقي وراء تأخر مازن في البوح لها بمشاعره.

وبعد صمتهما طويلًا تخلل صوت هاتف مرام بأحد الرسائل الواردة إليها، لتجد المرسل هو مازن: «همست الطيور والشجر وهمست للنجم والقمر، وأرسلت سلامي لأعز من في البشر».

ما أن رأتها مرام وابتسمت ابتسامة تحمل معنيين، الأول أنها في قمة الفرح والسعادة من اهتمام مازن بها، والذي يُبَشر بقدومه قريبًا ليقول لها أنا أحبك، والثاني هو الخوف ألا تكتمل سعادتها التي سَعَت إليها منذ عامين، منذ عامها الأول في الجامعة.

****

لم يكن لكليهما -مازن ومرام- أن يذهب للآخر ويسأله بكل بساطه ما هي ديانتك! ولذلك بقدر ما كانت حيرة مرام وتفكيرها المستمر كان أيضًا مازن لا يخلو باله من التفكير في الأمر، وكانت حيرته مضاعفة عن مرام، لأنه غير أمر ديانة مرام، فهو ينظر لعواقب أخرى ويخشاها مثل فرق السن بينهما لكون مرام أكبر منه، وأيضًا هو لا يرغب في الدخول في علاقة وهو غير متأكد من اكتمالها أيًا كانت الأسباب، وبالرغم من أن الأمر يبدو معقد بالتفكير المنطقي لدى مازن، إلا أنه قرر أن ينصاع وراء قلبه، ولذلك بدأ يبادل مرام الاهتمام بالرسائل والمهاتفة، حيث استمرت الأمور هكذا شهر، لكن مع الأسف جاء اهتمام مازن في الوقت الذي قررت مرام فيه التجاهل، حيث أنها حاولت بكافة الطرق طوال هذه الفترة أن تصل لمعلومة بشأن ديانة مازن، إلا أن السلبيه في النتيجة

وطول الوقت جعلها تيأس.

مَرَت أيام عديدة كان مازن يشعر بأنها سنين وليست أيام من شعوره بالملل، وتعجب كثيرًا لانقطاع مرام عن الاتصال به ولا يعرف السبب، ولذلك كثيرًا ما كان يجلس وحيدًا يُفَكِر في أمرها، هل هي قبطية واكتشفت أنه مسلم ولذلك قررت الابتعاد فجأة؟ هل كان مازن مبالغ في تفسير اهتمامها به وتصرفاتها؟ كان يحاول تذكر آخر كلماته معها لإيجاد ما إذ كان أخطأ في كلامه بشكلٍ ما؟ أم أنه هناك أسباب أخرى هو لم يطرحها في تساؤلاته، ومرام لم يختلف حالها كثيرًا فكانت تَشرُد كثيرًا سواء وهي جالسة في شُرفتها تتأمل الطبيعة، أو كانت جالسة في غرفة المعيشة تتابع التلفاز، وكانت مستائة بعض الشيء من اهتمامها بشخص لم يكترث يومًا بها، وأصبح يضيق في صدرها تلك الأقاويل التي كانت تتردد عنها وعن مازن، فهي لم تبال بالأمر سابقًا أما الآن، وبعد أن قررت الابتعاد أصبح الأمر يزعجها، فهذا الأمر جعلها تشعر كم كانت غبية، فإذا كان يحبها حقًا لم يكن ليصمت كل هذا الوقت حتى وإن كان من غير دينها، لينتهي كل حوار يدور مع النفس بذلك السؤال الحائر في إجابته عما إذا كان مازن مسلم أم قبطي؟ ذلك التساؤل الذي تحولت إلى المحقق كونان لتحاول إيجاد إجابة له ولم تجد.

ظلّا على هذه الحال أيام عدة إلى أن قرر مازن أثناء عودته من درس البرمجة أن يُبادر بالاتصال، كان مترددًا بشدة، ولا يعرف ماذا سوف يقول لها فهو يعلم تمامًا ما بداخلها نحوه، ويعلم أنها قد مَلَّت الانتظار ولذلك فَضَّلت الابتعاد.

كانت مكالمة هادئة في بدايتها تتصف بالحذر، فكلٌ منهما كان حذر من الآخر لأنه على استعداد لسماع ما يجعله يستمر مع الآخر إلى ما

لا نهاية، ومستعد أيضًا لسماع ما يجعله يبتعد عن ذلك الشخص إلى أَجَلٍ غير مُسمى، ذلك الأمر الذي بادرت مرام بعمله كونها امرأة ومن المفترض أنها التي تنتظر من يسعى إليها وليست هي من تسعى إليه.

- «مرحبًا مرام، كيف حالك؟»

ردت مرام بهدوء حذر: «بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟»

تخلص مازن من الأغلال التي تمسك لسانه ليقول: «أنا لست بخير، فأنا لا أسمع عنك شيء منذ ما يقرب من الأسبوعين».

ردت مرام باقتضاب: «نعم صحيح، لقد كانت فترة قاسية».

مازن بأسى: «نعم أشعر بذلك، فلماذا إذًا تقولين إنك بخير؟ أخبريني ما الأمر؟»

ردت مرام وهي فاقدة تمامًا للأمل في أن تنتظر شيء من مازن: «لا عليك، لا تبال بالأمر».

مازن: «حسنًا، دعينا من أمرك ولنتحدث بأمري، سوف أخبرك شيئًا، أنا لست بخير؛ لأني اعتدت سماع صوتك، واعتدتُ رؤياكِ، وعندما انقطع تواصلي بكِ خِفتُ أن أفقدكِ، في حقيقة الأمر ربما هو اهتمام يتجاوز حدود الصداقة، ولكن أخشى أن يكون التعبير المناسب هو لأني أحبكِ، حاولت تجاهل هذا الشعور مرات عِدة حفاظًا عليكِ وعلى صداقتي بكِ، لأني لا أخشى سوى خسارتك، وأريد الحفاظ على علاقتي بكِ أيًا كانت صديق أم حبيب».

لم تدرك مرام ذلك الشرح الطويل، ولم تستطع تفنيد الكلمات سريعًا ولذلك كان ردها فقط على آخر جملة سمعتها: «أرى أنك متردد ولم تقرر بعد ماذا تريد أن تخبرني؟ ولماذا تخشى خسارتي؟»

ربما بشكل عام هما كانا يتحدثان عن مشاعرهما، وهو ما يتطلب حديثًا عاطفيًا إلا أن جدية الحوار بينهما جعلت مازن يندهش قليلًا،

فضلًا عن كونهما لا يجيدان التصرف والتعامل إلا بالمزاح أو بالنقاشات العلمية الجادة. «كنت مترددًا في إخبارك ذلك لأني لا أريد أن أخسرك، فربما أنت لا تقبليني سوى صديق».

بدأت مرام تتسلم زمام الحوار وردت بثقة أكثر من ذي قبل: «إذا أردت الحصول على شيء عليك أن تقاتل من أجله وأنت لم تتكلم حتى، فكيف كان لك أن تدرك الجواب بدون أن تسأل؟»

كان على طرف لسانه أن يقول لها لأنه يَشُك في اختلاف ديانتهما إلا أن حساسية الموضوع فرضت عليه قول أسباب أخرى أقل أهمية: «هناك أمور قد لا يقبلها أحد قبل أن أتكلم أو أن أبوح لكِ بشيء أولها أنكِ أكبر مني سنًا، وثانيها أنه بجانب مكانتك السامية لديّ فأنا لا أريد أن أدخل في علاقة وتنتهي لأي سببٍ كان؛ لأنني قبل أن أخسر حبيبتي سوف أكون قد خَسِرت صديقتي المفضلة».

اندهشت مرام وردت بهدوء: «أرى أن منطقك في الحب عجيب، وربما يصل إلى درجات مثالية غير معهودة في هذا الزمن، ولكن أتدري، ليس بالأمر الغريب عليك، فأنت كشخص غير معهود، ونادرًا ما أجد من هم بمثل شخصيتك».

نسى مازن شكوكه حول ديانتهما وأربكته كلمات مرام، لم يكن يدري هل هذا إطراء وتمهيد لقبولها أم أنه تمهيد لتقول له أنه صديقها لا أكثر: «شكرًا صديقتي، على أي حال لقد علمتي بالأمر وأرجو ألا يؤثر على صداقتنا أيًا كان ما تفكرين فيه».

لم يكن لمرام غير أن تبتسم ابتسامة عريضة احمرت لها وجنتيها، وتخلصت من توترها وأرادت أن تنهي تلك الحوارات الجادة: أخبرني هل تؤمن بأنه يمكن للمُحِب أن يكون صديقًا بعد أن كان حبيبًا؟»

مازن في تردد: «في منطقي أنا؟ لا أستطيع ذلك، ولكن ربما قد يستطيع

بعض الناس أن يتأقلم».
مرام: «ولماذا؟»
مازن: «الأمر مختلف تمامًا فعلاقة الصداقة حتى وإن كانت قوية فتظل محكومة بحدود الصداقة، وإنما أن تحبي فهذا يعني أنك وضعتِ لشخص ما مكانة أعلى بكثير عن باقي الأشخاص، نستطيع تشبيه الأمر باعتلاء أحد الموظفين لمكانة أكبر في عمله، فقد يكون أمرًا صعبًا لمدير الحسابات أن يقبل بعودته كمحاسب».
مرام: «لا نستطيع تطبيق هذا المثال في كافة الأحوال، ولكنه قريب نوعًا ما، فهمت ما تقصد». ثم أكملت تمازحه بلهجة توحي له فيها بالجدية: «إذًا نستنتج من هذا أننا لا نستطيع أن نبقى أصدقاء بعد الآن».
ابتسم مازن بهدوء وبدأ يدرك أن الأمور تسير في المنوال الذي يحب أن تذهب إليه: «حسنًا، هذا يأخذني لاحتمالين، إما أنني قد أُحيلتُ للتقاعد، أو أنني اعتليت منصب أعلى».
مرام وهي مبتسمة ولم تعد تستطيع أن تخفي لهجتها المزاحية: «وأي الاحتمالين ترجح؟»
مازن بكل ثقة: «أنا أرجح احتمال أنني اعتليت منصب أعلى، وبنسبة ٩٩٪».
ضحكة مرام بصوت مسموع: «ألهذه الدرجة تثق بنفسك؟»
مازن: «ثقتي في نفسي أمر مفروغ منه، ولكن إجابتي لأنني أشعر بأن علاقتي بكِ لن تنتهي الآن وربما لن تنتهي، وأنا نادرًا ما يخذلني شعوري».

بدآ يتبادلان المزاح بينهما بعد أن سمع كلٌ منهما ما يطفئ لهيب العاطفة، ويُخدر نشاط السؤال الحائر في عقليهما عن ديانتيهما ليبدأ

***.

٢-السؤال الغائب.

كتاب جديد وصفحات بيضاء قرر مازن ومرام أن يسطراها بأيديهما، ذلك الكتاب هو حبهما وليد اللحظة، وتلك الصفحات هي المواقف وسائر الحياة التي سوف يعيشانها سويًا بدءًا من تلك اللحظة التي اعترف فيها كلٌ منهما للآخر بحبه.

تشاركا أدق تفاصيل ماضيهما الدفين الذي لو أنهما لم يكونا حبيبين لما عَلِمُاه، وبالطبع كان أبرز تصريحات مازن عن مشكلة عمره مع الأسره وتَحَدَث عنهم فردًا فردًا، وأخبرها أن أعز الناس إلى قلبه هم والدته وجدته وشقيقته، وأكد بالطبع على حبه الفطري لأبيه وباقي أفراد أسرته، ولكن ما جعله يَحصُر إجابته في تلك الأشخاص أنهن مهما فعلن لا يستطيع أن يغضب منهن، ولا يجرؤ على إغضابهن مُحَدِدًا في تلك الفقرة جَدَته ووالدته فقط، لأنه أمر شائع بين الأخوة أن يتخاصموا ويتصالحوا ثانيةً.

ومن جانبها كانت مشكلاتها تنحصر حول اشتياقها الدائم لوالدتها وبُكائها عليها بين كل حين وآخر.

لم تكن مشكلاتهما جمة لدرجة أنهما قد لا يطيقا الحياة بسببها، فتلك المشكلات ربما بالنسبة لعديد من الناس الآخرين أمور بسيطة جدًا مقارنة بمشكلات أخرى أكبر، ولكن كحال أي شخص يشعر أن مشكلته هي الأصعب، وبطبيعة حياتهما المترفة لم تكن توجد تلك المشاكل المعهودة، ولذلك كانت مشاكلهما في أسرتيهما، من يفتقد عزيز، ومن يشتاق لدعم أبيه وتشجعيه له.

انتقل حديثهما لمواضيع عدة كان أبرزها هو التخطيط لمستقبلهما سويًا، ومرحلة ما بعد الجامعة، وطال الكلام أكثر من أن يخصص له أحد الوقت بكثير، وفي سابقة هي الأولى من نوعها في علاقتهما، قام مازن بإيصال مرام إلى منزلها لأول مرة ليخرجا سويًا من حرم الجامعة متجهين إلى مدينة السادس من أكتوبر.

مازن: «لم تخبريني من قبل أنكِ تسكُنين في مدينة السادس من أكتوبر؟»

مرام وهي تمازحه: «لأني غير مستقرة بمسكن محدد».

نظر إليها مازن مبتسمًا وهو يرفع حاجبيه: «كيف ذلك؟»

ردت مرام ضاحكة: «كل ما هناك أن والدي لديه فرعين لشركته، في قلب العاصمة، وفي مدينة السادس من أكتوبر، لذا أحيانًا يتوجب عليه متابعة الأمور بنفسه، ولذلك قد أكون هذا الأسبوع موجودة في أكتوبر، وأجد نفسي في الأسبوع القادم في مصر الجديدة، حيث شقتنا هناك».

مازن: «وأين شقتك في أكتوبر؟»

مرام: «إنها فيلا في الحي السابع».

رد مازن مازحًا: «إذًا نحن جيران».

رغم الثراء الفاحش الذي استدل كلٌ منهما عليه من كلام الآخر إلا أن سمتهما كان البساطة، ولم تكن تتملكهما لكنة الكبار المتعالية، بل على العكس كانا متواضعين لأقصى درجة، كان الرقي في أخلاقهما وهذا كان أحق بالتعالي والفخر، ولم يحبا على الإطلاق التحدث بشأن الأمور المالية لكي يبتعدا عن الغرور والفخر بثرائهما، ربما لأنهما ما زالا طفلين وما تزال تمتلكهما البراءة!

وبطبيعة الأحوال في الأيام الأولى في الحب وذروتها، حيث يريد كل طرف أن يبقى مع الآخر لأطول وقت ممكن، ولذلك لم يمر وقت طويل منذ دخلت مرام منزلها تكاد ترقص فرحًا وقامت بالاتصال بمازن تطمئن

أنه وصل إلى منزله، حتى أنها شعرت بالخجل أن تتصل به، ولكنها أفاقت سريعًا من خجلها وابتسمت تقول لنفسها: «أنا أحبه وقد أخبرته ذلك وهو يحبني إذًا لما أخجل مهاتفته!» ثم أكملت تتحدث بلكنة المنتصرين وذوي الحقوق: «إنه من حقي وليس لأحدٍ سواي أن يتحدث إليه أو يهاتفه». وأثناء غمرة العشق الجميل التي تعيشها جاءتها رسالة منه تعزز شعورها الجميل نحوه وتخبرها أن حبها يُقابَل بحب مهول أيضًا.

تنوعت وسائل التواصل بينهما من هاتف نقال إلى الشبكة العنكبوتية، وطال الحديث بينهما ولوحظ غياب مازن عن مائدة الغداء مع أسرته؛ لأنه كان في غرفته متابعًا لرسائل الهاتف التي تصله من مرام، لم يكن أمرًا خفيًا على شقيقته ووالدته حيث تغير كثيرًا، ولم يعد ذلك الإنسان الحاد الذي تخلو حياته من أي شيء له علاقة بالمرح، لم يعد ذلك الشخص الانطوائي؛ لذلك كانت مديحة متأكدة تمامًا أن هناك شخصًا ما له أثر إيجابي في حياة ابنها، ولامست توقعاتها نسبة التأكيد على أن هذا الشخص هو مرام، فهي تعرفها وسبق أن تحدثت معها على الهاتف خلال السنة الدراسية الأولى من الجامعة.

وبدورها قامت المحقق كونان -ميار- بالاستقصاء حول الأمر وتوجهت إلى غرفة مازن لمواجهته.

سألت ميار في هدوء: «لماذا لم تأت لتناول الغداء معنا؟»

أجاب مازن وهو ينظر لهاتفه: «لم أكن جائع فقد تناولت بعض الوجبات السريعة مع أصدقائي».

نظرت ميار مندهشة قائلة: «لم تعتد الأكل خارج المنزل! ولم تكن تحب الوجبات السريعة!»

توقف مازن عن النظر لهاتفه وأربكته قليلًا كلمات شقيقته ثم رد

باتزان: «لقد أَلَحّوا عليّ أن آكُل معهم».
أيقنت ميار تلك الربكة التي أصابت مازن، وقالت تمازحه وهي تحاول مطالعة ماذا يفعل بهاتفه: «ماذا تفعل بالهاتف كل هذا الوقت! أنت لم تتركه مذ عُدت، كما لو أنه لا سلكي، أخبرني هل تعمل مع المخابرات؟»
جذب الهاتف نحوه وأزاح يدها قائلًا: «دعيني الآن فأنا مشغول».
ضحكة ميار وقالتها صريحة: «حسنًا، لا تغضب فأنا أعرف ما الأمر، وعلى علم بالموضوع».
توقف مازن على الفور عن مواصلة كتابة رسائله إلى مرام، ونظر لشقيقته مبتسمًا وقال: تذهبين معي غدًا لرؤياها؟»
ابتسمت ميار سعادةً بشقيقها ولتلك الفرحة الطفولية التي تراها بعينيه، فهو لم يكن أبدًا بهذه الحال: «أود أن أراها بشدة».
اندهش مازن قليلًا وقال رافعًا حاجبيه: «لماذا؟!»
ردت بنفس ابتسامتها وهي تطالع نظرات أخيها: «لكي أرى من تلك الفتاة التي قلبت حياتك رأسًا على عقب، ويبدو تأثيرها واضحًا عليك».
فاجأته تلك الكلمات فلم يكن يدري ماذا فعل لكي يُفضَح أمره هكذا، طالما كان كتومًا أغلب الوقت وتابعت ميار: «لقد بدأت بطور التغير يا صديقي، ولكن لا تقلق إنه تغير إيجابي، فتلك العلاقة سوف تخرجك من القوقعة التي تلازمها أغلب الوقت».
مازن في اندهاش ويبدو عليه الاستياء: «أنا لست متقوقع، ولكني لم أجد من يفهمني في هذا البيت!»
ردت ميار مسرعة: «أنا أفهمك!»
قال مازن شارحًا بإسهاب: «لا أقصد ما فهمتيه، فأنتِ تهتمي لأمري، وبالطبع أمي ومؤكد أبي كذلك، ولكن كلًا من زاويته، أبي مفرط في خوفه ويريد التحكم بمستقبلي، وأمي مفرطة في قلقها عليّ ودائمًا

ما تهتم بالأمور الحياتيه العادية، ما أتحدث عنه هو تفهم الأمور كأصدقاء، وليس من منطلق الدور المنوط به كل شخص بحكم أن أبي أبي وأمي أمي!»

ضحكت ميار قليلًا ونظرت إليه بعدم استيعاب تمازحه: ألهذه الدرجة الأمر معقد، رويدًا رويدًا يا صديقي، لا تتحدث إليّ كما لو أنني أعلم كل شيء، كما أنك حوَّلت مسار حديثي تمامًا، وأنا لم أتطرق لمشكلاتك داخل المنزل».

مازن بهدوء: «معكِ حق كنتِ تتحدثين عن مرام».

اندهشت ميار وردت بابتسامة: «اسمها مرام؟»

أماء مازن برأسه إيجابًا وهو يبتسم لتتابع شقيقته حديثها: «حسنًا، يبدو من اسمها أنها ذات شخصية جميلة، سوف نكتشف الأمر غدًا إن شاء الله».

****

في اليوم التالي صار مازن على أَحَرِّ من الجمر بانتظار شقيقته لكي يريها ذلك الملاك الذي يعشقه، وصار كطفل ينتظر يوم العيد، يباشر على كل التحضيرات بنفسه ويراجع السيناريو المتوقع أن يدور بين شقيقته وحبيبته، ويُلقن مرام ماذا عليها أن تقول، كان مثل مدرس ويراجع لتلميذه قبل الامتحان ببضع دقائق، وأربَكَت مرام كل تلك التعليمات لتقول له: «لما الخوف هكذا؟ أتخشى أنها لن تتقبلني؟»

أجاب مازن مسرعًا: «مستحيل! ولكنها المقابلة الأولى بينكما وأود أن تكونا على علاقة ودودة».

استوعبت مرام تلك النبرة الخائفة من موقف أهله تجاهها لكونه غير متفق معهم في أشياء كثيرة، وردت تطمئنه وداعبته بثقتها في نفسها قائلة: «حسنًا، لا تخش لكونك على عدم توافق مع أهلك في البيت إنهم

سوف يرفضوني، الأمر مختلف، فحياتك نقرة وأنا نقرة أخرى».
أجاب مازن ضاحكًا: «حسنًا، أرى أنك بتلك الثقة لا تحتاجين لمن يقول لكِ ماذا يتوجب عليك أن تفعلي».

****

وقد جاءت ميار، كان مازن ومرام على استعداد تام للقائها، وكأن كلًا منهما يشعر أنه هو المحظوظ لكونه حبيب الآخر، والحقيقة أن كلاهما محظوظ بالآخر، توجهت ميار صوب مرام في حذر تنتابها العديد من التساؤلات وتتخبط أفكارها، هل أخلاقها بجمال شكلها؟ هل روحها بمثل جمال تأنقها واختيارها المميز لملابسها؟ ما يزالا صغيرين، ولكن معًا يكبران، وربما يستمران في حبهما إن كان صادقًا، فهي لم تكن تخشى على أخيها غير أن يكون سن المراهقة يلعب بمشاعره ربما! ولكنه لن يتعلم في تلك الأمور من خبرات الآخرين، وعليه الاعتماد على حدثه وخوض التجربة بنفسه.
لقائها بمرام كان يتسم بالتشويق، فكلما سألتها عن شيء ما وأسهبت في الشرح تتطلع لمتابعة أحداث الموضوع، حتى وإن كان خارج النقاط التي يهم ميار أن تعلمها، الأمر لم يكن أبدًا بمثابة التحقيق، وإنما استطاعت ميار أن تقود الحوار بشكل حواري جيد، فهي ليست بذكاء أخيها، ولكنها على المستوى الاجتماعي أفضل منه بكثير، ولم تخلُ نظراتها من التساؤلات التي ترغب في معرفة المزيد عن ذلك الشخص الذي جعل مازن سعيدًا بهذا القدر وبدأ يُرَسِّخ حبه بأثر التغيير في مازن.
تبادلوا أطراف الحوار أربعتهم بعد أن شاركتهم نادين، وجاءت لعبة القدر لتُجيب عن سؤال غاب في نشاطه في الفترة الماضية.
مازن: «أيرغب أحدكم أن يشرب شيئًا؟»

أجابت ميار وكان يبدو عليها التعب قليلًا: «أخي اجلب لي معك قليلًا من القهوة؛ فلم أحتسي فنجاني هذا الصباح».
مازن: «وأنتِ يا مرام؟»
مرام: «فنجان قهوة أيضًا».
مازن: «حسنًا، ماذا بشأنك نادين؟»
أجابت نادين ضاحكة وهي تهم واقفة لتذهب معه: «سوف آتي معك فلن تستطيع أن تحمل كل هذا وحدك بالتأكيد».
أرادت نادين ذلك لتفتح معه حوار متعمد ربما يُكشَف لها أمر ديانته، بالتزامن مع حوار آخر غير متعمد دار على الجهة الأخرى بين ميار ومرام لتحكي ميار عن أحد المواقف الأسرية من مازن عقب صلاة عيد الأضحى، وكان رد فعل كلاهما -مازن ومرام- موحد، فأخفيا دهشتهما داخلهما وحاولا أن يسايرا أحاديثهما مع نادين وميار حتى بعد أن عاد مازن ونادين بصحبتهما فناجين القهوة، لوحظ برودة الحوار وحاولت مرام جاهدة أن تنهي اللقاء سريعًا، لأنها لن تستطيع أن تخفي ارتباكها كثيرًا.
ومثلما مَرَت فترة الجمود بينهما قبل أن يعترف كُلٌ منهما للآخر بحُبه مَرَ ذلك اليوم، لا رسائل، لا اتصال، شرود في التفكير، تلك هي حالهما، ورغم أن نادين لم تعرف إذا كان مازن مسلم أم قبطي، ولكنها شَعَرت أن صديقتها ليست على ما يُرام.

****

تقدم مازن نحو مرام بحذر، وهو يعلم تمامًا أنها ليست بخير، وكان يعلم تمامًا الأسباب، ليسألها بوجهٍ أبيض شاحب كالثلج هربت منه الدماء: «صباح الخير، كيف حالك؟»
كانت مرام جالسة محنية الرأس، واضعة يدها على جبينها، وبعد فترة

ليست قليلة رفعت رأسها تجيبه، وعيناها حمراوين إرهاقًا، وأنفها أحمر من شدة البكاء: «لماذا لم تخبرني من البداية؟ هل تعلم من البداية أن عقائدنا الدينية مختلفة؟»

أجاب مازن بهدوء وهو آسف على ما حدث: «كنتُ أشُك من البداية، ولكني لم أستطع التأكد هل نحن على اختلاف أم لا، تأكدت من كل شيء بالأمس فقط».

قاطعته مرام على الفور: «وأنا أيضًا علمت بالأمر أمس فقط، ولكن التوقيت متأخر جدًا فما الفائدة الآن!»

ساد الصمت لفترة أطول قبل أن يتنهد مازن ويفيض بما في داخله: «أتذكرين يوم سألتني لماذا أخشى خسارتك؟ وقد كان جوابي أنني لا أضمن رد فعلك، في حقيقة الأمر لقد كانت مخاوفي الأقوى أن تكون عقائدنا الدينية مختلفة. لقد كان الحديث في هذا الموضوع أمر حساس، ورغم أهميته الشديدة إلا أنني تجاهلته لأني لم أكن أستطيع الانتظار وقت أطول لكي أصرح لكِ بمشاعري، وهي نفس الفترة التي وجدتُكِ فيها قد قررت أن تبتعدي، ألم تسأمي انتظاري يا مرام؟! وأنا أيضًا كنت قد سئمت صمتي وبحثي في سؤال لم أعرف إجابته غير أمس، صدقيني لم أُرد يومًا أن أراكِ على هذه الحال، ولم أقل لكِ شيء لم أعنه، فعادتي أنا أحب أن أخطط لكل شيء قبل أن أُقدم عليه، إلا أنني منذُ أن قررت حُبكِ أغمضت عيني عن حقيقة مهمة وهي عقائدنا. ولذلك أخبركِ الآن أنني متمسك بكِ أكثر من ذي قبل، فأنا لن أعيش سوى مرة واحدة.

كانت المشاعر متخبطة لدى مرام؛ لأنها لم تعتد كل هذا القدر من المشاعر من مازن المتحفظ، قليل الكلام، الخجول، الذي كان يقول خطابًا عريضًا لكي يقول لها بطريقة غير مباشرة: «لقد أوحشتني». جعل

مشاعرها الحزينة تختلط بجمال كلماته لتقول له بصوت مبحوح ووجه غائب في دموعه: «كيف لنا أن نستمر في طريق ونحن نعلم نهايته؟ كيف لنا أن نستمر في طريق ونحن نعلم أن نهايته لن تكون سعيدة؟ ألا يجب أن يُكلل الحب بالزواج وتلك اللحظات الجميلة؟ أتريد أن تعيش هذه اللحظة وأنت تعلم أن اللحظة التي تليها سوف تنتهي قصتك مع أحدهم».

أجاب مازن بلهجة حازمة: «أنت لستِ أحدهم، وأنا لا أمضي وقت مرح وحسب، كلانا لا يعلم ماذا تُخبئ لنا الأيام، فربما توافق عائلتانا على الزواج بعد انتهاء دراستنا، أنا أريد أن أعيش هذه اللحظة حقًا، لأني أعلم تمامًا أن اللحظة التي تليها ربما توافيني المنية، وأكون قد حرمت نفسي من لحظة سعيدة بجانبكِ، أنا لا أحاول إقناعك بوجهة نظري ولكن هكذا أرى الأمور، بإمكانك أن تفكري مليًا وأنا أحترم قرارك أيًا كان».

كانت تريده أن يكون نذلًا أو وقحًا ويتركها؛ فهكذا لن يكون لها سوى طريق الحزن، أما بهكذا رد فهو يجعلها بين المطرقة والسندان، مطرقة حبه الشديد وتمسكه بها رغم الظروف، وسندان العادات والتقاليد المجتمعية التي يصعب تجاوزها بقبول زواج فتاة قبطية من شاب مسلم. أجابت وهي تبكي بنظرة من ليس بيده شيء: «أنا أحبك يا مازن».

في هذه اللحظة أغمض مازن عينيه لثوانٍ معدودة، كان يشعر فيها بآلام ما تعانيه من صراع التفكير في الأمر، وفتح عينيه مرة أخرى ودنا منها ليقبل رأسها ويمسح على شعرها قائلًا بلهجة تحدٍ: «وأنا لن أتركِكِ».

كانت هذه هي الملامسة الجادة الأولى بينهما، ولم يكن يدري أيٌ منهما على أي حالٍ يكون، سعيد لقربه ممن يحب أم حزين لأنه ربما يَبعُد

عنه أميالًا في المستقبل.

****

ومن هنا بدأت قصة مولود لا يشيخ، وهو حبهما الذي انبثقت شعلته في تلك الأجواء الحذرة -لكن عذرًا فالعالم ما زال يعتبركما صغيرين- فبالرغم من مدى تعقلهما وتحكيمهما للأمور، ورغم صدق حبهما النابع من القلب دون أي تمييز -حتى أنهما أحبا بعضهما دون معرفة لأي طائفة دينية ينتمي الآخر- فعمرهما لا يتجاوز العشرين، وذلك دليل على حبهما البريء لأنهما لم يتعلما بعد من الحياة ما يجعلهما يدركا ما هو بعد تلك الكلمة من مواجهات شرسة تخبئها لهما الأيام، وإنما كل ما اختاراه هو إطلاق العنان لما في القلوب لتصفى الأذهان، وبمعنى آخر أن كلًا منهما قرر أن يعيش كل يوم وكأنه آخر يوم، فإذا عَلِمَ أحدٌ أن هذا اليوم هو يومه الأخير في الحياة فماذا عسانا أن نفعل -بغض النظر عن التعبد والتقرب إلى الله في كافة الأطياف والأديان؟ فلن نكون بحاجة إلى عقولنا لأن ما يتوجب فعله هو إرضاء القلوب، فسوف تُكسر الأغلال المقيدة لقلبك؛ لتنطلق وتفعل ما يغمره بالسعادة، سواء بقول كلمة حب أو بالاعتراف بذنب فعلته، وحتى في ذلك الفعل راحة وسعادة لقلبك حتى ينعم بمعنى الحياة، وفي أي شيء سوف تستخدم عقلك؟ فأنت لم تَعُد بحاجة إليه لكي تُدبر أمور الغَد، أو تَحمِل على عاتقك حِمل التفكير في مستقبل الأولاد الذين ما يزالوا لم يخطوا خطواتهم الأولى، وذلك ليس دعاء لتجنيب العقول -معاذ الله- وإنما دعوة للتصرف بطبيعة القلوب النقية التي خلقنا الله عليها، «اعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، واعمل لدُنياك كأنك تعيش أبدا».

وفيما يتعلق بجزء العبادة الخاص بكل طائفة فيكفيني قول المقولة الشهيرة: «ربنا رب قلوب».

٣-مواقف.

الحب يعني الحياة والأمل، ولذلك عندما نرغب في وصف حال مازن ومرام فسوف تُلَجَم الألسنة وتتوقف الأقلام، ويكفي رسم الابتسامة على وجوهنا، فهذا سوف يختصر كثيرًا من الكلمات التي سوف تَطول وتَمتَد، ولن نُدرِك المعنى الحقيقي لسعادَتِهُما بحبهما، ذلك المولود الجديد.

وإن وقع أحدٌ منّا في الحب فقد يصعب علينا وصف الشعور وبلوغ المعنى الحقيقي لتلك الحالة، ولم ولن نستطيع إدراك المعنى المقصود إذا حاولنا الوصف بقصص روميو وجوليت أو روزاليندا وأورلاندو أو حتى قيس وليلى في الشرق، وقد نكون اقتربنا قليلًا إذا وصفنا حالة الحب تلك بإحدى قصص الحب في الأفلام المشهورة مثل سبايدر مان أو تايتانيك أو حبيبي دائمًا أو غير ذلك، مع العلم أننا أيضًا لن نستطيع بلوغ المعنى الحقيقي، ولكن الفرق بين قصص على الورق وقصص مُصوَّرة نراها في التلفاز ربما يوضح لنا أن الواقع مختلف تمامًا عن كل ذلك.

فكلما اقتربنا بوسيلة حسية لدى الإنسان للتعبير أو الوصف له عن حالةٍ ما كُلما استطاع أن يُدرك معناها ولو بجزء صغير، وسوف يعرفها حق المعرفة وبنسبة ١٠٠٪ إذا كانت هذه الحالة واقعًا ملموسًا ويحدث له، لأنه لا توجد وسيلة أكثر حِسية من الواقع الذي نعيشه.

الخلاصة أنه لن يفيد بشيء إذا حاولنا وصف حب مازن ومرام بعضهما بالكلمات، ولذلك سوف تُسَلَط الأضواء على أبرز المواقف بينهما سواء بالحزن أو الفرح، والتي ربما من خلالها يخلق كُلٌ منا صورة في خياله

حسب الواقع الخاص به ليحاول بنفسه إدراك ما بين السطور.

موقف ١:

استمرار لمشكلة مازن مع أسرته، والتي ربما أصبحت قليلة في الأيام الأخيرة، إلا أن هذا الأمر كان الموضوع الأول في نقاشات مرام مع مازن، لكي تحاول تحسين علاقته مع أسرته، خاصةً أبيه، فلم تكن تنوي الضغط عليه أبدًا لينفذ إحدى رغبات والده، فهو الآن على الأقل حقق جزء مما كان يرغب بدراسته العلوم، وهو عكس ما كان يتمناه والده، وترى أنه حان الوقت لكي يتنازل قليلًا لتنفيذ بعض رغبات والده بالعمل ولو بشكل جزئي في شركته.

- «لقد أيقنت الآن سر علاقتك القوية بأصدقائك الصبية، أنت ترى فيهم أسرتك الثانية».

أجاب مازن بكل اعتزاز وفخر: «حتى وإن لم تكن هناك مشاكل مع والدي، وإن كنت قد وجدت من يفهمني في أسرتي، فأنا لا أتخيل حياتي من دون أصدقائي، هم ليسوا أصدقائي بل إخوتي التي لم تلدهم أمي».

مرام بابتسامة: «الدي صداقات مميزة مع بعض الفتيات، ولكن أجد علاقتك بأصدقائك أكثر تميزًا وأكثر ترابطًا، وهذا الأمر كان يدفعني للتساؤل في كثير من الوقت».

مازن: «منذ طفولتي كنت أتمنى أن يكون لي أخ من أمي وأبي، ولكن حمدًا لله فقد عوض عليّ بهم».

ردت مرام لكي تنقل الحوار إلى صلب الموضوع التي كانت تسعى إليه: «لقد أنعم عليك بمیار، وحمدًا لله على وجودها، فهي خير الأخت والصديق أيضًا. ولكن أخبرني لماذا لا تحاول إرضاء والدك؟»

اختلفت تعبيرات وجه مازن قليلًا ليجيب بشيء من الاندهاش: «أنا لا

أعصي أمر والدي، ولم ولن أكون ذلك الولد العاصي غير البار بوالده، ولكن كل ما في الأمر أنه يطلب مني أمور تتعلق بمستقبلي، ومن المفترض أن يكون الاختيار فيها فقط لي».

ردت مرام باتزان لتحاول تهدئة الأمور: «بالطبع هو حقك، ولكن هو لم يفرض عليك شيء، بدليل أنك تدرس الآن ما تحب، كل ما كان يطلبه هو المشاركة، نعم هذه أمور خاصة بمستقبلك، ولكن لن يكون هناك أي ضرر إن شاركتهم قرارك من البداية، ولكنك فاجئتهم بتوجهك وقراراتك في حياتك المستقبلية، وبالطبع ذلك أشعرهم بالتهميش رغم كل ما كانوا يفعلوه من أجل أن تصل إلى ما أنت عليه الآن».

استمع مازن إليها باستيعاب وبدأ يدرك ما تقصده ليجيب: «ربما معكِ حق، ولكن أظن أن والدي مُطالب باستيعابي واحتوائي بأي طريقةٍ كانت، ولكن هو لم يبذل الجهد الكافي لذلك. أنا لا أُعلِّق الخطأ عليه وحده، ولكن عليّ أنا أيضًا ولكن في وجهة نظري أنه كان لا بد أن يكون صدره أكثر اتساعًا حتى يصل لمبتغاه، فيجب أن تختلف الطريقة التي تحاولين بها شرح معلومة أو إيصال شعورك لأحدهم، ولكن أبي لم يكن لديه سوى سياسة الأمر والنهي».

وجدت مرام في رده منطقية أغلقت عليها الطريق، ولكنها عادت تكافح: «معك حق، ولكن علينا الآن بدء صفحة جديدة، فقد حققت جزء من طموحك، وعليك الآن تلبية إحدى رغبات والدك، أرى أنها سوف تكون بادرة جيدة جدًا منك لتحسين علاقتك معه، فكما تعلم يا صديقي، رضا الرب من رضا الأب».

كان الكلام يبدو مقنعًا جدًا، كما تأثر مازن كثيرًا بكلمات مرام ذات الصبغة الدينية لكونه شاب محافظ على صلاته، فكيف يكون مُصليًا

ويخذل والده وألا يستطيع خدمته ولو بالقليل! فكانت مرام -ورغم اختلاف دينها عن دين مازن- هي التوجيه الإلهي لتصحيح بعض الأخطاء في حياة مازن ليقتنع بكلامها ويبدأ بالفعل العمل مع والده.

****

موقف :٢

بعد دهشة الوالد بانصياع مازن لرغبته وملاحظته تغيير جذري في حياة مازن -والذي كانت تعلم تمامًا أسبابه ميار ومديحة- كان الوقت لدى مازن ضيق للغاية فعليه الآن بذل جهد مضاعف لكي يحتوي كل شيء له حق عليه -محاضراته، عمله، مذاكرته، أسرته، مرام- ليأتي التقصير في حق مرام، فلم يَعُد يستطيع أن يكون معها لوقت كثير كالسابق، ولم يَعُد لديه الوقت أيضًا للمحادثات التليفونية الطويلة، فقط كان يتصل ليطمئن عليها مرة كل يومين في مكالمة لا تتجاوز الدقيقتين، كما طال التقصير أيضًا محاضراته التي حاول قدر المستطاع أن ينسق مواعيدها مع مواعيد عمله.

كان حديث العهد في العمل الميداني والاحتكاك مع العاملين بالمصنع، الأمر برمته جديد عليه، ولذلك كانت البداية متعثرة.

- «لقد اختفيت لفترة طويلة أنا أعلم ذلك، ولكنها كانت نصيحتك لي وعليك أن تتحملي نتيجتها، لكن دون مزاح أنا أرغب بشدة أن أراكِ غدًا، سوف أَمُر آخُذُكِ في تمام السادسة إلا ربع».

استقبلت مرام تلك الرسالة بكل فرح فقد جاءها الخبر من الغائب منذ ما يقرب من الأسبوعين، كما لاحظت أنه ما يزال يذكر رغم انشغاله مواعيد محاضراتها يوم غدٍ الثلاثاء، لذلك سوف يأتيها في ذلك التوقيت تحديدًا، عليها أن تهتم بهندامها جيدًا ليوم غد فهناك أكثر من مناسبة لكي تكون على هكذا حال، فتلك أيضًا هي أول مرة سوف يخرجان فيها

سويًا بعد أن اقتنى مازن سيارته الجديدة منذ أسبوع، اختلط عليها شعور متردد في البداية كيف تخرج وحدها معه في سيارته! ربما يتوجب عليهما أن يذهبا كلٌ منهما في سيارته، وإن وافقت فكيف سوف تذهب غدًا للجامعة دون سيارتها؟! جنون فرحتها أصابها بارتباك بشأن هذا الأمر، ولكنها رمت كل هذا خلف ظهرها وعادة تبتسم من جديد فرحًا باللقاء المنتظر.

****

حاولت مرام جاهدة أن تصطنع الغضب من اختفائه تلك الفترة الطويلة، ولكن غلبتها الابتسامة حين رأت مازن واقفًا بجانب سيارته ينتظرها، في وسط المرور والزحام البشع أمام مبنى القصر العيني في هذا التوقيت بالذات، وغبار وعفار الطريق المزدحم بعوادم السيارات وأتربة أثارتها الرياح أطلت عليه مرام. فرغم الرؤية المعدومة لديه من زحام الناس أمامه إلا أنه رآها؛ فلديها ما يميزها خاصةً وهي تسير وسط الحشود الضخمة تحاول تفادي الناس التي ربما تدعسها من صغر حجمها فهي كانت وما تزال في عينيه طفلة.

- »إنه الوقت المناسب لتناول وجبة الغداء بعد يوم طويل، أليس كذلك؟«

مرام: »لا لا أستطيع؛ بذلك سوف نتأخر«.

استمر مازن ينظر للطريق ويتحدث إليها في اهتمام: »كيف ذلك؟! صدقيني لن نتأخر، لقد اشتقت للحديث معكِ!«

مرام بلهجة منافية تمامًا لما تقوله: »وأنا أيضًا اشتقت لك، ولكن صدقني لا يسعني أن أتأخر«.

نظر إليها مازن مبتمسًا في اندهاش: »لا أشعر بمعنى كلماتك، فأنتِ تعنين شيء جميل ولكن لم تحسني التعبير عنه«.

ضحكت مرام في خجل وقالت: «هكذا أنا، وأنت تعرفني جيدًا، بالمناسبة مبارك لك السيارة الجديدة».

مازن: «هل أعجبتك؟»

مرام: «نعم إنها جميلة، يعطيك الله خيرها إن شاء الله».

رد مازن بمزاح لكي يحاول أن يجعلها على سجيتها: «حسنًا علينا الاحتفال إذًا، ما دُمت لا توافقين على الغداء فعلى الأقل علينا أن نحتسي شيئًا، وهذا لن يؤخرنا بكل تأكيد».

****

لم تكن تستطيع الرفض، خاصة بعد فترة غيابه الطويلة، كما أنها اشتاقت حقًا لرؤياه، ولذلك توجها سويًا إلى إحدى المقاهي بوسط البلد يدعى مقهى ريش، فقد أحسن مازن الاختيار فهو مكانها المفضل، كما أن للمكان رونق ومذاق خاص يجعلها تشعر بالراحة، ورويدًا رويدًا بدأت تتخلص من توترها لتعود إليه مرة أخرى، فبعد أن انتهت من شرابها فاجأها مازن بإخراج علبة حمراء! لتبدأ إشارات مخها تبعث إنذارات عديدة مثل جهاز الحاسب المبرمج وقد واجه حزمة من المدخلات المجهولة لديه ليبدأ جهازها العقلي بالتخبط، أما مازن فكان قد أصبح أكثر تمرس وحرفية، فقد تعلم كيف يروض فتاة مثل مرام، فهي ليست بحاجة لقاموس لكي يتعامل معها، ولكنه تعلم منها كيف ومتى يفيض بمشاعره الخجولة، فلم يعد يخجل أن يصف لها كيف يحبها، كما لم يخجل أن يفتح تلك العلبة الحمراء وسط حضور ليس بالقليل في المقهى لتتورد وجنتاها خجلًا، لم يكن منها غير أن تراقب كل حركة يقوم بها وكيف ينظر لها إلى أن فاجأها بأنه يمسك يدها يمدها نحوه ليلبسها خاتم قد أخذه من ذلك الطاقم الفضي في العلبة. وزاد الطين بلة حين رفع يدها يقبلها! ربما هي كانت في غيبوبة ولا

تدري ماذا تفعل، وماذا تقول غير أن تندهش وتبتسم وتدمع عيناها في الوقت نفسه، وهو كان يعلم أثر تلك اللحظة عليها ولذلك حاول إيقاظها بابتساماته ومزاحه المعتاد، لكي تعود للأرض مجددًا، ولكنها حلفت لن تعود، فقد أخذها لمكان آخر خارج الكوكب وربما خارج المجرة. فربما غاب أسبوعين أو أكثر، ولكنه أعطاها بحضوره تلك الساعة كما لو كانت مائة سنة ضوئية وكأنه يعطيها جرعة مكثفة.
نظرات الناس حولهم لم تخف عليها فقد رأتهم يبتسمون فرحًا لما قام به مازن معها، وكيف كان يعاملها كرجل نبيل، رأت فيه زوجًا رائعًا وتخيلت أنها الآن معه في نزهة خارج المنزل، وسوف تعود بعد قليل معه إلى المنزل الذي خططا لبنائه سويًا في المستقبل، كانت تشعر وكأنها مراقبة من عيون الناس وربما يحسدونها على هكذا إنسان. ألم يذكر الحسد في القرآن؟ ولو كانت تحفظ سورة الفلق لقرأتها.

موقف :٣

بعد نهاية العام الثالث من الجامعة وبدء الإجازة السنوية، بدأ مازن ومرام بتخطيط كيف سوف يمضون الوقت في الإجازة، والتي في العادة يمضيها مازن بين الدورات التعليمية سواء في تخصصه أو في شيء يحب دراسته؛ ولذلك قرر أن يلتحق بدورة تعلم التصوير الفوتوغرافي، فهو لم يرد أن ينشغل بشيء يتطلب منه مجهود كبير نظرًا لعمله في شركة والده وقلة الوقت لديه، أما مرام فكانت تهوى الرسم وشجعتها على ذلك إحدى صديقاتها تُدعى ديمة، ولذلك لم تتوافق مواعيدهما سويًا ولم يستطيعا اللقاء أثناء الإجازة.
انقضى من الإجازة شهران كاملان، دراسة وعمل ومنزل، هكذا هو روتين الحياة لكليهما، ولم تخلُ أيضًا من بعض المكالمات السريعة ولكن رؤية

العين أجمل وأجمل.
خرج مازن ليلًا قرابة العاشرة مساءً لشراء بعض الأغراض، ترك سيارته وفضَّل السير على قدميه لأن المكان قريب، وصادف هناك وجود ديمة التي تقطن بالحي المتميز الملاصق تمامًا لنفس القرية التي يسكن بها مازن.
- «مرحبًا مازن». قالتها ديمة بعد أن تفاجأت بدخول مازن إلى السوق.
كان مازن يطالع هاتفه وحين سمع الصوت رفع رأسه ليجدها ديمة:
«مرحبًا، ماذا تفعلين هنا الآن؟ الوقت متأخر!»
أجابت ديمة بابتسامة: «خرجت لكي أشتري بعض الأغراض التي تنقصني للمرسم غدًا».
مازن: «وكيف تسير الأمور هناك؟»
ديمة: «الحمد لله على خير ما يرام، ولكن أرى أن مرام مستائة؟»
قام مازن بحك عينه أسفًا وقال: «لا بد أن تكون كذلك، وأنا أيضًا مستاء، فكما تعلمين الروتين يقتلك!»
ديمة: ألا تستطيع أن تختلس الوقت لكي تزورها بالمرسم، سوف تكون مفاجأة سعيدة لها وكذلك تُخرجنا جميعًا من الروتين؟»
أجابها مازن بيأس: «حاولت ذلك من قبل، ولكن عملي لا يترك لي أي وقت، خاصة وأننا في فترة إجازة ولذلك كل الوقت مكرس للعمل».
ردت ديمة لتحاول بعث الأمل إليه: «ربما آن الأوان أن ترتاح ولو ليوم واحد، صدقني أنت شخصيًا سوف تصبح أفضل مما أنت عليه الآن بعد قضاء هذا اليوم مع مرام، فلا بد من تغيير النمط كل فترة لكي نشعر بالتجديد في حياتنا».
أومأ برأسه مفكرًا في الموضوع ثم تطرق إلى أمر آخر بسؤال ديمة عن جنسيتها تحديدًا فلم تكن يوم علاقتهما تسمح لهما بالتعارف الوطيد،

فعلم أنها فتاة سورية من حلب تدرس الطب في جامعة دمشق، وتأتي في الإجازات إلى مصر بحكم عمل والدتها التي تمتلك جاليري بالقاهرة، وكانت قد لاقت مرام صدفة منذ عامين في مكتبة جامعة القاهرة، حيث كانت تُعد لبحث علمي أثناء فترة إجازتها، ومن وقتها وأصبحتا صديقتين مقربتين.

- «مرحبًا أبي، صباح الخير».
أجابه إمام عبر الهاتف: «صباح الخير، لماذا لم تأت إلى الآن؟ الساعة ٩ صباحًا».
مازن: «نعم، لقد نسيت أن أخبرك بالأمس أنني إجازة اليوم».
إمام: «ليست هناك مشكلة، ولكن لماذا؟»
أخذ مازن رشفة من قهوته وأجاب: «ليس هناك شيء مهم، فقط بعض المشاوير التي يتوجب عليّ القيام بها صباحًا، ربما إذا انتهيت باكرًا أمُر على المصنع».
إمام: «حسنًا إذًا، انتبه إلى طريقك، مع السلامة».

أنهى مازن مكالمته وانتهى من احتساء قهوته ونهض ليرتدي ثيابه، وبخطوات راقصة متأنية صار يتسلق السُلم الداخلي للمنزل، وكأنه يرقص على ألحان الموسيقى وصولًا إلى غرفته وأخرج ثيابه ليرتدي أبهى حلة استعدادًا للقاء مرام. وأثناء قيادته للسيارة واجه بائع متجول بقليل من الزهور، فأخذ منه واحدة لكيلا يكسر بخاطره، ثم أوحت إليه هذه الوردة بأن يذهب لشراء باقة زهور، فبالتأكيد هي الهدية المناسبة بعد فترة طويلة لم ير فيها مرام.

سبقهما -مرام وديمة- إلى المرسم قبل ميعاد حضورهما ووقف يطالع بعض الرسومات المعلقة، ليجد لوحتين باسم مرام. وفي تلك اللحظة حضرت صاحبة اللوحتين، كانت تدخل إلى المرسم منذ ما يقارب الستة أسابيع بوجهٍ عابس غير مبالٍ بشيء سوى أداء ما جاءت من أجله، لا مجال للمزاح، لا مجال للنقاش، لا مجال لأي شيء. حتى رأت ذلك المتأمل للوحتيها من ظهره، ضاقت عيناها وابتسمت لأنها علمت أنه مازن، ومن ثم ذهبت إليه تداعبه.

- «أستاذي الفاضل، هل تود شراء إحدى تلك اللوحات؟»

ابتسم مازن قبل أن يدير ظهره إليها ثم التف وقال: «لا، قد جِئتُكِ بِمرسال من عزيز». ثم قدم لها الزهور قائلًا: «لقد أوصاني أحدهم أن أرسل هذه الزهور إليكِ».

فاجأها مرةً أخرى وألجم لسانها، فهو لم يَعُد يخشى تقديم نفسه لها أمام الناس جميعًا، وهي لم تعد تعرف إلى متى سوف تظل تندهش في كل مرة من مفاجآته غير المتوقعة، ومرة أخرى تسير إلى جانبه في خجل من نظرات الناس حولها، حتى من صديقتها، ومن المؤكد أنها سوف تحفظ سورة الفلق هذه المرة.

****

موقف :٤

مرت فترة قاسية على مازن ومرام، ربما تجاوزت الشهرين، كان يبدو التوتر على مازن، ومرام أكثر فتورًا، وكأن كلًا منهما لديه حديث ولا يجرؤ على الكلام، قررا الجلوس سويًا ليقول كلٌ منهما ما في خاطره، وفي يوم من أيام يناير قارصة البرودة، غيوم شديدة الكثافة، ونهارٌ لم ير الشمس، جرى لقاؤهما بساقية الصاوي.

- «صباح الخير، أليس لديك حصة تدريبية في عزف الكمان اليوم؟»
رد مازن بهدوء حذر: «صحيح، ولكني اعتذرت عنها لأنني بحاجة إلى التحدث معكِ قليلًا».
أغمضت مرام عينيها وأخذت نفسًا عميقًا قائلة: «وأنا أيضًا أريد التحدث معك».
أجابها مازن بابتسامة هادئة يخفي ورائها ضيقه: «ممتاز، هذا يوضح أنه ربما لدينا نفس القلق والريبة تجاه موضوع واحد».
أخافتها لهجة مازن قليلًا ولكنها دخلت صلب الموضوع وتحدثت بصوت مكتوم كمن يخفي البكاء في صدره: «أنا لا أعرف كيف أصف شعوري الآن، فأنا أمر بتوقيت صعب، وأجد بداخلي صراع قوي يكاد يقتلني من شدة تضاد التفكير».
أشاح بنظرة بعيدًا عن عينيها فهو بداخله أيقن ما تريد مرام قوله، ولكنه يدعو في ذات الوقت أن يخلف الله ظنه، استجمع قواه ورد بنبرة الحكماء: «لا عليكِ بإمكانك قول ما تشائين وبالطريقة التي تفضلينها، فهذا ربما يفسر لي طريقتك في الفترة الأخيرة، التي أجدكِ فيها مضطربة وأرى أنكِ لست على ما يرام ولا أدري ما السبب، بإمكانك أن تخبريني بكل بساطة».
نظرت إليه مباشرة وقررت التحدث، وكأنها قررت أن تموت بطيئًا، فهكذا كانت تدمع عيناها أثناء كلامها كمن يغرز بداخله سكين ويموت رويدًا رويدًا: «إنه أمر جديد، أصبحت أفكر بطريقتين معاكستين، أشعر أنني أتمزق من داخلي».
لقد جعلته دموعها يَقِن ويتأكد من إحساسه، فهي لم تعد تقتنع بعلاقتها به، لقد دارت به الدنيا في لحظة وتوقفت في نفس اللحظة حين رأى دموعها، من جانب كان منذ قليل يدعو بأن يخلف ظنه الله،

وها قد جاءته الإجابة بأن ظنه في محله، ومن جانب آخر كم آلمته تلك الدموع التي أدرك بها مدى صعوبة الصراع الذي تعيشه مرام، وقد قرر أن يرأف بحالها ويقول لها ما تخشى قوله: «ليس هينًا أن أراكِ تبكين، لذا رجاءً اسمحي لي أن أقول لكِ أنا ما يجول في خاطرك وما يصعب عليك قوله». أكمل حديثه وهي مع كل كلمة يقولها تذرف عيناها الدموع والقلب ينزف: «خلاصة ما أنت فيه هو أن قلبكِ في اتجاه وعقلكِ في اتجاه، قلبُكِ متعلق بشخص، وعقلك يرى أنه لا مستقبل لكِ معه».

بكت بحرقة وهي ترد قائلة: «لا بد أن يكون للحب دعامة لكي يستمر، ولكن ما نحن فيه أشبه بصورة من دون برواز، فالصورة جميلة ولكن لا بد لها من برواز لكي يحميها ويحافظ عليها، تفكير عقولنا سليم وليس مخطئ في تقدير الأمور لأنه يقول الحقيقة التي نعلمها من البداية ولكننا نخشى قولها».

رد مازن بهدوء: «من فضلك لا تبكي، هذا أول الأمر. وثاني شيء أنني من البداية كنت أفكر بعقلي ولم أُرد الدخول في علاقة مجهولة لأجدكِ أنت المجهول ذاته. اكتشفت أنني لن أستطيع أن أقود زمام الأمور دائمًا، فهناك دائمًا ما يجعلك ترضخين لرغبات قلبك، وهذا ما حدث حين علمت أننا على اختلاف ديني لأنني أحببتكِ حقًا، كان الأمر أشبه بزهرة جميلة وقد رأيتها في بستان وقررت أن أقطفها لكي أزرعها بقلبي، هكذا كنت حين فكرت بعقلي، وهكذا الآن أصبحت حين فكرت بقلبي».

استعادت مرام بعضًا من توازنها وردت تقول: «فهمت المغزى من كلامك وأنت على حق، ولكن أنا لم أُشف بعد، صدقني سوف أموت إن ظللت بهكذا تشتيت، أنا بداخلي صوتين يتصارعان، ولا أعرف لمن الغلبة، إنه أمر يتعلق بنا نحن الاثنين وعلينا معالجة الأمر سويًا».

رد مازن بنفس هدوئه: «حينما تفاجأنا نحن الاثنان في نفس التوقيت باختلاف عقائدنا قلت لكِ أنه أمر متعلق بنا نحن الاثنين والقرار مشترك، وأخبرتكِ أنني أحترم قرارك أيًا كان. الآن الأمر يتعلق براحتكِ أنت، عليكِ تحديد بأي الأساليب تفكري وتخططي لحياتك القادمة، بقلبك أم عقلك أم الاثنين معًا وهذا أفضل، صدقيني إن قُلتُ لكِ اتركيني أو تمسكي بي ربما أشعل الصراع داخلكِ أكثر، عليكِ أن تبتعدي عن أي تأثير وتتجردي من ذاتك وتفكري في الأمر كأنكِ شخص آخر، حينها فقط سوف تصلين للقرار الأسلم لكِ ونصيحتي الأخيرة لكِ، ابحثي عن راحتكِ مهما كلفك الأمر، حتى وإن كانت راحتك في الابتعاد عني».
أجابت مرام وهي تحاول أن تتماسك على الأقل أمام مازن: «أعتقد أنه بإمكانك اللحاق بالمحاضرة التدريبية لم يفتك منها الكثير بعد، أريد أن أختلي بنفسي قليلًا».

****

لم يَعُد يحتمل أيٌّ منهما أكثر من ذلك، فمرام تريد أن تنفجر بكاءً، ومازن حافظ على هدوئه قدر المستطاع، ورغم ذلك كلماته كانت كفيلة بإحداث زلزال بعمق مئات الكيلو مترات وامتداد واسع التأثير، ولذلك لم تستطع مرام مُجاراة الحديث معه، وفَضَّلَت الهروب إلى قوقعتها، وفي المقابل لم يكن مازن يعني هذا الهدوء، وإنما بطبعه يقسو على نفسه لكيلا يجرح من أمامه بعصبيته، تلك النوبة التي ربما لو حضرته لاتهمه الناس بالجنون!
ومنذ هذه اللحظة أُعتُبِرَت قصتهما مُعلّقة، وليست منتهية فليس هناك من كلمات وداع أو تجريح، وإنما فُراق صامت قامت زوابعه في قلبيهما ليعيش كُلٌ منهما مرارة الفراق.

التكوين الجديد

١-سنة بألف سنة.

- «اشتقت لك يا صديقي، لم أرك منذ فترة طويلة!»
مازن: «وأنت أيضًا، لقد أوحشتني يا آدم».
سكت قليلًا آدم قبل أن يجيب لكي يستوعب طريقة مازن الجافة، والتي تَنُم عن جذور اليأس التي تشعبت داخله ثم قال: «حسنًا، أنا لن أطرح عليك السؤال المعتاد لأني أعلم جيدًا ماذا بك، ولكن دعني أقول لك، إنك تعلم أن هذا سوف يحدث عاجلًا أم آجلًا».
لم يكن يرغب مازن في الحديث بشأن ما آلت إليه علاقته بمرام، ولذلك أجاب باقتضاب: «لم يَعُد هناك فائدة من الحديث في هذا الأمر!»
احتار آدم من أجل حال صديقه الذي يراه عليه منذ تخرج من الجامعة منذ شهرين: «إذا كان الأمر كذلك فلا يتوجب أن أراك على تلك الحال، فكما قلت الأمر أصبح منتهيًا».
ضحك مازن في نفسه بسخرية، فالأمر منتهي كما قال صديقه، وكما يرى الجميع، ولكن ما لا يعلمه الجميع أن الأمور انتهت شكليًا ولكن بداخل مرام ومازن ثورة وبركان: «دَعَكَ مني الآن، أخبرني كيف حالك؟»
أجاب آدم ممازحًا: «الحمد لله بخير، صحيح توجد الكثير من الخلافات مع والدي ولكن كما تعلم، دائمًا نختلف».
مازن: «ولماذا الاختلاف؟ هل فعلت شيء؟»
آدم: «لا، ولكن دار بيننا حديث حول دراستي الجامعية والوظائف الشاغرة والمطلوبة حاليًا في البلاد، ثم احتدم الأمر قليلًا».

تعجب مازن قليلًا ثم رد بيأسه المعهود: "هو لم يكن متقبل فكرة دراستك للفنون التطبيقية من البداية".
ضحك آدم بسخرية وقال: "صحيح، هو كان يرغب أن أدرس في أحد المجالات ذات السوق الرائج، مثل التجارة أو أن أدخل كلية تربية ثم أُعيَّن مدرس براتب ٣٠٠ - ٤٠٠ جنيهًا، هُم يرون الأمور دائمًا هكذا".
رد مازن باستياء: "وهذا غير صحيح، يتوجب أن نؤمن بأنه النصيب أولًا وأخيرًا في كل شيء، فأنت لم تجد عمل إلى الآن ليس لأنك درست شيء ليس مطلوبًا في سوق العمل وإنما لأن نصيبك لم يأتِ بعد، هكذا يتوجب عليهم أن يدركوا الأمور".
رد آدم آخذًا نفسًا عميق: "دَعَكَ من هذا الأمر الآن، أخبرني ماذا تنوي عمله الآن؟"
مازن: "العمل في مجال دراستي صعب قليلًا، ولكن أنا أبحث بالفعل، وبجانب ذلك نويت ألا أتوقف عن الدراسة فسوف ألتحق بأحد المعاهد لدراسة النانو تكنولوجي".
تعجب آدم لتفكير صديقه وقال: "أتعني أنك سوف تسافر؟"
مازن: "نعم، بالفعل فلا يوجد لذلك المجال معاهد هنا".
رد آدم بنبرة حزينة: "وأين قررت أن تدرسها؟"
ابتسم مازن قليلًا ثم قال: "في لندن، ألا يعجبك الأمر؟"
رد آدم وهو في نفس حالته: "مطلقًا، أنا أتمنى الخير دائمًا لك، ولكن من المؤكد أنني سوف أفتقدك!"
سكت مازن لفترة وجيزة ورد ملتقطًا أنفاسه: "وأنا أيضًا، ولكني بحاجة للابتعاد لفترة كي أمضيها وحدي".

لم يكن هناك شيء أكثر شغفًا من العلم بالنسبة لمازن، ولذلك قرر أن

يستمر في دراسته لكل شيء يهتم به ويود أن يزيد من معرفته فيه، ولذلك قرر أن يدرس النانو تكنولوجي، فمنذ كان يأخذ دروسه في دورة البرمجة وقد أثار هذا المجال اهتمامه، ذلك السبب هو القشرة الخارجية كمن يعطي السم في العسل! فالعسل هو السبب السامي وهو تزويد معرفته، والسُم هو أنه يريد الانشغال وألا يعطي مجال للتفكير بشأن مرام.

أضاف إلى أعباء بحثه عن عمل في مجاله، وعمله المتقطع مع والده، والتحضير لدراسته الجديدة، قام بعدة زيارات لأصدقائه لكي يشغل وقته جيدًا، والتي حصدت ثمارها عبء جديد وهو لمياء، إنها شقيقة محمد المصري التي التحقت بكلية العلوم منذ عامين، ويبدو أنها تسير على خطى مازن، فكانت تعشق هذا المجال بدرجة كبيرة، ولأن أسرتها على علاقة وطيدة بمازن، ويعلمون أخلاقه جيدًا، فلم يكن هناك أي اعتراض من لجوء لمياء لمازن في حال احتاجت لأي شيء في دراستها إذ واجهتها صعوبات، كما أن فارق العامين بينهما لم يكن كبير، فكانت الأمور تبدو كصداقة أكثر من كونها أستاذ وتلميذته.
ورغم اللقاءات المتزايدة بأصدقائه، وذلك الدرس الخصوصي للمياء إلا أن فكرة افتقاده لمرام ما تزال نشطة، وما تزال كلما وطئت رأسه وسادته ليخلد إلى النوم فإنه حقيقة يخلد للتفكير ولا يذوق النوم.

****

استيقظت صباحًا تَحُك عينيها، وأدركت بعد برهة أن الوقت ما يزال باكرًا، ذهبت تغسل وجهها ثم توجهت إلى المطبخ من دون إيقاظ أحد، أعدت القهوة وأخذت قطعة صغيرة من الكيك.
كانت تبدو وكأنها تقلب في ذاكرتها القريبة، ماذا اعتادت أن تفعل كل

صباح منذ فترة قريبة، فدائمًا كانت تتحدث إلى مازن في الصباح لكي تعلم برنامجه اليومي، وتخبره ماذا سوف تفعل ذلك اليوم، وأين سوف تذهب، هذا ما اعتادت عليه منذ أعلن مازن حبه لها، فقد وضعته في مكانة لم يصل أحدٌ من قبل إليها، حينها فقط تذكرت كلمات مازن حين قال لها من الصعب قبول شخص لفكرة أن يترك كادره الوظيفي ويعمل في كادر أقل، فإما أن يعتلي منصب أكبر أو يترك العمل نهائيًا. تبسمت وقالت: «وها نحن قررنا سويًا أن نترك العمل!»

عادت سريعًا إلى قهوتها المنسية لتجد أنها باردة فقررت إعداد فنجان آخر. ثم نظرة إلى الخارج لتجد أن الجو مناسب للتنزه قليلًا، وبإمكانها شراء القهوة الجاهزة، فَضَّلَت عدم إيقاظ والدها فوضعت له ورقة على الطاولة المجاورة له ثم ذهبت إلى إحدى المقاهي التي اعتادت أن تحتسي فيها القهوة برفقة مازن، وكأنها تحاول إنعاش ذاكرتها بذلك الغائب.

****

- «مازن أهذا أنت؟»

اندهش مازن قبل أن يدير ظهره ويرد قائلًا: «مرحبًا ديمة، كيف حالك؟»

ديمة مبتسمة: «بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟ لم أرك منذ فترة؟»

مازن: «الحمد لله. ولكني انشغلت قليلًا الفترة الماضية».

أجابت ديمة تحاول أن تتعمق أكثر في التفاصيل: «عسى أن يكون خيرًا؟»

مازحها مازن بغلظة: «كل خير، ولكن أخشى أنك سوف تتأخرين».

ضحكت ديمة وجاوبته: «لا عليك فقد جئت منذ قليل للتبضع، لدينا الوقت الكافي».

مازن: «حسنًا إذًا، قررت أن أكمل دراستي، وسوف ألتحق بمعهد لدراسة

النانو تكنولوجي، وكنت مشغول في اليومين الماضيين لإنهاء الأوراق المطلوبة للتقديم».
نظرت إليه ديمة بإعجاب ومازحته قائلة: «يا له من قرار جريء، فالكثير منا يسعى جاهدًا لكي ينهي دراسته الأساسية، أما أنت تبارك الله متمسك بالدراسة».
ابتسم مازن بخجل: «كما تعلمين إنه شغف».
ديمة: «نعم أعلم ذلك، وبالتوفيق يا صديقي، ولكن أخبرني ما سر استيقاظك باكرًا هكذا؟»
صمت قليلًا قبل أن يجيب: «لا أعرف لقد استيقظت بغير عمد ووجدت أن الوقت باكرًا ولكني اكتفيت من النوم».
حينها شعرت ديمة بما يخفيه مازن وراء الكلام وقاطعته مباشرة قائلة: «رجاءً لا تدفن رأسك في التراب مثل النعام، أنت لست بحاجة لكي تخفي مشاعرك». في إشارة لتلك الحالة السيئة التي يعيشها من بعد مرام.
ابتسم مازن قليلًا وأجاب بحكمة: «ولست مستفيد شيء إن أظهرتها، سبق وأن أظهرت مشاعري وأمضيت فترة لن أنساها، ولكن ما الفائدة الآن من قول إنني اشتقت لمرام! لقد اتَّخَذَتْ قرار وأنا أساعدها على تنفيذه».
تعجبت ديمة قبل أن تجيب وصمتت لفترة ليست طويلة: «تساعدها! ألهذه الدرجة تحبها؟»
مازن: «لن أخجل من قول إنني ما زلت أحبها، ولكن ليس كل من تحبينهم سوف تجتمعين بهم أو تسمعي صوتهم أو تتحدثي إليهم فكل ذلك له علاقة بالوجود المادي، وإنما ليس ضروريًا أن يكون كل شيء موجود وحقيقي أن يُرى بالعين، فإذا كان الأمر كذلك فلم يكن هناك

يقين أو إيمان فقد آمنا برُسُل لم نرهم ولم نعش زمانهم، فربما الإحساس يكون أقوى بكثير ويتجاوز فكرة الوجود المادي بمراحل عديدة».

ألجم لسانها ذلك التعبير، صارت تتسائل في نفسها هل هو إنسان طبيعي؟ مثله مثل باقي بني آدم! هل ما تزال توجد من نوعية مازن في البشرية؟

****

في إحدى الليالي الصيفية قبيل بداية العام الدراسي الجديد، وقبل سفره ببضعة أيام، جلس مازن يُحَضِّر لذلك المجال الجديد ويطالع كل المعلومات التي يستطيع أن يعلمها في ذلك الشأن، يَسَّرت الشبكة العنكبوتية كثيرًا خاصة وأنها في عز طفرتها في المجتمعات العربية في تلك الآونة، أمضى قرابة الساعتين يستقي المعلومات من أكثر من مصدر، صال وجال في مختلف المواقع الإلكترونية حتى اكتفى وبدأ يشعر بالتعب، وقبيل انتهائه لفت انتباهه أحد مقالات الإذاعة الدولية الألمانية Deutsche Welle. تقنية الاندماج النووي: بوابة جديدة لإستخلاص الطاقة النظيفة، عنوان المقال كان يبعُد تمامًا عما دخل مازن ليبحث عنه، ولكن ما أثاره هو محتوى الموضوع، ثورة علمية جديدة في ميدان استخلاص الطاقة البديلة يدشن لها انطلاق مشروع إنشاء المفاعل النووي الاختباري «ايتر» جنوب فرنسا، مشروع طموح لإنتاج طاقة نظيفة تقوم على أسس علمية جديدة قد تحل مشاكل الطاقة في القرون المقبلة.

قدم العلماء منذ منتصف القرن الماضي حلولًا علمية لتلبية الحاجة المتزايدة آنذاك للطاقة، من ضمنها الانشطار النووي كوسيلة أنجح لاستخلاص الطاقة الكهربائية، ومع تزايد الحاجة الماسة في الظرف

الراهن للطاقة وسعي الدول الصناعية لتأمين موارد الطاقة، التي تعتمد عليها في التصنيع وفي النمو الاقتصادي عامة، عرض العلماء خيارات علمية أقرب إلى الخيال العلمي لكنها قد تكون الحل النهائي لمشكل الطاقة والتلوث البيئي في سائر المعمورة، وفي هذا الصدد تم التوصل مؤخرًا في موسكو إلى اتفاق يقضي باختيار فرنسا لاستضافة مفاعل دولي للاندماج النووي، وذلك بعد توصل الشركاء الستة الممولين لبرنامج تطوير تقنية الاندماج النووي لحلول الخلافات العالقة بينهم، يذكر أن تكلفة المشروع تبلغ حوالي ١٠ مليار يورو، وسيبدأ بحلول هذا العام بناء مفاعل اختباري يُدعى «ايتر» في منطقة كاداراش قرب مدينة مارسيليا جنوب فرنسا، ويُجسد برنامج «ايتر» مشروعًا طموحًا للبحث العلمي والاستراتيجي لإنتاج طاقة نظيفة وغير محدودة -كبديل للمفاعلات النووية- التي تحول الهيدروجين إلى طاقة كهربائية.

المقال كان طويلًا ويحتوي الكثير من المعلومات التي يصعب على مازن فهمها في ذلك الوقت المتأخر، خاصة وأنه أنهك نفسه قبلها في قراءاته حول أمور النانو تكنولوجي، لذا احتفظ بصفحة المقال على جهازه ونهض لينام وهو يشغل تفكيره ذلك الأمر.

كان يبدو عليه الاستعجال حتى يستيقظ نشيطًا لينتبه بكل حواسه ويتمعن في قراءة المقال مرة أخرى!

****

لقد انجلت أيام الصيف سريعًا وبدأ العام الدراسي الجديد منذ أيام قليلة، كانت تتوجه مرام بصحبة ديمة ووالدتها إلى المطار، ذهبت تودعها إلى حين عودتها مرة أخرى في إجازة منتصف العام، كانت تشعر وكأنها تودعها فإنها سوف تشعر بفراقها وافتقادها كثيرًا هذه المرة، فكانت الأقرب إليها رغم صداقتهما وليدة العامين، صديقتها نادين

ما أن انتهت السنة الدراسية وسافرت إلى حيث موطنها في مدينة الأسكندرية ولم يكن هناك أحدٌ بجانب مرام سوى ديمة، كانت أشبه بوسيلة الاتصال غير المباشرة بينها وبين مازن، وها هي الآن تفقدها لفترة ليست قصيرة.

بدأ كل فرد يشق طريقه وحده، أحمد إسماعيل يسعى لتفوق في تخصص المخ والأعصاب، ومحمد المصري ما يزال يحاول البحث عن وظيفة، وآدم استطاع أن يحصل على وظيفة في سجل مدني مدينة السادس من أكتوبر بعد إلحاح والده عليه البحث عن وظيفة في غير كادره، ومرام عادت إلى دراستها بقلبٍ مكسور وليت الدواء بيد أحدٍ غيرها، فهي من كسرت قلبها بنفسها. تجاوزت الأيام الأولى التي خطت فيها قدمها المكان وهي تعلم أنه لن يتوجب عليها بعد الآن انتظار شخصٍ كان يطل عليها أثناء اليوم بابتسامته كشمسٍ تداعب المارة بين المباني، استطاعت أن تتأقلم ولو بشكل ظاهري بعد لقاء صديقتها نادين، وحبها لدراستها التي طالما حلمت بأن تتميز فيها. أما مازن فقد شق طريقه إلى المطار ليغادر مدينته وبلده، وكم كان يتمنى أن يغادر العالم، فبالرغم أنه كان ذاهب لتحقيق رغبته بدراسة مجال جديد وقد أثار اهتمامه إلا أنه كان غير مبالٍ بأي من هذا، مرت عليه لحظات كان يشعر أنه يتوجب أن ينعزل عن البشر وكأنه يعيش فقط لأنه ما زال يتنفس، حتى شُعلت الحماس التي كانت كاللهب في بادئ الأمر حين قرر دراسة مجال جديد انطفأت سريعًا، وكأنها إنارة شمعة خافتة الإضاءة، ولذلك كانت حصيلة العام سلبية بمعدل ٥.٨٩٪، نعم إنه معدل منخفض ومنخفض جدًا بالنسبة لشخص اعتاد على أن يكون ضمن ترتيب الخمسة الأوائل على دفعته، ولكن هذه المرة لم يحصل على أحد المراكز الأولى، ولم يدخل ضمن الترتيب من الأساس!

كان يعلم تمامًا أن النتيجة جاءت حصيلةً لإهماله، وليس لأنه مجال جديد، أو ربما صعب المراس، فما كان ليختاره أو ينوي دراسته من البداية لكنه يعلم أنه كان مقصرًا ولا عجب في أن تكون تلك هي نتيجته.

****

٢-البداية.

انقضى نحو عام ونصف على فراق مرام، لم يتغير شيء مما حوله، لكن تغير هو شخصيًا، إنه يختبر شيء جديد لم يعتده من قبل، فكيف يحبها بهذا القدر الذي يجعله راغب في ترك كل شيء وراءه! لقد ترك أسرته وبيته وبلده وذهب للدراسة في الخارج، فكان ذلك حافز قوي يجعله يتجاوز أزمته ولكن ازداد الأمر صعوبة، وها هو عائد من رحلته فارغ الوفاض.

ازدادت الأمور تعقيدًا بما حققه هناك في لندن، فهو لم يتعامل يومًا مع دراسته بتلك الهزلية التي أدت به إلى هبوط حاد في مستواه فكان ذلك أيضًا يؤرق نومه، واعتبر أن رحلته لم تجنِ ثمارها بحصاد العلم ونسيان مرام، بل جعلته يهمل دراسته ولم يتغير الحال بشأن افتقاده القوي لمرام!

لم تمضِ على عودته غير أسبوعين حتى غادر القاهرة متجهًا إلى محافظة مرسى مطروح المطلة على البحر المتوسط، أراد أن يتغرب قدر المستطاع وأحب الانعزال بشكلٍ قاسٍ؛ فهو بحاجة لتلك العزلة، لربما استطاع أن يجد شاطئه هناك، بعيدًا عن أسرته، بعيدًا عن الدراسة التي لا يقبل فيها غير التفوق، بعيدًا حتى عن أصدقائه، لم يكن هناك أي اتصال بينه

وبين أصدقائه حتى! وإنما الهاتف مغلق، ومكالمة أسبوعية للأسرة لا تتجاوز الثلاث دقائق ليطمئنوا عليه، ورغم تلك القوقعة التي دخلها بإرادته إلا أنه تعرف هناك على رفقة جديدة وهما الورقة والقلم، ليفجر ما بداخله عن طريق القلم لتتناثر الأحبار هنا وهناك تعبيرًا عن الصراع الذي يدور بداخله، والأوراق ما زالت مثابرة وتتحمل.

ونقلًا عن تلك الخواطر التي قال فيها: «إن الحياة اختبارات وأصحاب الإرادة والعزيمة لا يعلنون فشلهم، لأنك إن كنت مثابرًا ولديك الإرادة والعزيمة لن تفشل في تحقيق ما تسعى إليه إلا إذا توفاك الله، وحتى في هذه اللحظة لن تكون موجودًا لتعلن فشلك، ذلك ما يدل على أنه ما دمت حيًا فالاختبار لم ينتهِ بعد، وأن أصحاب الإرادة لا يعرفون الفشل».

كان جليًا في تلك الكلمات نبرة التحدي التي لن يقف أمامها أي شيء، وكأنه عزم على أن يستفيق من أجل كبريائه، فهو لا يرضى الفشل، ولا يعرف تلك الكلمة في قاموسه، ولن يدع أي شيء يؤثر عليه بعد الآن، فإذا لم تكفِ سنة ونصف لينسى مرام فلتكن ثلاث سنوات، وحتى إذا لم ينسها فليخفي الأمر ولا يدعه يؤثر عليه، فليخفيه حتى عن نفسه، وإذ لم يحقق مبتغاه في مجال النانو تكنولوجي، فليكن أحد المبدعين والمبتكرين فيه، لكن كيف السبيل؟

****

فيما غاب مازن عن المشهد، حضر أصدقاؤه أحمد وآدم وإسلام إلى جانب صديقهم محمد المصري لشد أزره آخذين عزاء والدته التي توفت أمس. صوان، ومُقرئ يتلو آيات قرآنية، ووجوه حزينة وأخرى جاءت بدموعها، وتلك الصغيرة لمياء التي لم تزل في ريعان شبابها، فهي لم تخلع بعد القفطان الجامعي، والآن أصبحت يتيمة، وبطبع عاطفة

الأنثى كانت لمياء الأكثر دمعًا في هذه الأمسية الحزينة.
- «السلام عليكم، من معي؟»
- «مرحبًا خالة مديحة، أنا إسلام».
مديحة: «مرحبًا، كيف حالك يا بني؟»
إسلام: «الحمد لله بخير، أتمنى أن تكوني في تمام الصحة والعافية».
مديحة: «نحمد الله على كل حال، شكرًا لك».
إسلام: «من فضلك خالة مديحة كيف أستطيع الوصول لمازن؟ هاتفه مغلق منذ يومين؟»
صمتت طويلًا قبل أن تجيب وكأنها في حالة حداد ثم أجابته باكية: لقد أرهقتني حاله يا بني، لم أدخر أي جهد لكي يعود مازن لطبيعته».
اندهش إسلام من عدم ردها على سؤاله، وصار يتسائل ألهذه الدرجة مازن في حال سيئة! وكيف لي العلم فأنا لم أره منذ أن عاد من لندن. ثم أجابها قائلًا: «اهدئي قليلًا يا أمي، مازن أخونا وبالتأكيد لن نتركه في تلك الحال، ولكن أنا لم أره منذ عودته وهاتفه مغلق».
ردت مديحة مستمرة في نحيبها: «نعم، لقد اختار العزلة ولا يريد أن يتصل به أحدٌ، حتى أننا ننتظر اتصاله كل أسبوع مرة واحدة فقط، ومن يرضيه هذه الحال!»
إسلام: «بالطبع لا ترضي أحد، ولكن حسب قولك إنه لا سبيل غير أن ألقاه، حسنًا، أخبريني أين هو؟»
شد إسلام رحاله إلى مدينة مرسى مطروح، تحديدًا في منطقة عجيبة حيث تقبع إحدى الشقق الخاصة بأسرة مازن. اتجه يصعد الدرج وصولًا إلى الطابق الثالث ليطرق الباب.
تعجب مازن لأنه لم يطرق بابه أحد منذ مجيئه، ولكنه في الأخير ذهب يفتح الباب غير مبالٍ من يكون خلفه، ليجد صديقه! تعجب في البداية

ثم أدار ظهره معاودًا الدخول: «أغلق الباب خلفك، وتعال».
اندهش إسلام من استقباله الجاف وقال ممازحًا: «تشعرني وكأنني كنت معك بالأمس! لقد أوحشتني يا صديقي».
أجاب مازن سريعًا: «لم أقصد، بالطبع اشتقت لك، اشتقت لكم جميعًا، ولكنني أمر ببعض الظروف التي لا أرغب أن يراني أحدٌ عليها».
لم يتوقع إسلام أن يكون مازن صريحًا بشأن حالته، فكان ينتظر منه عناده المعهود ولكنه هذه المرة كانت كلماته ناضجة أكثر من ذي قبل: «ألسنا أصدقاءك وإخوتك لكي نشاركك همومك وأعباءك».
أجابه مازن وهو ذاهب إلى المطبخ لإعداد مشروب ساخن لكليهما: «بعض الأمور يجب أن يواجهها الشخص بمفرده، كما أن تلك الأمور حلها بيد صاحب الشأن نفسه، لذلك لا داعِ في أن أزعج الجميع بهكذا حال».
اندهش إسلام وأجاب في هدوء: «الحل لم يكن يومًا في الانعزال، انتبه لنفسك يا مازن، أنت في طور التغير للأسوء».
بدا كلام إسلام قاسيًا بعض الشيء ليجيبه مازن مندهشًا: «كيف ذلك؟ وما هو الأسوء مما أنا عليه؟»
أجابه إسلام بكل حكمة: «الأسوء هو عدم المعرفة! ربما أنت هكذا لأكثر من سبب، ولكن السبب الرئيسي، والذي يعلمه جميعنا هو حبك لمرام، ولكن ألم تنتبه أنك لم تعد تعلم شيء عمن يحبوك من أهلك وأصدقائك! أخبرني متى تعود؟»
كان مازن مستقبلًا لكلمات صديقه الذي كان يبدو عليه الحدة قليلًا بكل إمعان، وبنظرٍ شاخص في الفراغ وكأنه يمعن النظر في داخله الذي أصبح فارغًا، انتبه سريعًا لسؤال صديقه وأجابه مندهشًا: «أعود من أين؟ وما الذي تقصده بعدم المعرفة؟»

نظر إليه إسلام بيأس: «متى تعود لسابق عهدك! ربما أراك أمامي بهويتك، ولكن ليس بطبعك ولا شخصيتك، أنا لم أرك يومًا منهزمًا!»
لم يلق إسلام الإجابة من صديقه، لم يلق غير إشارات وإماءات تدل على حزن قابع بداخل مازن، ولذلك همَّ بالمغادرة ملقيًا عليه كلماته الأخيرة: «حسنًا، لقد جئتك لأنني وجدت خالتي مديحة تموت بكاءً لكي تراك، تراك كما كنت في السابق، كما أخبرك أن والدة محمد قد توفت منذ يومين وأخذنا العزاء بالأمس، حتى تدرك ما هو حقًا معنى عدم المعرفة».
تبخر إسلام كأبخرة الشاي الساخن الذي تركه ولم يُكمله، تاركًا مازن في حالة مرتبكة بسبب تلك الأخبار التي نقلها إليه، فقد استخدمها إسلام لكي تكون سلاحه الأخير متعمدًا أن يتركه دون شرح أو تفاصيل، لعله يستيقظ من غفوته العميقة، وما أشبه الليلة بالبارحة، فكلما عقد العزم على أن ينتبه لنفسه وينتفض، يجد نفسه يصارع ذكرياته ثانيةً حتى بدت حياته كئيبة ومملة، كمنزلٍ ردمته أطنان من الغبار.

****

- «ما الذي تفعله؟ انتبه لكيلا يختلف مكان العلامة».
انزعج آدم من تزمر صديقه إسلام وتدخله في كل كبيرة وصغيرة ليترك ما بيده ويرد قائلًا: «أنت تصيبني بالارتباك، وهكذا لن نستطيع إنجاز شيء».
أجاب إسلام مازحًا: «حسنًا سيدي المزور، لن أتدخل في عملك».
عاد آدم إلى عمله ثم قال: «لا تقلق سوف أخرجه لك نسخه طبق الأصل، كما أنها في النهاية ليست بطاقة عضوية نادي الجزيرة لكي تخشى شيء، إنها فقط عضوية لساقية الصاوي».
ضحك إسلام ساخرًا من مزاح صديقه: «لا تقلق أنا لا أرغب بدخول

صفوف ناشئي الأهلي، فأنا مشجع للزمالك أبًا عن جد».
استمر آدم يمازح صديقه وهو يعمل قائلًا: «كم أنت كبير يا صديقي، فما زلت تشجع الفريق رغم عدم حصوله على بطولة منذ عتيق الزمن، أخبرني متى سوف نراكم تفوزون على الأهلي؟!»
نظر إليه إسلام وأضاق عينيه وأجاب مازحًا: «لو أنني لا أحتاج إليك، كان ليكون لي رد فعل آخر».
وأثناء حديثهما فزعا عندما سمعا من يطرق باب الغرفة ليُفتَح الباب ويطل عليهما مازن. قد سال العرق من جسديهما وهرب الدم من عروقهما فلا يعلم أحد ما يفعلان، ولذلك عندما رأيا مازن عادا ليتنفسا الصعداء.
بعد أن رأى مازن آلة طباعة غريبة الشكل وبعض الأوراق السميكة وقليلًا من المواد اللاصقة والحارقة وجهاز كمبيوتر وأسلاك موصولة وكأنه دخل إلى غرفة عمليات، قال لهما في اندهاش: «ماذا تفعلان؟!»
اندفع آدم نحو صديقه يحتضنه قائلًا: «لقد أوحشتني يا صديقي». نظر إليه مازن مبتسمًا وأكمل آدم في مزاح: «حسنًا، فلتنضم معنا في تلك الجريمة الشنعاء».
عَلَت ضحكاتهم وسرد له إسلام شارحًا: «هناك إحدى الندوات الخاصة بتكنولوجيا المعلومات الحديثة والحوسبة في ساقية الصاوي وكنت أريد حضورها».
مازن: «وما المانع في ذلك؟ وما دخل ما تفعلان في حضورك تلك الندوة؟»
إسلام: «الحضور لأعضاء الساقية فقط، ولأن أخانا آدم أصبح مزور قدير فلا عيب أن نستعين به في تلك المهمات الصغيرة».
ضحك آدم وأجابهما مازن مندهشًا: «أتمزحان؟! وكيف حصلت على تلك

الطابعة يا آدم؟»
آدم: «أنسيت أنني أعمل في السجل المدني يا صديقي؟»
انبهر مازن بإمكانيات صديقه، وقال له بلهجة مزاح وتحذير في آنٍ واحد: «لا يُستهان بك يا آدم، ولكن احذر أن تتطور الأمور وتتمرس الجريمة».
أنهى إسلام أجواء المزاح بسؤاله لمازن: «هل التقت محمد؟»
انتبه مازن لسؤاله وأجابه بجدية: «لا، لقد عُدت منذ سبع ساعاتٍ فقط، ولكني كنت أفكر في أمرٍ ما وأود أخذ مشورتكما فيه قبل أن أتحدث إلى محمد».
انتبه صديقاه بعد أن أنهى آدم عملية التزوير بنجاح، لينصتا جيدًا إليه.
عاد مازن بوجه جديد، ربما أصبح أكثر جدية ولكنه بدا بصحة جيدة، هذب لحيته التي كانت تعطيه شكلًا أكبر بكثير عن عمره الحقيقي، وأمعن النظر في مقولة إسلام: «الأسوء عدم المعرفة». جاءت الأخبار السيئة التي نقلها إليه إسلام تباعًا لتلك الجملة لكي تعطيه الهدف الأقوى والأجمل والذي كان يحيا به من البداية، وهي السعادة في إسعاد الآخرين ومساعدتهم، ولذلك لم يتردد لحظة في أن يساعد صديقه محمد، فعمله بالمجال الصحفي في مصر لا يُدِر له دخل مُجزي على الإطلاق فضلًا عن كونه من حديثي التخرج، وبمساعدة والده استطاع أن يؤمن له فرصة عمل في السعودية، يستطيع أن يعتمد على دخلها ليبدأ حياته ويَسُد حاجات شقيقته التي ما تزال تدرس، ولم تتوان أسرة مازن في أن تُصر شديد الإصرار على بقاء لمياء معهم؛ فليس لهم في الدنيا الآن غير أسرة مازن، وهي بالطبع لن تعيش وحدها.
تردد محمد كثيرًا في قبول تلك العروض الكريمة التي تقدمها له أسرة صديقه، وكانت نفسه عزيزة وقد شعَرَت بذلك مديحة حتى أنها

جلست معه على انفراد لتقنعه بالأمر: «يا بني ألا تعتبرنا مثل أهلك؟»
أجاب محمد مسرعًا: «بالطبع، نعم، فأنا لم يعُد لي غيركم. ومن قبل ذلك وأنا أعتبرك مثل أمي بالضبط، ولكن اعذريني خالة مديحة، فأنتم تحملونني جميلًا لن أستطيع رده يومًا».
أجابته مديحة في اندهاش: «كيف تقول ذلك يا بني! هذا ليس جميلًا أو معروفًا، لا سمح الله، نحن لم نقم بشيء غير أن عمك قام بمهاتفة أصدقائه وعلم أنهم يرغبون بمحررين صحفيين، عندما تسافر وتتسلم عملك عليك أن تثبت كفاءتك وجدارتك بتلك المكانة، وحينها سوف تدرك أن مجهودك هو من أوصلك إلى هناك وليس نحن».
لم يجد محمد الكلمات المناسبة ولكنه تطرق لأمر آخر: «بالطبع لا، لأن الفضل لكم في بداية الأمر، حسنًا في هذا الأمر لن أقول شيء ولكن فيما يخص لمياء، هي لم تَعُد صغيرة، فبإمكانها أن تظل بمنزلنا وهناك جيرانها وأصدقائها فلا تقلقي لن تكون وحدها».
نظرت إليه وقالت في جدية: لا، لا، غير صحيح يا محمد، يا بني في كل مكان هناك الطيبون والسيئون، وبالطبع جميع جيرانكم يعلمون أنكم وحدكم الآن، وسوف يلاحظ دخول وخروج لمياء وحدها بعد سفرك؛ فهي ما تزال تدرس وبحاجة لاهتمام ورعاية، غير صحيح مطلقًا أن تترك شقيقتك وحدها، هنا لن تكون وحدها فهناك ميار أختها الأكبر، وسوف تتآلفان سويًا. وبخصوص مازن فأنا أعلم أنه يذاكر لها في دراستها وأعلم أنك تعتبره كشقيقك، ولكن وضع وجوده في المنزل أثناء وجود لمياء لا يصح، وربما يكون الوضع بالنسبة لك محرجًا قليلًا، ولكن لا تقلق فمازن سوف يسافر مرة أخرى».

****

- «نعم سوف أسافر مرةً أخرى».

أحمد: «ألم تكتف من البعاد؟ أم أنك ما تزال تحب العزلة؟! توقعت أنك طويت صفحات الماضي وسوف تنتبه لمستقبلك وحياتك هنا!»
أدار مازن وجهه إلى أحمد وأجاب باتزان وأسهب في الشرح: «في المرة الماضية أوهمت نفسي أنني ذاهب من أجل العلم والاستفادة ولكني حقًا كنت أريد الهروب، أما الآن أستطيع أن أطمئنك أنني لم أقرر ذلك لأنني ما زلت أنوي العزلة وإنما من أجل العلم حقًا، أرغب وبشدة التعمق أكثر في العلم، فهو حقًا شغفي الآن ولا يسعني الاهتمام بشيء آخر».
ابتسم أحمد إلى صديقه في إماءة منه تدل على اقتناعه بكلامه، فهو يرى أمامه شخص مختلف عن الأيام الأخيرة التي بدا فيها انهزاميًا وغير مبالٍ حتى بحياته، لقد نفعته عزلته وبدأت تطرح ثمارها.
فمازن لم يكن بحاجة لعودة مرام أو طبيب نفسي أو أن يُنهي حياته، فقط ما احتاجه هو أن يولد من جديد! فعزلته التي فرضها على نفسه جعلته يعود إلى العالم مرة أخرى ويتعرف عليه، ولكن دون أن يلقى مرام.
لم يتحسن مازن بين ليلة وضحاها، وإنما في كل يوم يمر كان يصبح وضعه أفضل وأكثر استقرارًا، وبالطبع انعكس الأمر على نتيجته في العام الأول ليحصل على أفضل معدل تجاوز نسبة الـ ٩٩٪، كان الأمر بالنسبة له كأنه عاد من جديد ليبدأ مرة أخرى يسترجع حياته، فهكذا تَعَوَّدَ في دراسته، أن يكون دائمًا في المقدمة، ذلك ما وَلَّدَ لديه طاقة إيجابية انعكست أيضًا على لمياء، فبعد أن عاد إلى مصر ليمضي إجازة الصيف هناك مع أسرته بدأ يدرس لمياء ويُطلِعها على دراسته الجديدة، وهي كانت كالفتاة الصغيرة التي تغويها الألعاب، فكانت مثل مازن، شغوفة بهذا المجال، وشجعها أكثر حين رأت أمامها ما وصل إليه وعقليته الفذة.

الحافز ما زال لدى مازن لتقديم أفضل ما لديه، فهو لم يشعر بتلك الطاقة سابقًا، فهناك نتائج جيدة يحققها، وهناك من يشجعه ويفهم مجاله ويناقشه فيه -لمياء- لذلك كانت حصيلة السنة الثانية إيجابية أيضًا فقد كانت مشاركته تلك السنة مميزة واستطاع أن يقدم مستوى متميز بين أفراد دفعته، بل تفوق على أساتذته أيضًا وسار يناقشهم لينهي العام الثاني بمعدل تجاوز ١٠٠٪! أثبت لهم أنه ذو عقلية فذة، وأن لديه بذرة تؤهله أن يصبح عالم في مجاله، ولذلك لم تنتظر إدارة المعهد أن يُكمل سنين الدراسة وإنما رشحته لاجتياز اختبارات بنفس المجال حضرته كبرى الشركات بعد نهاية عامه الثاني بتفوق لافت.

وبدأ يلمس نجاحه ويقطف أولى ثماره بعد اجتيازه الاختبارات بكل تفوق، وشعر لوهلة أن الأمر جاء في التوقيت المناسب، فهو في تحسن مستمر على مستوى شخصي فقد بدأ برنامج تأهيل ذاتي بعد أن فقد مرام، وها هو الآن يعود للحياة من جديد ليصبح عضو فعال ومؤثر بقوة، وعليه أن يستغل تلك الصحوة ولا يتهاون، فلم يكن حلمه مجرد الحصول على وظيفة أو أن يتفوق في مجاله، فهو كان متفوق من البداية ولكن عليه الآن استغلال تلك العزيمة والهمة في هدف أعلى وأسمى.

لقد كان فراقه معتادًا على مدار الـثلاثة أعوام الماضية فقد فارق مازن أحبابه من أجل العلم ولكن هذه المرة مغادرًا إلى الخليج، تحديدًا إلى قطر، من أجل حياته العملية، والتي بالكاد بدأها، ودعته أسرته داعيين له بالتوفيق وكانت الأكثر حزنًا هي لمياء التي سوف تفتقد أستاذها الذي جعلها مدمنة على ذلك المجال.

هناك جرى استقباله من قبل أحد أفراد الشركة، وقام بإيصال أغراضه إلى حيث إقامته، وقام بجولة سريعة إلى مؤسسة (Konano) لتطوير

التكنولوجيا، وتعرف هناك على طاقم العمل وعلم بمهامه في قسم التطوير التكنولوجي، وتعرف على أحد الأفراد والذي سوف يمثل الثنائي معه وهو أمريكي الجنسية يُدعى بيلي، ومن ثم أوصله إلى المنزل على أن يباشر عمله من الغد.

لم تمض سوى ثلاثة شهور حتى أظهر مازن لمسته الإبداعية في تطوير كفاءة مجسات الأرض للتنبؤ بالزلازل، كما استطاع أن يطور أجهزة استقبال الإشارات والمعلومات من الأقمار الصناعية، كما عمل على رفع كفاءة الأجهزة المستخدمة في عمليات التنقيب.

لقد كانت أغلب لمساته الإبداعية في علوم النانو تكنولوجي، ذلك المجال الذي لم يدرسه غير عامٍ واحد فقط، وحقق فيه معدل غير مرضي بالنسبة له!

ولأنه وصل لمبتغاه وحقق غايته بدأت ثورة عمله تهدأ قليلًا ليهتم ببعض الأعمال الخاصة، والتي اهتم فيها بالبرمجة ليبتكر برنامج تجسس مختلف من نوعه قليلًا، حيث تقوم فكرته على تحديد مصادر البيانات الواردة أو الصادرة سواء عن طريق الإنترنت أو وصلات السلك أو توصيل الجهاز بأي شيء آخر مثل (Bluetooth , Flash) ليصبح أي جهاز يحمل هذا البرنامج مفخخ ومراقب بحيث لا يستطيع مستخدمه أن يحجب أي شيء، والفكرة تميزت أكثر حين استطاع مازن أن يخفي تمامًا مصادر التعرف على البرنامج، فهو لا يُحَمَّل على الجهاز المراد رصده وإنما ما هي إلا رموز معينة خاصة بالبرنامج ليصبح جزء أساسي من اللوحة الأم في الجهاز المراد رصده، ومن ثم يلتقط الإشارة من القمر الصناعي عبر الجهاز الشخصي، ولذلك لن يستطيع مستخدم الجهاز التعرف ما إذ كان جهازه مرصود أو مفتوح أو محمل عليه أي شيء غير معلوم، ولأنه يُعد برنامج تجسس بامتياز لم يفصح مازن عنه شيء وإنما

فَضَّلَ أن يكون له كسلاح خفي.

****

هدأت ثورة اكتشافاته قليلًا وبدأ تركيزه يتجه لشيء آخر حيث قام بفتح ذلك المقال الذي كان يقرأه سابقًا عن مفاعلات الاندماج النووي. قرأه عدة مرات وبدأ يبحث في الأمر ويتعمق فيه أكثر، لقد ظل العلماء عقود من الزمن قابعين على إنجاح تجربة الاندماج النووي بدلًا من انشطاره، فطاقة الاندماج تولد طاقة أعلى بكثير من التي تولد من الانشطار فضلًا عن كونها ليست لها مخلفات كميائية، ولإنتاج طاقة بالاندماج النووي لا بد أن ينصهر نظيرين ثقيلين من نظائر الهيدروجين -الديوتيريوم والتريتيوم- حيث يتم ضغطهما وتسخينهما حتى درجات حرارة عالية لتفقد بذلك الذرات إلكتروناتها وتتحول إلى غاز مشحون أو بلازما.

وبالرغم من ندرة التريتيوم في الطبيعة إلا أنه يمكن توليده بضرب الليثيوم بنيترونات سيوفرها التفاعل بسهولة تامة، ولكن مع خلو النيترونات المنبعثة من أي شحنات مما يؤدي إلى صعوبة اصطيادها لعدم قدرة المجال المغناطيسي التأثير فيها، مما يجعل النيترونات تتصادم بشدة مع جدران المفاعل وتوقف التفاعل وفشل التجربة.

ولكي تكون اصطدامات الأنوية قوية بما فيه الكفاية لإنشاء تفاعل اندماجي، تتداخل ثلاثة عوامل: الحرارة T، الكثافة N ، زمن الاحتجاز t، يجب أن يصل حدًا فاصلًا للحصول على الـBreakeven، Nt فإن المعامل حيث تكون الطاقة الناتجة عن الاندماج مساوية للطاقة المستخدمة، ذلك الحد الذي يكون التفاعل إثره قادرًا على المواصلة من تلقاء ذاته دون انقطاع، ويُقدر هذا الحد بـــ١٠ثوانٍ و١٤ جزء من الثانية / سم٣.

ظل شهرين يعمل على إحياء الفكرة من جديد، وكالعادة عندما تدخل

مكتبة بالمنزل تجد الأوراق متناثرة هنا وهناك، فاعلم جيدًا أنه بصدد اكتشاف جديد أو على أقل تقدير أنجز شيء بالمُضي إلى الأمام في أمرٍ ما، وبالفعل كانت نتيجة البحث المُضني والمُكثف الذي قام به إيجابية، فهو بشكل نظري استطاع الوصول إلى طريقة للمُضي خطوة -ربما تكون هامة- لإنجاز محاولات عدة طوال أكثر من خمسين عامًا لإيجاد مُفاعل يعمل بطاقة الاندماج النووي.

حيث حدد المشكلات التي تحول دون إكمال التفاعل بشكل ناجح، فيتطلب الأمر العمل بشكل مضني ومكثف لتحسين قدرات المفاعل، حيث يوجد بالفعل مفاعل لغرض الاندماج النووي في معهد كورتشاتوف الروسي، حيث تم اختراع وصنع أول جهاز نووي حراري عرف باسم توكاماك، اعتمد كأساس لبناء أول مفاعل تجريبي وهذا في عام ١٩٥٥م، ولذلك كان بحاجة للسفر إلى هناك -معهد كورتشاتوف- حتى يتأكد من صحة بياناته عن بناء المفاعل ومدى إمكانية تطبيق ما وصلت إليه أبحاثه، والذي من خلاله سوف يتم إحياء الفكرة التي عجزت عقول العلماء عن تقديم جديد بها لأكثر من خمسين عامًا.

ووسط تلك المعمعة توقف قليلًا عن عمله ونظر حوله، وصار يتذكر تلك الأيام التي كان فيها بغرفته يجتهد في دراسته، وتذكر لمياء حين وجد الأوراق حوله ربما أكثر من الأساس المنزلي، كما تذكر مرام وقصة حبه معها، وصار يتذكر ويتذكر إلى أن انتبه لأمرٍ ما وكأنه اكتشاف، إنه ما زال يذكر مرام، وتذكر أيضًا أنه ما زال يحبها، فذلك كله لم يكن جديد، وإنما الجديد أنه يستطيع مواصلة حياته وأنه متأقلم على وضع غيابها رغم حبه لها.

وفي هذه اللحظة علم أنه قد شُفيَّ من مرض اسمه الشوق، فلا مانع لديه أن يظل يحبها، وليتأقلم على الغياب، عالج شوقه إليها ليُصبح

حب دون شوق، ويا لها من معضلة!
في أواخر عام ٢٠١٠، وبعد أن أتم مازن زيارته إلى روسيا بنجاح، والتي لم تستغرق سوى عشرة أيام من البحث الدؤوب، حاول مازن أن يسعى بشكل حريص على أن يجد الشخص المناسب الذي يستطيع أن يتكلم معه بشأن ما توصل إليه في مشروع مفاعلات الاندماج النووي، ولأنه في شركة متعددة الجنسيات حاول من خلال بعض زملائه -العرب- أن يتعرف إلى بعض العلماء في مجالات مختلفة، وصار يترقب الفرص التي تجمعه مع بعض العلماء لكي يحدد من هو الشخص الذي يستطيع ائتمانه على إنجاز مثل ذلك، ونظرًا لقلة خبرته في هذا الوسط فهو يخشى الجميع خاصةً وأنه الآن يوجد ما يبرزه وسطهم، فربما يكون في ذلك الوسط من يسرق الإنجاز ويطوره ليصل به إلى الصورة العملية وينسبه إلى نفسه، إضافة أنه أراد أن تكون أول صورة عملية لما توصل إليه في مصر ومنها ينتشر إلى العالم كله، ولذلك أراد أن يكون العالِم الذي يتحدث له في ذلك الشأن مصري.
وفي زيارة أحد العلماء لمؤسسة (konano) صادف أن جاءت د.كندة عمار عالِمة الفضاء، وهي كانت أحد أفراد طاقم اللجنة التي نُصِّبَت لاختبار مازن، وبعد أن أتمت زيارتها انفرد بها مازن وبدأ الحوار بالسلام وتَذْكِرَتها بشخصه.
د.كندة: «مرحبًا مازن، كيف حالك وما أخبار العمل هنا؟»
مازن: «حمدًا لله أسير بخطى ثابتة».
د.كندة: «لقد اطلعت على تقارير خاصة بإنجازاتك منذ بدأ عملك هنا، وقد أبهرتني النتائج التي عكست جهدك المبذول».
مازن: «هذه شهادة أعتز بها، أشكركِ دكتور، رغم أن ما بَرِعت فيه لم يكن إختصاصي على الإطلاق».

اندهشت دكتورة كندة قليلًا وأجابته: «وما هو اختصاصك؟!»
أجابها مازن شارحًا: «أنا متخصص في علوم الكيمياء، ولكن كما تعلمين أن اهتمام الشركة أولًا بعلوم النانو تكنولوجي وبرامج الحماية، رغم أن المجال الكيميائي حقل خصب جدًا، خاصة مع التحديات التي تواجه العلماء الآن لإنجاح تجارب الاندماج النووي، وهو الأمر الذي نعجز عنه حتى وقتنا هذا».
كانت تدقق في كلماته بشدة، وأصابها الشك لثوانٍ بأنه على علم بتعاونها مع دكتور مصطفى زياني وسليمان حافظ اللذين يعكفان منذ خمسة أعوام، وبشكلٍ سري، للعمل على إنجاح تلك التجارب بمجهود شخصي، ولكنها استفاقت سريعًا وعادت ترد باتزان وحكمة: «إذا كان لديك شيء قيم في هذا المجال، لماذا لا تقوم بعرضه على مجلس الإدارة؟ ووقتها تأكد أنهم سوف يعيرون للأمر اهتمام بالغ؟»
ناور مازن وأجاب بحكمة مع ضحكة ساخرة بتأدب: «مع كامل احترامي لحضرتك، لقد عجز فريق كامل من العلماء على مدار ٥٠ سنة وأكثر في الوصول لشيء، كيف أقوم أنا وحدي بتقديم مقترح لشيء كهذا، ما أقصده أن الإدارة لا تُبدي أي اهتمام بالمجال الكيميائي، حتى أنها لا تخصص له فرق عمل، إلا إذا جاء أحدهم باكتشاف صريح، وهذا أمر مُستبعد بنسبة ٩٠٪ لأن الوصول لتفاعل الاندماج النووي والاكتشاف في المجال الكيميائي أمر مُكلف وبحاجة إلى كثير من المال ولا أعتقد أنه في وسع فرد واحد أن يقوم بهذا الشيء وحده».
كان كلامه يوحي بالإقناع، ورغم صغر سنه إلا أن كلامه منسق ويوحي بأن قدراته أكبر من سنه بكثير، لذا ترددت كثيرًا حتى تخبره بشأن فريق عملها القائم لنفس أهداف مازن التي ذكرها: «حسنًا إذًا، أشعر أنك سوف تصل لشيء مهم في هذا المجال وربما تكون خطوة مهمة، لذا

أود أن أخبرك أن لدي فريق عمل مهتم بالمجال الكيميائي». وأكملت قبل أن يسأل: «لدينا بعض الأعمال في هذا المجال، ومعذرة لن أستطيع التحدث بشأنها الآن -ثم تبسمت حرجًا منه- رجاءً تواصل مع هذا الرقم وتستطيع أن تخبره ما لديك بكل ثقة».

****

يوم ٢٠١١/١/٧ كان مازن في أرض مصر بمدينة إدفو، خرج من أحد المنازل التي استأجرها وكان معه محمد المصري! خرجا سويًا في نهار بارد قليلًا ليتحدثا سويًا.

محمد المصري: «حسنًا، أخبرني ما الذي يحدث؟!»

رد مازن وهو في تعجب من الأمر: «لم أكن أتخيل أنني سوف أمر بتلك الظروف العصيبة؟»

أخذ نفسًا عميق قبل أن يرد قائلًا: «على ما يبدو لي أنك قمت بأمرٍ ليس بالهين؟! حسنًا، أخبرني ما الأمر؟»

حكى له مازن عما حدث ولقائه بعالمة الفضاء دكتورة كندة واتصاله بالعالم المصري، وأخبره عن اختراعاته لبرامج التجسس واكتشافه الثمين في الكيمياء، لكن أثناء عملية بحثه عن العالم العربي الذي يتحدث معه بشأن أبحاثه في مجال الاندماج النووي أثار الانتباه ممن حوله وبدأت تثار الأسئلة لدى صديقه بيلي، ولكن الغريب أن أسئلته كانت بحِدة وبشكل مُلح؛ ذلك ما جعل الشك والريبة يتسللان لقلب مازن، مما جعله يقوم في الخفاء بوضع برنامج التجسس على الحاسوب الشخصي لبيلي، وفي أيام قليلة تبين لمازن أنه عميل صهيوني وله أصول إسرائيلية، وأن وجوده في الشركة لصالح إسرائيل وعمله من أجلهم، حتى إنه ينقل ويُسَرِب بعض التكنولوجيات الحديثة التي لم يتم التأكيد عليها خاصةً تكنولوجيات برامج الحماية والأمان وتطورات السلاح، وبذلك ينقل لهم

بذرة الاختراع ليكون لهم الحصاد ويسبقوا غيرهم.
ومنذ تلك اللحظة سار التعامل بينهما في ترقب وحذر؛ فكلاهما يَشُك في الآخر، حتى حدثت المواجهة بينهما حين وجد مازن أن بيلي يعبث في مكتبه بشكل فوضوي وكأنه يُفَتِش عن شيء ما.
بيلي: «إذًا أنت تعمل هنا من أجل مصالح شخصية؟!»
أجابه مازن بكل اندهاش: «أعتقد أنه أفضل ممن يعملون في ظهر الشركة ويسرقون أبحاث خاصة لصالح مؤسسات أخرى».
ابتسم بيلي ابتسامة الواثق وأجاب بكل ثقة: «إذًا أنت تعلم بأمري، أتعلم أن أفضل طريقة للمناورة هو أن تلعب وجميع أوراقك مكشوفة، والفائز هو من يستغل دوره في اللعب».
سَكَتَ مازن قليلًا حتى يتفهم النبرة الغامضة وليدرك الوجه الحقيقي الذي أصبح عليه بيلي، وقبل أن يَرُد قاطعه بيلي مستكملًا: «إذا كنت تُهددني أنك سوف تخبر إدارة الشركة فافعل ما شئت، ولا تظن أنك رابح إذا حققت مبتغاك، لأنك لم تفهم المعنى بعد! المغزى يا صديقي هو الذي يَكمُن في فهم معاني الأسماء ولُبَّها، أما بشأن اختراعاتك غير المعلنة وأبحاثك الخفية، فتأكد أنني سوف أحصل عليها وإذا لم أفعل أنا ذلك فسوف تجد أكثر من جهة تتقفى أثرك ويبحثون عنك، كانت جهة رسمية أو غير رسمية».
كلامه كان بمثابة إعلان حرب صريحة على مازن، خاصة وأنه يتكلم من مصدر قوة مجهولة! فهو لا يخشى أن تعلم الشركة أنه يعمل كجاسوس، كما يتكلم بثقة من كونه سوف يحصل على ما لدى مازن عاجلًا أم آجلًا، مما يوحي بأن لديه مصادر عديدة وأفراد كثيرة تسانده وتعمل معه، فإلى أي مدى تمتد شبكته وما مدى براعتها حتى تستطيع اللحاق بمازن وتعقبه أينما هرب؟

وعلى الفور توجه بعدها مازن إلى المنزل وتحدث إلى صديقة محمد المصري الذي يعمل بمدينة جدة، واتفق معه أنه ذاهب إليه ليرحلا سويًا إلى مصر، ومن هناك -جدة- استقلا إحدى السفن الذاهبة إلى شرم الشيخ، ومنها إلى إدفو بأسوان، وقام بهذه الرحلات بدلًا من الطيران المباشر إلى مصر لتعقيد الأمور على من يحاول الوصول إليه أو يتتبعه، لأنه أدرك أن لديه قنبلة وإما أن تنفجر به أو يستمر في استغلالها لمصلحته، خاصةً وأنه يَشُك في أمر الشركة نفسها، فلا يدري ربما يكون أصل تمويل الشركة من قِبَل اليهود لكنها أمام العالم شركة متعددة الجنسيات.

******

سلسلة الهروب

١-العاصفة.

رأس السنة لعام ،٢٠١١ أخيرًا حققت مرام حلمها بنيل لقب الدكتورة لتبدأ تحديًا جديدًا بتحقيق ذاتها في الحياة العملية التي يَسَّرَها لها والدها بحكم ثراءه وعلاقاته في الخارج، فقد استطاع أن يتواصل مع أحد أصدقائه المتخصصين في مستشفى خاص في إستراليا وضمن لها مكان هناك، ولكن كان يلزمها الحصول على بعض الدورات التدريبة في مصر لتكتسب خبرة عملية ولو بسيطة لتأهيلها لحياة العمل هناك في إستراليا، ولم يتركها والدها عند هذا الحد وإنما استطاع بشبكة علاقاته في مصر أن يضع لها قدم في أحد مصانع الأدوية وهي بانتظار سفرها في يونيو القادم.

ديمة لم تتمرس العمل الطبي بشكل كامل فكانت تعتمد على بعض الأعمال الإلكترونية وأصبحت شبه مستقرة في مصر لعمل والدتها بالجاليري، ولأنهما وحدهما في هذه الدنيا، وليس لديهما ما يضع عبئًا ماديًا عليهما، كما أنهما كانتا تنعمان بمعيشة مترفة، لذا لم يكن هناك حاجة مُلِحة لعمل ديمة واكتفت أن تشغل بعض وقتها بالعمل في أحد معامل التحاليل بمدينة السادس من أكتوبر، أحمد إسماعيل لم يكن طريقه مفروشًا بالورود مثلما الحال مع مرام أو ديمة، فهو من أسرة متوسطة لم تستطع فتح كافة الأبواب له، وإنما كل ما كان في الإمكان هو النصح والإرشاد، وقد أحسن استخدامهما وشق طريقه بكل اجتهاد حتى عَمِل في مستشفى خاص بقسم المخ والأعصاب.

****

أسوان ٢٠١١/١/١٦ استيقظ المصري صباحًا يفتح التلفاز في اهتمام، كان يقلب في القنوات حتى وصل إلى القناة الإخبارية، ترك التلفاز ليسمع الأخبار وهو يبدأ في إعداد إفطاره، ليخرج من بعدها مازن من الحمام.

- «أعلمت ما حدث؟»

أزاح مازن المنشفة عن وجهه وأجاب في انتباه: «ما الذي حدث؟»

رد المصري مازحًا: «زين العابدين، لقد ترك لهم البلاد وهرب».

ابتسم مازن وقال ساخرًا: «آخر ما كنا نتوقعه، أن نستيقظ صباحًا لنجد رئيس دولة قد هرب».

المصري: «هل كنت تتابع أحداث الثورة التونسية؟»

مازن: «نعم، سمعت بعض الأخبار بشكل متقطع منذ أن قام أحد المواطنين التونسيين بحرق نفسه».

المصري: «نعم، صحيح، إنه محمد البوعزيزي».

مازن: «أتمنى أن يصيبنا الداء ونثور نحن أيضًا، على الأقل من أجل كرامتنا!»

نظر إليه محمد المصري باهتمام ورد ضاحكًا: «على رسلك، اهدأ قليلًا، فلا تنس نحن هاربان من المجهول».

مازحه مازن قائلًا: «ألست أنت الصحفي وتضع يدك على أشياء أكثر من أي مواطن عادي، وترى وتعلم أكثر مما يعلمه أي شخص آخر! أم أن الأوضاع قد تبدلت وأنت الآن الذي يخاف؟»

عَلَت ضحكات المصري وأجاب بحكمة: «الأمر ليس كذلك يا صديقي، ربما أنا أعلم بشأن ما يحدث في البلاد أكثر من أي مواطن عادي كما تقول، ولكن عليك أن تتعلم متى تلتزم الصمت ومتى تتكلم وتنفجر بما في داخلك، تحديدًا ونحن هاربان فلا نريد إثارة البلبلة».

ابتسم مازن وأضاق عينيه مجيبًا: «لا تتحجج بما نحن فيه».
أجاب المصري سريعًا في ذهول بمزاح: «أنسيت كيف جئنا إلى هنا؟ ولما نحن هنا! أليس ذلك كله بسبب تلك القنبلة الموقوتة التي لديك؟! فلا أستبعد أنه في خلال يومين وأجد الشعب المصري بكل طوائفه يسعى خلفنا».
ضحك مازن من مزاح صديقه وأجاب مستمرًا في المزاح: «أحب أن أطمئنك أكثر يا صديقي أنه لن تسعى خلفنا مصر فقط فنحن نتكلم عن شيء دولي فالاحتمال الأكبر يقول أننا ربما نجد أنفسنا غدًا على قائمة المطلوبين دوليًا».
المصري في ذهول: «الله أكبر! ولكن أخبرني ما سر ذلك الهدوء الذي تتحدث به؟! ألست أنت من جاء إليَّ خائفًا حين حدث ما حدث».
مازن: «لم أكن مستوعبًا للأمر بعد، فبالتأكيد أنا لا أتعرض لتلك المواقف كل يوم ولم أقم بدور الهارب سابقًا».
عَلَت ضحكات محمد ورد في لهجة حذرة: «كان الله في عوننا، فنحن لا ندري ماذا سوف يحدث في المستقبل، فلا ندري ربما نحن مراقبان ولا نعلم!»
بدأت تتبدل ملامح مازن من الضحك إلى الجدية وانتبه لأمر ما في كلام صديقه، ثم على الفور أمسك بهاتفه الجوال ليكسر شريحته ويزيل عنه البطارية، كما طلب نفس الشيء من محمد.
أفزعته تلك النبرة المريبة التي تحدث بها صديقه، ونفذ ما قاله في ذهولٍ سائلًا: «يمكن تعقبنا عن طريق شبكات الجوال، صحيح؟»
مازن: «بالطبع، هل استقبلت أي اتصالات أو قمت بعمل اتصالات منذ أن جئنا؟»
جاوبه محمد في فزع: «بالفعل! هاتفت أحد أصدقائي بالصحيفة لكي

يتولى أمر الملفات التابعة لي هناك، حدث ذلك في اليوم التالي لمجيئنا».
صمت مازن قليلًا ملتقطًا أنفاسه وأجاب باطمئنان: «لا أعتقد في خلال ذلك الوقت أن يكونوا قد تعرفوا على هويتك لكي يتعقبوا هاتفك، لا تقلق».
أجاب محمد بلهجة حانية: «مازن أنت تعلم أنني أمزح قليلًا في مسألة خوفي الزائد عن حده، ولكنك تعلم أيضًا أنني معك ولن أتخلى عنك تحت أي ظرفٍ كان».
ترامت الأحضان ليؤازر كلٌ منهما الآخر في تلك الشدة وكأنه يقول للآخر: «لا تقلق أنا بجانبك».

****

عَمّت حالة من الترقب للوضع في البلاد وأصبح هناك بوادر انفجار بركان، البعض لم يتوقعه أبدًا، كما لم يَكُن يتوقع أي مواطن تونسي أن يرحل بن علي بعد أكثر من عشرين عامًا على حكمه الذي اتفق واختلف عليه الكثيرون، كذلك كانت الأصداء في مصر حين دعت بعض الحركات الثورية لنزول الشوارع في يوم الخامس والعشرين من يناير وهو يوم عيد الشرطة.
هناك البعض مثل مازن يشككون في جرأة الشارع المصري أن يقوم بثورة حقيقية على الظلم، وهناك من يعتقد أنها ربما طاقة أمل وعليهم أن يتفاءلوا، وهناك من هو قريب من المطبخ السياسي لكي يتحسس نبض الشارع والحكومة في آنٍ واحد مثل محمد المصري، الذي جاءت إليه الأخبار من أصدقائه في الصحف المصرية أن التحذيرات شديدة اللهجة هذه المرة، فالإعداد جيد كما أن الظروف مؤاتية ولن يستطيع إنسان أن يتحمل مثلما تحمل المواطن المصري على مدار ٣٠ عام في حكم مبارك، كما أن الحافز موجود، وهو نجاح الثورة التونسية.

لم تكن أسوان هي المكان المناسب لتلمس الأوضاع جيدًا فهي مدينة سياحية في أقصى جنوب مصر، لذلك أصداء الأحداث في القاهرة لم تكن قوية وبعيدة كبعد المدينتين البالغ أكثر من ٨٠٠ كيلو مترًا، ولذلك توجه الرفيقان إلى القاهرة في بيت الأسرة قائلين للأهل أنهما جاءا لقضاء إجازة سريعة.

مفاجأة جميلة وغير متوقعة، ولكن لم تستطع ميار بلع الطعم فهي تعلم شقيقها جيدًا، «على أي حال سوف أعرف ماذا هناك عاجلًا أو آجلًا»، محدثة نفسها. وما هي إلا بضعة أيام وبدأ البركان يغلي، لبى النداء كل مواطن مصري مقتنع أنه لم يَعُد الصمت مجزي، ولم يَعُد للصبر من متسع وفك أكمام فوهته ليصرخ قائلًا: «ارحل»، تلك الكلمة التي هزت قلوب الكثيرين على مدار ثلاثة أيام متتالية من الصراعات في الشوارع، لتحدث سلسلة اعتقالات كبيرة في تلك الفترة كما تم استدعاء البعض أيضًا، من بينهم مازن!

أسرته تعلم جيدًا لماذا جاء الاستدعاء، فمازن كان مشاغبًا سابقًا، كما تم اعتقاله، هذا الأمر الذي على علم به جميعهم وإنما محمد المصري يعلم ما لا يعلمون جميعًا، وهو قصة هروبهما الدرامية من الخليج، ولذلك ما أن سمع الخبر حتى فزع وجاءت الومضة الأولى لأسباب الاستدعاء هو أن يكون كُشف أمر مازن، وسوف يتم القبض عليه وتسليمه لتلك الجهات التي تجول البلدان خلفه.

حين دخل مازن إلى مكتب الضابط بدا وكأنه يعرفه، وعندما حدق النظر عَلِمَ أنه الضابط الذي كان يحقق معه سابقًا عندما تم اعتقاله، وبدأ حوار حذر بينهما.

الضابط في هدوء: «هل تعرفني؟»

مازن بكل ثقة: «لا».
رد الضابط بخبثٍ قائلًا: «ولكني أعرفك جيدًا، فأنت مازن زيدان».
ابتسم مازن ورد باستهزاء: «وما المشكلة في كوني مازن زيدان؟!»
حاول الضابط أن يحافظ على هدوئه ورد مسترجعًا التاريخ: «منذ عشر سنين كنت معتقلًا، ولكن ها أنت ذا اليوم ووجدت لك ملاذًا للهرب خارج البلاد».
تجاهل مازن كلامه المستفز ودخل في صلب الموضوع: «حسنًا، وما المطلوب مني؟ ما الأمر؟»
بدا للضابط وأن خطته قد نجحت في استفزاز مازن واستمر في حديثه قائلًا: «ألا تدري ما الذي يحدث حقًا؟! معذرة نسيت أنك تعيش في الخارج، دعني أخبرك، هناك أقلية ترغب في تدمير البلاد، وقد ظنوا أن بإمكانهم ذلك نظرًا لنفوذهم ودعمهم الخارجي، يعتقدون أنهم أدهى من الحكومة».
كم أضحكته هذه الكلمة ورد باستهزاء: «إذا كنت ترى نفسك ذكيًا بهذا القدر لماذا هم يزالون في الخارج يعيثون في الأرض فسادًا بحسب قولك؟ أم أنكم تودون أن تستعينوا بالعلماء للمساعدة؟ رغم أني لا أعتقد ذلك».
الضابط: «ولما لا؟ ولكن ليس كل العلماء فبينهم الخونة وسوف نسقطهم قريبًا».
قاطعه مازن على الفور وهَب واقفًا عازم على أن يترك ذلك الحوار الهزلي: «التزم حدودك حين تتحدث إليّ، أنت لا تدري من أكون وأنا لست متهم لكي يتم التحقيق معي، وقد قبلت دعوة الاستدعاء تعاونًا مني وظنًا أنه ربما يتحسن الوضع، ولكن حقًا أنتم غائصون في غروركم، وسوف تحصدون ما زرعتم عما قريب، وكن على علم، أنا أعرفك جيدًا

منذ اللحظة الأولى، وإياك أن تحاول إلصاق التهم الزائفة لشخص من أعظم علماء العالم، فوقتها تكون قد فتحت على نفسك أبواب الجحيم».

****

لم تتساءل أسرته كثيرًا بشأن التحقيقات معه، فهم يعلمون أنه تم اعتقاله سابقًا ويعلمون أن الحالة الأمنية في البلد تستوجب استدعاءه لدواعي أمنية، ولكن ما أن انفرد محمد بصديقه حتى بدأ سيلًا من الاستفسارات حول الأمر.

- «صدقني لقد حكيت ما حدث بالضبط أثناء حديثي عن الأمر مع الأسرة، لم أختذل شيء».

أجابه محمد وهو في حالة ذعر وفزع رهيبين: «لنفترض أن الحكومة المصرية ليس لها شأن من الأساس، وأن من يبحث عنك جميعهم من خارج مصر، أتظن أن هؤلاء الناس ليس لهم أتباعهم في مصر؟!»

أجاب مازن على الفور: «بالطبع لديهم أتباع في أنحاء العالم ليس في مصر فقط، ولكن من العسير أن يصلوا إلينا في خلال أسبوعين فقط، خاصة وأن الهواتف مغلقة، ولم نأت إلى مصر في رحلة سفر مباشرة»، ثم استكمل مازحًا ليهدئ من روعه: «كان ينقصنا فقط أن نتوارى في حقائبنا لكي نصبح غير مرئيين».

مزاح مازن لم يصنع الفارق وإنما استمر محمد في فرضياته المتشائمة: «ألا تضع في حساباتك تلك حالة الفوضى التي تعم البلاد؟! إنه الوقت المناسب لقاطعي الطرق والشبيحة، وبالطبع هؤلاء هم أداة لأناس لهم أغراض سيئة، مثلهم مثل من يبحثون عنك ويتقفون أثرك».

أجاب مازن يائسًا: «حسنًا، لديك كامل الحق، إليك الوضع، أنا لا أبالي بشيء سوى فكرة المفاعل والأبحاث، لا بد أن تصل إلى أيدي أمينة وتدخل حيز التجربة والتنفيذ، إذا حدث ذلك وقتها فقط لن يستطيع

أحد المساس بنا».
محمد: «وماذا عن ذلك الرجل الذي كنت تحاول الاتصال به، ما زال هاتفه مغلق؟»
أجاب مازن في خيبة أمل: «بكل أسف».
أخذ محمد نفسًا عميقًا ثم رد قائلًا: «حسنًا، على أي حال لا بد أن نرحل من هنا؛ لكيلا تتورط الأسرة معنا ولا يطالهم الأذى».
كان يتوجب سفرهم على الفور، مثلما قال محمد لكيلا يطال الأذى أفراد الأسرة، ولكن منعتهما الأحداث المتتابعة في مصر، والتي وصلت ذروتها في يوم الثامن والعشرين من يناير.
جمعة الغضب يوم لا يمكن أن يُمحى من ذاكرة أي مصري، فهي أول ثورة حقيقية منذ زمن بعيد، ليخرج بها الملايين في شتى بقاع مصر، لقد وصل البركان لقمة غليانة لذلك لم يتبق شيء سوى الانفجار، ذلك اليوم كان متوقع ولكن متى، لم يكن أحد يعلم، فقد حَرَّكت العناية الإلهية صوت كل مظلوم، لكي تمتلئ الشوارع والميادين ثائرين لكرامتهم وحقهم المسلوب منذ سنين، فقد كان اليوم الذي لم تستطع أن تحتويه قوات الشرطة مثل ما حدث منذ يوم ٢٥ يناير، فجميعها كانت تظاهرات قوية، ولكن لم ترتقي الحشود لذلك الحشد الذي تجمهر في شوارع مصر، تحديدًا ميدان التحرير بالقاهرة، في يوم ٢٨ يناير، لم تستطع الشرطة المصرية الصمود أمام غضب الشعب الباطش، فربما تمادى البعض بحرق مقرات الشرطة ولكن ما كان ذلك ليكون إلا بسبب ما كان بداخل كل مواطن عاش محني الظهر لفترة طويلة، وبسبب تلك الأحداث كان هناك العديد من الضحايا والمصابين، كما تم حرق مقرات الحزب الوطني -الحزب الحاكم في مصر- بأغلب محافظات مصر وتم إصدار قرار بحظر التجوال، حتى أغلقت السبل لدى مازن ومحمد أن

يخرجا من المنزل في تلك الفترة وبات وضعهما مجهول.

****

- «السلام عليكم! دكتور سليمان؟»

أجاب بصوت مرتفع: «نعم، من يريده؟»

تعجب مازن قليلًا: «دكتور سليمان هذا مازن زيدان يحدثك! لقد حدثتك دكتورة كندة بشأني، أليس كذلك؟»

أجاب سليمان وهو على عجلة من أمره: «حسنًا، حسنًا، بإمكانك أن تحدثني في وقت آخر، أنا الآن مشغول».

تعجب مازن أكثر من ذلك المجنون الذي يتحدث معه وأجاب رافعًا حاجبيه في اندهاش: «أنا أحاول الوصول إليك منذ أكثر من ٢٠ يومًا، الأمر لا يحتمل الانتظار مرة أخرى، فقط أخبرني أين أنت وأنا آتٍ إليك».

أجاب سليمان سريعًا: «حسنًا إذًا، أنا موجود في السعودية بمدينة الرياض، اكتب العنوان ... أمامك الفرصة خلال ٥ أيام، لأنه لن تطول إقامتي هنا». وأغلق الهاتف سريعًا!

نظر مازن إلى محمد في عجب من أمره لذلك الرجل الذي لا يستطيع وصفه غير بأنه مجنون، وقال لصديقه سائلًا: «أتعتقد أنني سوف أكون بمثل هذا الجنون عندما أبلغ من العمر أرزله مثل دكتور سليمان؟!»

أجاب محمد ضاحكًا: «أنت بالفعل مجنون، لا تحتاج أن تبلغ من العمر أرزله»

ثم أكمل: «أخبرني، إلام آلت الأمور؟»

انتهيا من مزاحهما وأجاب مازن ملتقطًا أنفاسه بلهجة جادة: «علينا العودة إلى السعودية».

****

فيما جاءا وفيما ذهبا! هكذا كانت تتساءل عيون لمياء وأسرة مازن! وكل ما كان يحدث كان يؤكد شكوك ميار أن شقيقها يخفي شيئًا ما بالاتفاق مع صديقه، كانت تأمل ألا يكون الأمر خطيرًا ولكن وضعهما كان يوحي لها بالعكس تمامًا، فجلساتهما تلك الجانبية، وهمساتهما فيما بينهما وذلك الاتصال المتكرر من مازن، الذي كان يقوم به وينتهي دون إجابة، حتى فُتح الخط بينه وبين ذلك المفقود -دكتور سليمان- كل ذلك كان يحملها على تصديق أن زيارتهما ليست مجرد إجازة ولا زيارة عادية، ولا حتى أن وضعهما طبيعي، بالتأكيد هناك شيء ما!

*****

٢-الحيلة.

منذ لحظة وصولهما الأولى لأراضي المملكة السعودية كان الرعب يتملكهما ذلك لأن محمد كان يعمل هناك، خائفان أن يكون من يبحث عنهما قد توصل لمكان عمل محمد وبذلك يكونوا قد اقتربوا منهما، ولذلك لم يرغبا في النزول بأحد الفنادق المعروفة، وإنما بحثا على نُزُلٍ متواضع لكي يسكنا فيه مدة إقامتهما آملين ألا تطول المدة، لكن آمالهما تحطمت عندما علما أن دكتور سليمان قد غادر السعودية لظروف طارئة تطلبت وجوده في إنجلترا، بالرغم من أنهما وصلا قبل انتهاء مدة الخمسة أيام التي حددها سليمان، ولذلك عاود مازن الاتصال به، وقال له سليمان أن ينتظر ٥ أيام ربما يعود، وبعد انتهاء المدة يعاود الاتصال به مرة أخرى لكي يعرف ماذا يتوجب عليه أن يفعل.
قال له المصري بشيء من الغضب: «ماذا الآن؟ أسوف ننتظره مرة أخرى!»

سكت مازن قليلًا ثم نظر إلى صديقه بابتسامة قائلًا في مزاح: «لماذا أشعر أنني أعيق برنامجك السياحي للعطلة التي تنوي قضاءها في جزيرة هاواي!»

ضحك المصري وأجابه ذاهبًا إلى المطبخ: «الأمر ليس كذلك، ولكن أنا أود أن أتخلص من شعوري بالقلق، أود أن أغمض عيني وأفتحهما لأجد أن الأمر قد انتهى تمامًا».

أجاب مازن شاخص البصر: «ما أسهل الحياة لو أن كل الأمور كانت كذلك، في غمضة عين»، ثم أفاق سريعًا من نظرته الحالمة وأكمل: «ولكن أنت تعلم أن الأمر يلزمه النفس الطويل».

اكتفى محمد المصري بأن يلتقط أنفاسه استعدادًا لحبسها وادخارها لما هو قادم.

حاول الرفيقان أن يمضيا بعض الأيام في هدوء بعيدًا عن ضغط الأعصاب في محاولة لتجاهل الوضع المجهول، الذي لا يعلمان متى ينتهي ومتى يضاء لهما الطريق ويكشف لهما خباياه، ليأتي اتصال مازن بدكتور سليمان مرة أخرى كما طلب منه.

بصوت مرتفع: «من المتكلم؟»

تعجب مازن وأجاب خائفًا أن يكون قد نساه: «هذا مازن زيدان يا دكتور! ألا تذكرني؟ الكيمياء؟»

دكتور سليمان: «نعم، نعم، تذكرتك، حسنًا أنا لا يمكنني أن آتي هذه الفترة على الإطلاق».

تفاجأ مازن وكان واضعًا أمل كبير على هذا الاتصال أن يأتي مثمرًا، ولكنه حاول إحياء آماله من جديد: «حسنًا، ألا يمكننا أن نلتقي في أقرب مكان إليك؟»

أجابه سليمان بشيء من المزاح: «كيف ذلك؟! حسنًا لنتقابل غدًا في

قبرص، فهي المنطقة الوسط بين السعودية وإنجلترا! يا بني هل جننت؟! أقول لك لا يمكنني العودة حاليًا، أرتبط بكثير من الأعمال هنا في لندن».
ابتسم مازن وأدرك أنه هناك مجال للحوار بينهما لعله يتفهم الوضع:
«يا دكتور كل ما في الأمر أنني على عجلة من أمري، كما أنه من الواضح أنك تسافر كثيرًا، فإذا كان بالإمكان أن نتقابل في مصر إذا كنت هناك عما قريب؟»
بدأ سليمان يتلمس حاجة ذلك الفتى لمقابلته، وحاول أن يحل الأمر معه على طريقته: «حسنًا، إليك حل بديل، كنت أتحدث مع دكتور كندة، وأخبرتني أنها في فلسطين منذ أمس، وأخبرتني أنها سوف تظل هناك لمدة أسبوع على الأقل، بإمكانك الذهاب إليها، أعذرني يا بني يجب أن أنهي المكالمة».
قطع الخط بينهما ولم يكن مازن أفضل حالًا، وإنما بدا مندهشًا لهذا الرجل العجيب الذي لتوه أنهى حواره معه! كما تعجب لتعقيد الأمر أكثر، فهو بالكاد تكون تحركاته محسوبة فكيف بإمكانه أن يسافر إلى فلسطين! فهو يذكر جيدًا أن بيلي له أصول إسرائيلية، وله ولاء للصهيونية فكيف يذهب إلى عقر دارهم!

****

- «أنت تريدني أن أفقد عقلي! كيف تذهب إلى هناك؟! هل دكتور سليمان يعي جيدًا ما يقول؟ حقًا هو مجنون».
أجابه مازن وهو مشتت الانتباه: «رويدًا يا صديقي، فهو لا يعلم أيًا من تلك المشكلات التي حدثت معي في قطر، وكذلك دكتورة كندة».
زاد انفعال محمد وأجاب غاضبًا: «لذلك هما لا يباليان بانتظارك ولا بتنقلاتك المتعددة، فهما يعتقدان أنك تعيش حياة طبيعية مثلك كمثل أي شخص عادي، ولا يعرفان أي شيء عن قصة الهروب تلك!»

ساد الصمت قليلًا ليكمل محمد كلامه: «حسنًا، أخبرني كم عدد أفراد ذلك الفريق؟ هل هم دكتور كندة ودكتور سليمان فقط؟ أم أننا ربما نبحث عن أشخاص آخرين؟»

ابتسم مازن وأجاب: «إنهم ثلاثة دكاترة، الثالث دكتور مصطفى زياني».

المصري: «حسنًا، وماذا تنوي أن تفعل الآن؟»

أجابه مازن محاولًا أن يطمئنه ويطمئن نفسه: «علينا ألا نتشائم، فربما بعد أن أتحدث إلى دكتور كندة نتمكن من مقابلتها في أي مكان آخر غير فلسطين».

محمد المصري محذرًا: «يجب ألا ننسى أن عامل الوقت ليس في صالحنا، فكلما زادت فترة إقامتنا هنا كلما كنا في خطر».

ظل طوال اليوم يحاول الاتصال بدكتور كندة حتى العاشرة مساءً، إلا أن المحاولات لم تأتي مثمرة، وتأخر الوقت كثيرًا لكي يعاود الاتصال مجددًا فقام بإرسال رسالة على بريدها الإلكتروني لكي يستغل الوقت، وظل ساهرًا حتى وقت متأخر منتظرًا ردها، ولكنه لم يلق إجابة أيضًا، حتى ذهب في نومه مرهقًا من التفكير، كان يفكر في كل شيء وتأتي الأحداث على خاطره لتحمل في طياتها قليلًا من ذكريات الماضي القريب، ليذكر مرام، وكم كان يود أن تكون بجانبه هذه الأيام، وأخذه التفكير لتلك الأحداث المتلاحقة في مصر بعد تنحي مبارك بعد اعتصام في ميدان التحرير دام ١٨ يوم، هل يخبر أسرته بما يحدث معه؟ وكيف؟ وبالطبع كان يفكر في المشكلة الكبرى التي أضيفت صباح اليوم، وهي كيف سوف يدخل فلسطين إذا تطلب الأمر.

****

في الصباح الباكر استيقظ محمد المصري وتأخر مازن في استيقاظه نظرًا لنومه المتأخر، وقام قرابة الواحدة والنصف ظهرًا، كانت الأجواء ممطرة

بغزارة في مدينة الرياض، لكن هذه الأمطار لم تمنع محمد صاحب الوزن الأكبر والشهية المفتوحة دائمًا أن ينزل لكي يأتي بالإفطار، وحين عودته وجد مازن استيقظ كما قام بإعداد قهوته وجلس يتناولها وهو يفتح حاسبه الشخصي.

- »من الأساليب الخاطئة أن تبدأ يومك بالقهوة دون إفطار«.

أجابه مازن وقد بدا على صوته الإرهاق: »حتى أستفيق فقد تأخرت في نومي«.

محمد: »وما الذي جعلك تنام في وقت متأخر؟«

أجابه مازن وهو يطالع بريده الإلكتروني: »كنت على أمل أن ألقى إجابة من دكتور كندة بالأمس، وها قد جاء الرد«.

»مرحبًا مازن، كيف حالك؟ لقد تحدث إليّ دكتور سليمان بالأمس، وأخبرني عن سفرك إليّ حتى نلتقي وتتحدث بشأن أبحاثك، فيما يخص مدة وجودي هنا فلا تقلق، خُذ ما يكفيك من الوقت ولكنني بحاجة ؛ حتى تستطيع الدخولVIP إلى عنوان ثابت لكي أُرسل إليك بطاقة الـ بشكل آمن وسريع هنا، فيجب أن تكون متأكد تمامًا من العنوان حتى لا تحدث أخطاء في استلام الطرد مما يترتب عليه التأخير ويضيع كثيرًا من الوقت«.

نظر محمد إلى صديقه رافعًا حاجبيه في اندهاش متسائلًا: »ماذا تعني؟! هل أنت ذاهب إلى فلسطين لا مفر؟! وما هي بطاقة الـVIP؟«

أجاب مازن: »إنه مثل تصريح الدخول، فليس بمقدور أي شخص أن يدخل فلسطين إلا إذا كان فلسطيني -ويتم تضيق الخناق على الفلسطينيين أنفسهم- أو يكون إسرائيلي أو أي جنسية غربية غير عربية، أي أننا لا تنطبق علينا المواصفات، ولذلك توجد بطاقة الـVIP وتُستخرج من الجهات الإسرائيلية هناك وهو لغرض مهمة علمية أو

صحفية أو لأحد كبار الشخصيات.
أجاب محمد بهدوء الصمت الذي يسبق العاصفة: «أفهم من كلامك أنه لا مفر من دخول فلسطين وأنه يتوجب عليك السفر هناك؟»
نظر إليه مازن وكأنه ليس بيده حيلة ليكمل محمد قائلًا في غضب: «بالطبع هذا لن يحدث، أتريد أن تسلمهم نفسك! نحن هاربون منهم والآن نوفر عليهم عناء البحث ونذهب إلى ديارهم بأرجلنا!»
ساد الصمت طويلًا وفيما كان مازن أغلب الوقت صامتًا كان يفكر بعمق لدرجة أنه وجد الحل واتخذ القرار وبادر بالتنفيذ على الفور، وهمَّ بحزم حقائبه ليعود إلى مصر مرة أخرى.
- «أجننت، هلا تخبرني ماذا نفعل الآن؟»
توقف مازن عن حزم أمتعته ورد بثقة: «هي ربما خطوة جريئة وبها كثير من المخاطر، ولكنها سوف تفيدنا بكثير من الوقت وهدوء البال».
ذُهل صديقه من الجرأة التي يتحدث بها ومدى ثقته في كونه سوف يكون في أمان إذا سافر إلى فلسطين وقال متعجبًا: «عن أي شيء تتحدث! وما هي تلك الخطوة؟ أتريد حقًا الذهاب هناك!»
استمر مازن في ردوده الواثقة قائلًا: «لعله آخر مكان متوقع أن أكون فيه هو أن أكون في عقر دارهم، لذا سوف نكسب كثيرًا من الوقت إذا كنت هناك حالما نقنن وضعنا ونفكر جيدًا بشأن خطوات تجربة وتنفيذ تلك الأبحاث التي أملكها».
المصري في ذهول: «لم أكن أتوقع أنك بتلك السذاجة! يا صديقي أنت تقول إن هذه البطاقة سوف تستخرج من داخل إسرائيل من قِبل حكومتهم، لذا بمجرد أن تتقدم دكتور كندة بطلبها للحصول على هذه البطاقة باسمك سوف تكون هي شخصيًا في خطر، وسوف ينتظرون وصولك على أحر من الجمر».

ابتسم مازن بثقة جعلت محمد في ذهول أكثر ثم رد عليه ضاحكًا: «هذا صحيح سوف نضع دكتور كندة في خطر، ولكن هم ليسوا بحاجة إليها لكي يصيبوها بأذى طالما أنهم يعلمون أنني قادم، فقط سوف توضع تحت المراقبة حالما أصل أنا إلى هناك، أما بالنسبة لكونهم سوف ينتظروني فهذا سوف يحدث في حالة ذهبت أنا إلى هناك، ولكن من سيذهب شخصٌ آخر».

حقًا سوف يُصاب بالجنون مما يسمع ثم سأله محمد مندهشًا: «وكيف سوف تقابل دكتور كندة وأنت هنا؟ أو في مصر!»

ضحك مازن بصوتٍ عالٍ قائلًا: «سوف أقابل دكتور كندة، وفي إسرائيل»، ثم أكمل مبتسمًا: «سوف تعرف كل شيء عندما نصل مصر».

****

في تمام الساعة السابعة صباحًا من يوم ١٥ فبراير حَطَّت الطائرة القادمة من الرياض إلى القاهرة، ولم يَكُن هناك الكثير من الوقت للتفكير والتخطيط لماهية أسباب رجوع مازن ومحمد إلى مصر، فبالتأكيد سوف تثار الشكوك حولهما، ولأنه لا يوجد لديهما كثير من الوقت ذهبا مباشرةً إلى وجهتهما في مدينة الأسكندرية!

- «أخبرني أسوف تستطيع تنفيذ ما طلبته أم أنه في غير مقدورك؟»

أجابه آدم مبتسمًا باندهاش: «بالتأكيد أود مساعدتك، ولكن ليس في مثل هذه الأمور، أنت تعرض نفسك للخطر يا صديقي، كما أنني لا أملك تلك المعدات بعد أن تم نقلي إلى السجل المدني هنا».

أكمل مازن مجيبًا عليه ليضع كل آماله على صديقه: «أنا متأكد أنك تستطيع تدبر الأمر، فلن يصعب عليك أن تفعل ما فعلته سابقًا».

ساد الصمت فيما كان ينظر آدم إلى محمد مندهشًا ولا يعرف ماذا يتوجب عليه أن يفعل وأكمل مازن قائلًا: «أنا أعلم أنها مغامرة كبيرة،

وأن هناك نسبة خطر في الأمر، ولكني واثق من قدراتك يا آدم، كما أنك VIPترى أن حياتي لا تخلو من المخاطر سواء قَبِلت بتزوير بطاقة الـ أم لا، ولكنها فقط طاقة أمل حتى إن كان في الأمر خطورة، ولكن أنا لم أجد أمامي طريق بديل ولم أسلكه».

نظر محمد إلى آدم بنظرة من ليس بيده شيء، فَهُم بالفعل أنه لا يوجد أمامهم سوى أن يقوموا بتزوير اسم مازن إلى اسم آخر لكيلا يتم التعرف عليه هناك.

- «حسنًا، أنا لا أدري ما الوقت الكافي لإنجاز الأمر فيجب أن أرى تلك البطاقة أولًا».

أجابه مازن متحفزًا للأمر: «لا عليك، مجرد أن أحصل على البطاقة سوف نأتي بها إليك».

أكمل آدم مُلقيًا عليه ما يتوجب فعله: «حسنًا، ولكي نكسب الوقت عليك أن تحدد هويتك الجديدة».

قاطعه مازن: «لك ما تريد».

أجاب آدم: «انتظر لم انته بعد، يجب أن تعرف أنه سوف يلزمنا تزوير جواز سفر أيضًا ليكون مطابقًا لاسمك الجديد، وأنني أفضل أن يكون جواز سفر أوروبي».

تدخل محمد مندهشًا: «لماذا؟!»

- «لكيلا تكون هناك عوائق في دخوله وخروجه فيما بعد، خاصة وأنه يحمل الجنسية المصرية، لكي يسافر إلى إسرائيل لا بد من إجراءات شديدة التعقيد ويلزمه تصريح أمني لن يستخرج في التو واللحظة، لذا يتوجب على مازن أن يسافر بأي جنسية أخرى ويفضل أوروبية».

ساد الصمت قليلًا وكان يبدو على مازن التفكير ليضيق عينيه سائلًا: «يبدو لي أن الوضع أكثر سوءًا وربما تضع نفسك في خطر، أسوف

تستيطع تدبر الأمر؟»
عَلَت ضحكات آدم ورد بكل ثقة ليطمئن صديقه: «لا تقلق يا مازن، صدقني الأمر ليس غرورًا، ولكن لدي إمكانيات قد تبهر أقوى المزورين في العالم وبفضل الله أولًا ثم مكانتي في عملي ثانيًا أنا واثق فيما أقول، ولمعلوماتكما ربما يكون تزوير جواز السفر أسهل بكثير من تزوير البطاقة، لأن البطاقة أنا لم أطلع عليها بعد ولا أعلم مواصفاتها، أما جواز السفر فهناك العديد من جوازات السفر التي يسهل تزويرها خاصة دول أوروبا الشرقية».
قال محمد محذرًا وهو يمازح صديقه: «أقولها مرة أخرى تأكيدًا على كلام مازن، لا تتمرس المهنة وانتبه جيدًا».
ابتسم آدم وبدا في كلامه الوازع الديني القوي: «لا تقلق يا صديقي أنا لم أقم بشيء كهذا إلا من أجلكما فقط، كما أنني أعلم بالتأكيد أنكما لا تقومان بهذا من أجل أغراضٍ سيئة وأنه لا ضرر مما نقوم به، وقبل كل ذلك سوف يسألني رب العالمين يوم أن تقوم الساعة وسوف أُجيب بكل فخر أنني ساعدتكما لأنني أعلم أنه ما من خطأ في ذلك، ولذلك لا يسعني استخدام النعمة التي مَنَّ الله عليّ بها في أغراض سيئة أو تضر بالآخرين».
مازن: «أحسنت يا آدم، على أية حال، بإمكانك العمل الآن على جواز السفر ريثما تصل إلينا البطاقة».
انتهيا من تدبير خطواتهم القادمة وساد الصمت قليلًا قبل أن يكسره محمد قائلًا: «لا أصدق أننا سوف نقوم بذلك!»
ابتسم آدم وقال مازحًا: «من أجلك سوف نتمرس الجريمة، أتذكر تلك الكلمة التي قلتها لي حينما قمت بتزوير عضوية الساقية لإسلام؟»
ضحك مازن ورد يقول: «نعم، ولكن إذا لم تثبت جدارتك سابقًا، لما كان

يأتي إليك عميل مثلي، انتظر في الغد القريب سوف يطلبونك في المافيا الإيطالية لكي تنضم إليهم».

****

ظلت سخريتهم من حالهم مستمرة وحين انتهوا بدأ التفكير مرة أخرى في إحدى النقاط الهامة في خطتهم، وهي عنوان المراسلة الذي سوف يكتبه مازن إلى دكتور كندة لكي تُرسل البطاقة في ذلك العنوان، لأنهم يخشون أن يتم تتبع العنوان فيما بعد إن لم يتمكن الإسرائيليون من الإمساك بمازن ويعلموا أنه تم خداعهم، لذلك سوف يكون العنوان هدف بالنسبة لهم للبحث عنه مرة أخرى، ولذلك وبعد مجادلات طويلة في هذا الصدد استقر الجميع على أن يتم كتابة عنوان منزل محمد حيث لا يسكن أحد هناك.

****

- «أخبرني مازن ما الأمر؟»

مازن باندهاش: «عم تتحدثين؟! ماذا أخبرك؟»

ميار: «أخبرني ما سر عودتكم، ثم سفركم المفاجئ، ثم عودتكم مرة أخرى؟ لقد حاولت تصديق الأمر سابقًا، ولكن الآن قد تجاوز الأمر حدود المنطق، وأنا لا أدري كيف صدقتك أمي!»

أجاب مازن بهدوء: «أنت تبالغين يا ميار، ليس هناك من شيء ليُحكى فكما أخبرتكم سابقًا جئت لقضاء عطلة، وسافرت مرة أخرى لحاجتهم إليّ في الشركة لأمرٍ طارئ، ومجرد أن أنهيته عُدت إليكم لاستكمال عطلتي».

ابتسمت ميار ورفعت حاجبيها قائلة: «أتعتقد أنني بهذه السذاجة! أتختار قضاء عطلتك في وقت ليس جيد بالمرة لقضاء عطلة في مصر! أنت تعلم جيدًا كيف الوضع حاليًا وما زلت تقول لي عطلة؟ سوف

أحاول تصديقك، ولكن ما سر التزام محمد معك بعطلتك وسفركما معًا وعودتكما معًا مرة أخرى؟!»

يبدو أن الحجج والأسباب قد فرغت لدى مازن ولم يَعُد لديه شيء ليقوله، وزاد الطين بلة حين دخلت عليهم لمياء.

نظرت إلى مازن كمن يحاول قراءة عينيه التي تفضحه حينما يكذب وسألته باستعطاف: «رجاءً أخبرني؟ أنا أعلم أن هناك أمرًا ما، محمد ليس على طبيعته ودائمًا متوتر».

ابتسم مازن وقد قرر ألا يكذب عليهما وبدأ يقول لهما الحقيقة محاولًا أن يطمئنهما: «لا داع للذعر، الأمور حتى الآن تسير في الاتجاه الصحيح، ومجرد أن ألتقي بدكتور كندة سوف نكون قد قطعنا مسافة كبيرة من أجل أن نتخلص من تلك المطاردات».

استمعتا ميار ولمياء لمغامرته من قطر للسعودية إلى مصر وكأنهما تستمعان لأحداث فيلمٍ سينمائي، فلم تفارق الدهشة عيوناهما وخلق حديثه العديد من التساؤلات حول قصة الهروب المستمرة تلك، ثم تابع مازن كلامه لهما محذرًا: «رجاءً ليس هناك داع أن يعرف أبي وأمي، فلا نريد أن نبث في قلبيهما الرعب، وخاصة أنك تعلمين يا ميار أن أمي تخاف كثيرًا علينا من أي مكروه».

أجابته مندهشة: «وكيف لك أن تتركها دون أن تعلم عن الأمر شيء وأنت ذاهب إلى المجهول؟! الأمر ليس هينًا يا مازن».

انفعل مازن قليلًا ليجيب بحدة: «حسنًا، ماذا كان يتوجب عليّ أن أفعل؟ هل أترك لهم الأبحاث بكل بساطة؟! أم كان يتوجب عليّ أن أستمر في عملي هناك وأساعدهم في تحقيق مبتاغهم!»

ساد الصمت قليلًا حتى انضم إليهم محمد حين دخل إلى الغرفة محدقًا إلى عيونهم متسائلًا عما يحدث، ليكمل مازن قائلًا: «ما أنا فيه الآن

ليس باختياري وإنما أنا مجبر على الهروب، ولا أريد أن أفزع أحدًا بشأن تلك الأمور؛ لذلك لم أكن أريد لأحدٍ أن يعلم بأي شيء، ولكن إصرارك خَيَل لي أنه ربما قد تتحملين المسؤولية وتحسني حفظ المعلومة، رجاءً ميار ولمياء، لا يتوجب أن يعرف أبي وأمي، وأنا سوف أخبرهما في الوقت المناسب».

أنهى مازن كلماته بعد إقناعهما بوجهة نظره وانفض المجلس في صمت، لمياء وميار لم تستفيقا بعد من هول الأمر، ومحمد يخشى ما هو قادم بعد أن علمت ميار وشقيقته، فهو بكل المقاييس لم يكن يرغب في أن يعلم أحد بتلك الأمور لكيلا يتورط معهما، لكن ها هما قد علمتا ولا يدري ربما هي البداية لما هو أسوأ!

- «مساء الخير مازن».

مازن: «مرحبًا آدم، كيف تسير الأمور معك؟»

آدم: «لقد انتهيت من جواز السفر».

مازن: «ممتاز، وأنا قد حدثتني دكتور كندة أنه ربما تصل البطاقة غدًا أو بعد غد إن شاء الله، مجرد أن أتحصل عليها سوف آتي إليك».

****

٣-أقدام متعثرة.

- »حسنًا سيدي، تفضل، التالي«.
- »شكرًا«.
في وقت متأخر من ليل يوم الثاني والعشرين من فبراير خرج آدم راجكوفيتش -أو مازن- من مطار تل أبيب، مرتديًا غطاء رأس من الصوف وتيشيرت رمادي اللون وجاكيت أسود وبنطال جينز، ويَلُف حول عُنقه حبلًا تتدلى منه كاميرا ليبدو وكأنه مُصور صحفي، وبفضل يُسِّرَت له كل الأمور ليدخل البلاد في أمان. VIPبطاقة الـ
بحث عن نُزُل صغير ليقيم فيه لحين العثور على طريقة مناسبة للتواصل مع دكتور كندة، فهو يعلم تمامًا أن هاتفها مراقب، ولن يَسهُل أمر لقائهما، ولكنه تجاوز الأمر تاركًا لنفسه قليلًا من الدقائق ليلتقط أنفاسه بعد رحلة شاقة ويؤجل قليلًا التفكير فيما هو قادم من صعوبات.
- »مرحبًا آدم«.
أجاب آدم في اندهاش: »مازن! هل وصلت؟«
مازن: »نعم، لا تقلق، فقد يسرت كافة الأمور بفضل البطاقة والجواز الصربي المزور«.
سأله آدم في حذر: »وكيف تتحدث إليّ؟ من المتوقع أن الهاتف مراقب؟!«
مازن في هدوء وصوت مرهق: »لا، لا تقلق، أنا أستطيع تأمين الاتصال جيدًا«.
سأله آدم ضاحكًا: »أنا لا أدري كيف اقتنعوا بأن آدم راجكوفيتش

مواطن صربي».
ضحك مازن بهدوء قائلًا: «الفضل يعود لأدوات التنكر، شكرًا لك يا صديقي، لم تُقَصِر في شيء».
أجابه آدم بلهجة تحذيرية: «كن حَذِر في خطواتك داخل البلاد، وابتعد عن المشاكل ولا تلفت الانتباه».
مازن: «لا تقلق، ولكن أريد منك أمرًا آخر، عليك بمتابعة بريدي الإلكتروني لمعرفة ما إذ أرسلت دكتور كندة أي رسالة أم لا».
آدم: «ألا تستطيع الولوج لبريدك الإلكتروني؟»
أجابه مازن بيقين: «لا بالعكس، ولكني متأكد أنه بمقدورهم أن يتجسسوا على البريد الإلكتروني وأود أن يعلموا أنه يُفتح من مصر».
قاطعه آدم وكان قد قرأ أفكار صديقه: «لكي يعلموا أنك ما زلت في مصر، حسنًا لقد فهمت، «ولكن إذا وجدت رسالة من دكتور كندة! كيف سوف أخبرك؟»
مازن: «لا تقلق، سوف أتابعك بالاتصال يوميًا».
كان يحاول أن يتخذ كافة إجراءات الحيطة والحذر حتى وإن كلفه الأمر مزيدًا من الوقت، ولكن في مثل موقعه لا بد أن يحسب خطواته جيدًا، توجه صوب الفراش ليضع نفسه جثة هامدة ليأخذ قسطًا من الراحة. ليعاود الاستيقاظ قرابة الساعة الواحدة ظهرًا بتوقيت القدس، استيقظ في كامل وعيه، يقظًا لدرجة أنه مدرك تمامًا أنه في فلسطين ولا يفصله عن القدس سوى مسافة ٨٠ كيلو مترًا تقريبًا، ولولا أنه مستوعب تمامًا للأمر لما صدق ذلك، بدأ بإعداد الإفطار ثم أخذ هاتفه الجوال يتصل بآدم عازمًا أن يُملي عليه رسالة لكي يرسلها إلى دكتور كندة، ليجد صديقه يخبره أنها أرسلت تخبره أنها موجودة في غزة، وعليه أن يخبرها حين وصوله إلى فلسطين».

أي تواصل معها ربما يهددهما ويضعهما في خطر لأنه يعلم أنها تحت المراقبة وربما يتم التجسس على بريدها الإلكتروني، لذا ليس في مقدوره أن يخبرها بوجوده بشكل مباشر ولكن على الأقل هو يعلم بمكانها الآن، وبإمكانه أن يذهب هو إليها، ولكن كيف؟!

لم يكن الأمر واضح بعد بشأن ماهية السُبُل المتاحة لكي يذهب إلى هناك، ولكنها كانت أخبار جيدة وتُعَد خطوة في طريقه إليها، هذا ما دفعه للخروج قليلًا سائرًا في شوارع تل أبيب، مستغلًا كونه مصور صحفي.

اتجه صوب الشاطي يتحسس رمال المدينة، فهو يرتبط أكثر بطبيعة المكان أكثر من حضارته الزائفة التي بناها بنو صهيون، وأخذ يتجول من شاطئ إلى آخر، يلتقط صور لكل ما هو جميل وملفت للانتباه، الموج، الفتيات، المحجبات منهن وهن جالسات على الشاطئ، والعاريات منهن استعدادًا لنزول البحر -وقلما وجدهن نظرًا لبرودة الجو- كانوا على الأغلب أوروبيون، وأثناء التقاطه لتلك الصور تقدمت نحوه فتاة تتحدث العبرية وتسأله: «ماذا تفعل؟» لم يستوعب مازن ورفع كتفيه غير مستوعب لما تقوله الفتاة ثم سألها باللغة الإنجليزية: «معذرة، أنا لا أتحدث العبرية».

أكملت حديثها معه مُعلنةً أنها تتحدث العربية والإنجليزية.

لم يتفاجأ مازن فكانت تبدو له ملامحها شرقية بعض الشيء ليرد عليها باللغة العربية: «لا بأس إنجليزية أو العربية فأنا أيضًا أتحدث كلا اللغتين».

فاجأها حديثه العربية بطلاقة نظرًا لملامحه التي توحي بأنه ليس عربيًا بفضل شعره الأصفر المستعار، وأجابته مبتسمة باندهاش: «أأنت عربي؟»

عَلِمَ مازن أنها تود محادثته ولم يَكُن حديثها عابرًا، ومن جانبه وَدَّ أن يعمق علاقته بها ربما يحتاج إليها، واستطاع سريعًا اختلاق قصة شخص آخر ليجيبها: «تقريبًا، فوالدتي لبنانية ولكني من صربيا».
أجابته مستمرة في ابتسامتها الودودة: «أعتقد أنه خليط معقد بعض الشيء، ولكن أخبرني ماذا كنت تفعل؟ هل كنت تقوم بتصويري؟»
ظن مازن في البداية أنه وقع في المشاكل وأن الفتاة ربما تستدعي له الشرطة لأنه ينتهك خصوصيتها، ولكنه سريعًا أدرك لهجة الفتاة التي توحي بأنها تحاول التودد إليه وخلق حديث: «أنا أعمل مُصَور فوتوغرافيا، مناظر طبيعية، أو ربما بعض الأحداث التي تقع في مكان وجودي».
الفتاة: «إذًا أنت هنا من أجل العمل؟»
أومأ مازن بوجهه نافيًا ثم قال: «ليس ضروريًا فأنا أعمل بالقطعة لأكثر من جريدة، صحف أوروبية ومواقع إلكترونية».
بدأت تتطرق الفتاة لموضوع آخر وسألته بجرأة: «وهل جزء من عملك أن تلتقط صور لي وأنا بملابس السباحة؟»
أدرك مازن بأنها تراوده عن نفسها ثم قال بتهذب: «أنت جزء من الطبيعة، حين أرى فتاة بذلك الجمال، ولكني أعتذر إن كنت قد انتهكت خصوصيتك!»
سارعت الفتاة وقاطعته وهي تقترب منه لتلكزه في صدره: «لا ليس هناك أي مشكلة، شكرًا لمجاملتك، أنت شاب لطيف». لقد لاقى استحسانها ورد عليها سائلها أن يشاركها بعض الوقت الممتع على الشاطئ، فأخذته ليسيرا قليلًا على الشاطئ لتحكي له عن نفسها، تُدعى عاليا وهي خليط من عدة دول، فتعود أصولها إلى أوكرانيا نسبة إلى والدتها اليهودية، حيث ذهبت إلى لبنان في صغرها من أجل العمل، ثم

تزوجت من سوري وتوفي في هرمه لتنتقل هي وعاليا إلى إسرائيل، حتى انخرطت ابنتها مع المجتمع الإسرائيلي طيلة عشرة أعوام وهي تبلغ من العمر ٢٧ عام.

انتهيا من سيرهما على الشاطئ ودَعَتهُ على الغداء في منزلها ولكنه اقترح أن يكون الغداء خارج المنزل أفضل؛ لكي يتسنى له معرفة المدينة أكثر، خاصة وأنها أول زيارة له في تل أبيب، لذلك اقترحت عليه أن يذهبا سويًا لرؤية بعض المناطق الجمالية على المنطقة الحدودية الواقعة مع قطاع غزة.

كان يبدو أن الأمور تأتي في الاتجاه الذي يرغب، فبالتأكيد هي فكرة جيدة ربما تساعده على الذهاب إلى غزة، ولذلك لم يرفض الأمر وذهب كلٌ منهما لتغيير ملابسه، وتبادلا أرقام الهاتف لكي يلتقيا مرة أخرى متجهين إلى غزة التي تَبعُد نحو ٨٧ كيلو مترًا عن تل أبيب، ليصلا إلى الحدود مع قطاع غزة، جلسا على مقدمة السيارة في أحد المرتفعات، مستمتعين بالهدوء الذي يخيم على المكان، كانت عاليا ممسكة بزجاجة من الجعة ثم بدأت تحتسيها رويدًا رويدًا.

- «أخبريني لماذا تركتي بلدك؟ لبنان؟»

نظرت إليه مبتسمة وقد بدا عليها تأثير المشروبات الكحولية: «أنا بلدي أوكرانيا!»

مازن: «ولكن أنت لم تذهبي هناك منذ مدة طويلة، في حين أنك تعلمت وكبرت في لبنان، إنها بلد جميلة لماذا رحلتِ عنها؟»

أجابته باستياء: «وما الذي يجعلني أنتظر هناك؟! أنا ليس لي جنسية عربية».

اندهش مازن قليلًا ليسألها: «أفهم من كلامك أنك غير متمسكة بوجودك هنا! إذًا فلماذا أنت هنا ومن أجل ماذا؟»

أجابت بيأس لتُظهر له معاناتها: «أنا لم أكن راغبة بالعيش هنا، ولكن منذ وفاة والدتي وأنا أشعر أنه لا يسعني أن أكون موجودة سوى بالقرب منها، ليس هناك من شيء يجذبني للعيش هنا، فقط من أجل عملي ولذكرى أمي». بدأت تبكي شيئًا فشيئًا لتضع رأسها على كتف مازن، ومن جانبه لم يكن يعرف كيف يتصرف ولكنه حاول مواساتها لتبدأ عاليا في محاولتها تقبيله، بدا مازن رافضًا للأمر ولكنها تمادت أكثر فأكثر لتُلقي بجسدها عليه، وأنقذه من هذا الموقف رؤيته لفتاة يقارب عمرها العشرين عامًا، كانت تحاول التسلل عبر الحدود لتدخل إلى غزة. منعته عاليا من التوجه للفتاة قائلة: «هذا ليس من شأننا دعك منها الآن!»

أجابها مازن بهمس: «إذا رآها الحرس سوف يقتلونها».

ردت عاليا بغضب: «وإن كان! فهي تجاوزت الحدود مثل اللصوص، فعليها أن تلقى عقابها».

تركها مازن وهو متجه صوب الفتاة وهو يقول: «يجب أن نمنعها حتى وإن كانت لصة، فلا يتحتم قتلها فهي أولًا وأخيرًا إنسانة مثلنا».

جَرَت خلفه لتمنعه واقترحت عليه أن يذهب للفتاة لتأمين طريقها في حين أنها سوف تحاول إلهاء الحرس، وذهبت تتحدث للجنود لتُلهيهم عن النظر باتجاه مازن والفتاة، ولكن لم يسعفهما الوقت فلم تطيل عاليا في حديثها مع الحرس لتعود أدراجها إلى السيارة تجد مازن مختبئ مكممًا فم الفتاة خوفًا أن يسمع أحد همهماتها.

- «أتركاني، دعني وشأني أيها الخائن».

لم تعط لها عاليا اهتمام، وتحدثت إلى مازن في همس: «لماذا جاءت معك؟ ألم أخبرك أن تعطيها المجال الآمن لكي تتجاوز الحدود؟!»

مازن: «لم نتمكن من عبور الحدود، فالوقت لم يكن كافيًا».

قاطعت الفتاة حديثهما مرة أخرى، وقالت في همس وصرخة مكتومة: «دعاني وشأني يا كلاب الصهاينة».
عضت عاليا على شفتيها كاتمةً غيظها وتوجهت لمازن بالكلام: «أرأيت! أمثال هؤلاء لا تخدمهم في شيء، فهكذا هو المردود، الوقاحة فقط».
بدأت تتشاجر الفتاة مع عاليا لترد عليها وبدأت ترتفع أصواتهما، ليتدخل مازن سريعًا: «هلا هدأتما قليلًا فهكذا سوف نموت جميعًا، علينا التفكير في حل».
نظرت عاليا للفتاة بغلظة ثم تحدثت إلى مازن قائلة: «هناك حل لا تقلق، لقد أخبرت الحرس أن لدي صديق ونود الذهاب إلى غزة، ما يعني أننا يمكننا المرور بدون تفتيش السيارة ليس هناك مشكلة».
رَكَب الجميع واختبأت الفتاة في صندوق السيارة حتى يعبروا الحدود، وما أن عبروها حتى توقفت السيارة مرة أخرى لتركب معهما.
- «ربما أبقى هنا ليومين أو أكثر».
تعجبت عاليا وردت وهي تقود السيارة: «لماذا؟»
مازن: «ليس أمرًا هامًا، ولكني أود أن أجلس قليلًا مع عائلة الفتاة، أخبريني ما اسمك؟» موجهًا حديثه للفتاة.
أجابت الفتاة بوجهٍ غاضب وصوتٍ حان: «ريماس».
مازن: «ممتاز، أود أن أجلس مع عائلتك وتصوير بعض المناطق لديكم ومعرفة وضعكم المعيشي في البلاد، إذا كنتِ لا تمانعين؟»
أومأت الفتاة بوجهها الغاضب علامة الإيجاب موافقة على طلبه، ثم قالت له عاليا بهدوء: «من أجل العمل أيضًا؟»
مازن: «كما أخبرتك عملي هو الصحافة والتصوير وتلك الأحداث التي تدور من حولي».
تنهدت عاليا قائلة: «حسنًا، متى تعود سوف تجدني».

ارتجلا من السيارة على جانب الطريق، وسارا جانبًا مسافة ٢٠٠ مترًا تقريبًا، خلالهم علم مازن أن الفتاة تعيش مع والدتها وجِدتها وشقيقتها الصغيرة، وأن والدتها تعمل لتَسُد حاجيات المنزل بعد أن جَرَف العدوان الإسرائيلي على رجال بيتهم وقُتل والدها واعتقل أخاها منذ أكثر من ١٢ سنة، ولا يدرون عنه شيء إلى الآن.

لم تقبل والدتها بسهولة مبيت شاب غريب في منزلهم، ولم تُرحب به مطلقًا ليضطر مازن أن يخلع شعره المستعار وقد أدهش الجميع بتنكره ليقول لهم: «خالتي، أنا عربي مصري، وقد جئت هنا في مهمة لا يسعني الوقت لكي أخبرك عنها الآن شيء، أعدُك أنني سوف أخبرك كل شيء في الصباح، واطمئني أنا لست كما تعتقدين».

كانت تحملق فيه والدة ريماس بشدة وتتخبط بها الأفكار، هل هو مشارك مع المقاومة الفلسطينية؟ ولكنه مصري! ما الذي جاء به إلى هنا؟! وكيف دخل تل أبيب؟! ربما شعره المستعار كان لانتحال شخصية هامة في إسرائيل! أو تراه كان ينفذ مهمة خاصة في تل أبيب وقد أتمها ويبحث الآن عن طريق العودة لجماعته! على أي حال هو في الغرفة الملحقة بالمنزل، وفي الصباح سوف نرى ما يحدث، هكذا كانت تحدث نفسها.

****

للمدينة بريقها وسحرها، ربما تغيرت كثيرًا عن ذي قبل؛ نتيجة العدوان الإسرائيلي وتضيق الخناق عليها، ولكن هو الآن يراها مدينة جميلة وذات طابع خاص، فماذا لو كانت في أبهى حلتها؟!

خرج من غرفته الصغيرة مستنشقًا الهواء لينتبه لوجود والدة ريماس التي كانت تبدو في انتظاره على أحر من الجمر، وأخذته تسير حول

منزلهم وهو يحكي لها حقيقة الأمر، وما سر تنكره، ولماذا اسمه آدم، وما قصة جواز السفر الصربي الذي يحمله، وأظهر لها جواز سفره المصري لتتأكد من شخصه وبدد كل شكوكها حوله.

- «بإمكانك أن تناديني الخالة نهال». بوجهٍ بشوش.

مازن مبتسمًا: «لا أعرف كيف أشكرك، ولكن هذا جميل في رقبتي إلى يوم الدين».

استمرت الخالة نهال مبتسمة وأجابته في حماس: «أنت الآن تعوضني غياب ابني، وما دام أنك تحارب هؤلاء الكلاب مؤكد سوف تلقى دعمي ودعم كل نفسٍ حرة ترفض ذلك الكيان الصهيوني.

مازن: «مؤكد هناك غيري الكثير ولا تقلقي كلٌ يحارب ويناضل فيما هو بارع فيه».

الخالة نهال: «بالطبع، فأنت لست بحاجة لسلاح لكي تحارب، علمك في حد ذاته هو سلاحك، وعليك أن تحارب به وأن تحفظه من كل أيدٍ عابثة، ولكن أخبرني ما الخطوة القادمة؟ ماذا تنوي أن تفعل؟»

****

- «لقد عانينا كثيرًا من الحصار يا ابنتي، وينقصنا الكثير من العلاج هنا، وليس بمقدورنا الحصول عليه».

- «حسنًا، أخبريني أين أنت تحديدًا في غزة؟ حسنًا سوف نقوم بزيارتكم خلال ثلاثة أيام».

هكذا كان الاتفاق لاستدراج دكتور كندة إلى منزل الخالة نهال، حيث طلب مازن أن تتحدث إلى بعثة الأمم المتحدة التي جاءت إلى فلسطين، والتي تضم دكتور كندة وطلبت محادثتها شخصيًا لتبلغها رسالتها كمستغيث من الاستيطان والقصف الإسرائيلي، فانشغال العديد من البلدان العربية فتح الباب على مصراعيه للحكومة الصهيونية لعودة

الممارسات العسكرية في المنطقة دون الضغط عليها من الدول العربية المنشغلة بأمورها الداخلية آنذاك.
خلال يومين كاملين مارس مازن حياته مع أسرة الخالة نهال وانخرط في نظام حياتهم، تنظيف الحظيرة مع الخالة نهال والمهام الخارجية كان مسؤول عنها بالكامل، كما لم يخل الوقت من اللعب قليلًا مع ابنتها الصغيرة نهاد، حتى طرقت بابهم دكتور كندة في صباح اليوم الثالث.
استقبلتها الأسرة بكرم وسخاء مما جعل دكتور كندة مندهشة، فالأمور تبدو طبيعية وحياتهم تسير بشكل جيد، ذلك ما جعلها توقِن أن الأمر ليس كما يبدو عليه وأن هناك أمرًا ما.
بعد أن أخبرته ريماس جاء مازن من غرفته متقدمًا في حذر للغاية، وما أن رأته دكتور كندة وبدا عليها الذهول وتفاجأت كثيرًا ليشرح لها مازن قصة هروبه من عمله وكيفية دخوله الأراضي الفلسطينية.
- «وماذا الآن؟ ماذا تنوي أن تفعل؟ لقد تخبطت أفكاري؟»
أجاب مازن في هدوء: «أنا لا أعلم فيما كنتِ تخططين، ولكن الأمر ليس بحاجة لكثير من التفكير، أنا سوف أظل هاربًا إلى أن يتم الإطلاع على الأبحاث ودخولها حيز التجربة والتنفيذ، وما أن يصبح الأمر رسميًا وللعلن سوف يكون من غير المُجدي على الإطلاق الاستمرار في مطاردتي، أنا كنت أنتظر إلى أن أخبر شخصًا أثق به مثلك بكل تلك الأمور حتى أتفرغ أنا للهروب، وبشأن ذلك أنا سوف أستطيع تدبر أمري جيدًا».
استمرت دكتور كندة في التفكير محاولة استيعاب الأمور التي حكاها لها مازن: «يا بني، ليس في وسعك أن تظل هاربًا، كما أن التجربة والتنفيذ أمران ليسا يسيرين حتى يتما بين ليلة وضحاها، خاصة وأننا نُسَيير الأمور بشكل سري ولنا شروطنا من أجل تنفيذ المشروع». ساد الصمت لوقت طويل آخذًا كل منهم وقته الكافي للتفكير، ثم استكملت

دكتور كندة تقول: «حسنًا، أن يكون هناك مصدر واحد للفكرة أفضل من وجود الفكرة مع أكثر من شخص، لذا احتفظ بأوراق أبحاثك معك الآن».

رد مازن متسائلًا: «وكيف سوف يتم تنفيذ المشروع؟»

دكتور كندة: «الأمور اختلفت الآن لأننا على عجلة من أمرنا؛ لذا يجب أن نستدعي دكتور سليمان ودكتور مصطفى بشكل عاجل حتى يبذل الجميع جهدًا أكبر والتعامل مع الأمر بجدية أكثر، حتى تثمر مساعينا الأمر المنشود في أسرع وقت ممكن». أخذت رشفة من الشاي الذي قدمته الخالة نهال مع الكيك ثم استكملت حديثها في همس: «أخبرني هل أنت واثق من هؤلاء الناس؟»

أجابها مازن بشكلٍ قاطع: «أثق فيهم تمام الثقة، لماذا؟!»

دكتور كندة: «لا شيء، ولكني تفاجأت بوجودك، ولم أكن أعلم أن الأمور سيئة لديك لتلك الدرجة، وكما تعلم في تلك الظروف لا يمكنك الوثوق في أحد بسهولة، ولكني أشعر أنهم أناس طيبون».

مازن: «لا، لا تقلقي، هم حقًا رائعون».

استكلمت دكتور كندة بابتسامة: «حسنًا، علينا بسرعة خروجك من فلسطين، لأنهم إلى الآن لم تَرِد إليهم بيانات تؤكد وصولك، لذا ربما بعد قليل نجد الدنيا قد انقلبت رأسًا على عقب سواء هنا أو في مصر بحثًا عنك في ذلك العنوان الذي أرسلته لي».

أومأ مازن بوجهه مستمعًا لكلامها وأكملت تقول: «هناك وظيفة في اليابان، هي وكالة تعمل بمجال الرصد الجوي والزلازل والارتدادات ومثل تلك الأمور، مكان العمل في طوكيو، وأعتقد أنه مكان جيد للاختباء فيه لفترة، خاصة وأن تلك الأعمال ليس مسلط الضوء عليها بشكل كبير».

لم يَكُن بمقدوره العودة إلى مصر في تلك الفترة، كما لا يمكنه البقاء في فلسطين، وبالطبع لا يمكنه العودة إلى قطر حيث مكان عمله الهارب منه، لذا لم يكن بيده حيلة غير أن يوافق على الأمر.

وتابعت دكتور كندة تدله على باقي خطة هروبه: «سوف أحجز لك تذكرة الطيران من سوريا؛ لذا عليك بالذهاب هناك، انتبه جيدًا لما أنا بصدد قوله الآن».

ابتسم مازن ورد ضاحكًا: «منتبه بكل حواسي يا دكتور، تفضلي».

دكتور كندة: «أخبرتني أنك دخلت فلسطين على أنك مواطن صربي وتعمل كمصور صحفي، ربما يَصعُب دخولك إلى سوريا بهذه الهوية في ذلك الوقت».

اندهش مازن قليلًا ثم تابعت دكتور كندة: طلذا سوف يكون يسيرًا عليك أن تخرج عبر الحدود البرية أفضل من المطار، لذلك يتوجب عليك أن تقوم برحلة شاقة قليلًا، فسوف تَمُر بجانب معبر القنيطرة، إذا أمسكتك حرس الحدود الإسرائيلي سوف تظهر لهم جواز سفرك الصربي وتخبرهم أنك ذاهب إلى سوريا لتغطية الأحداث هناك، VIPوبطاقة الـ وإذا تمكنت العبور بسلام إلى الأراضي السورية عليك بتسليم نفسك لأول مخفر في معبر القنيطرة وتسأل عن الرائد هاشم العَمري، وهو سوف يتولى أمرك في سوريا».

سألها مازن في دهشة: «عذرًا دكتور، هناك أمر لم أستوعبه، ما الذي يحدث في سوريا؟!»

تنهدت دكتور كندة وأجابته بصوت حزين: «العلم عند الله، ولكن هناك احتجاجات كثيرة وحركة سياسية نشطة جدًا هذه الأيام، وربما يحدث مثلما حدث في الربيع العربي».

تبعًا لذلك المخطط لخروج مازن من فلسطين استلزم الأمر أن يسافر برًا

لكيلا يعبر من خلال أي جهة في فلسطين تستوجب إشهاره أي أوراق له، ذلك ما أرغمه على سلوك المناطق الجبلية الوعِرة حيث مر أولًا بمنطقة الخليل، وبها مرتفعات بين ٤٠٠ و٨٠٠ متر، وبعد ذلك دخل تل أبيب بالاتفاق مع عاليا لكي يأخذ أغراضه ويودعها متجهًا إلى شمال شرقي فلسطين مرورًا بنابلس وجنين، ليدخل سلسلة أخرى من الجبال في منطقة جبل طرعان وجبل الجرمق، وصولًا إلى جبل كنعان كمحطة أخيرة في فلسطين ليدخل بعدها إلى هضبة الجولان وهي منطقة متنازع عليها مع سوريا.

وبعد أن تجاوز منطقة الخطر واجه قوات حرس الحدود في أول بلدة في الأراضي السورية «القنيطرة»، وعندما سألوه عن هويته أشهر لهم جواز سفره المصري وقال لهم كما أخبرته دكتورة كندة، أنه يريد مقابلة الرائد هاشم العَمري، ولأنه وصل فجر يوم الخميس ٣ مارس تَعَذَّرَ وجود الرائد بالمخفر، ولذلك اضطر أن ينتظر في نقطة التفتيش إلى أن يأتي الضابط.

- «من هذا الرجل؟»

أجاب الجندي: «لقد وصل فجر اليوم من فلسطين يا سيدي، وسأل عنك».

وضع الضابط حاجياته على المكتب ثم قال مخاطبًا الجندي: «حسنًا، اذهب أنت وآت بإفطار لشخصين».

اتجه الضابط نحو الأريكة بجانب المكتب ليوقظ مازن في هدوء.

- «أنا آسف لقد ذهبت في النوم مرهقًا».

أجاب الضابط بوجه بشوش: «لا عليك يا بني، أخبرتني دكتور كندة بشأنك». ثم استكمل حديثه وهو يُخرج بعض الأوراق من درج مكتبه: «هذه هي تذاكر سفرك والعنوان الذي سوف تقصده هناك».

نظر مازن في الأوراق مندهشًا بعد أن وجد تاريخ السفر في اليوم التالي من مطار دمشق، ثم نظر إليه الضابط وهو يعلم مشقته وقال حانيًا عليه: «أعلم أنك تعبت في الأيام الماضية من مشقة الطريق، وأخبرتني دكتور كندة بضرورة خروجك سريعًا من المنطقة لذا عَجَّلتُ بالحجز، بالإضافة أنه هناك موجة من الاحتجاجات تَعُم البلاد لذا يتوجب عليك السفر سريعًا».

لم يَكُن في حسبانه تلك الظروف التي تحدث في البلاد، وكان آملًا أن يمضي بعض الوقت في سوريا التي أحب أن يزورها يومًا بالإضافة أنه ود أن يتوقف قليلًا ليرتاح، ولكن بعد أن علم أن سفره في اليوم التالي بدا له أن وقت الراحة لم يأت بعد، ليستمر لليوم الخامس على التوالي في طريق هروبه وسفره من بلد إلى بلد ليتجه ٧٠ كيلو مترًا من القنيطرة صوب مدينة دمشق، حيث مكان إقامته تلك الليلة التي لن تتجاوز الـ ٢٤ ساعة ليستكمل رحلة سفر أخرى طويلة متجهًا إلى اليابان.
مجرد أن دخل إلى المنزل لم يمعن النظر فيه وإنما كل ما بحث عنه هو الفراش ليلقي رأسه غارقًا في النوم لأكثر من ١٠ ساعات ليستيقظ مع آذان العِشاء، ورويدًا رويدًا بدأ يُهيئ نفسه لاستقبال ما هو قادم أيًا كان سيئًا أم جيدًا، ولكنه اعتاد أن تشتد عليه الأحوال.
أراد أن يأكل شيء وقام يبحث في الشقة ووجد بعض المأكولات السريعة، قام بإعداد بعض لفائف اللحم وأخذ يتناولها وهو يطالع المدينة من شرفته، كم كانت ساحرة وأراد حقًا أن يبقى على الأقل ليومين حتى يستمتع بجمال المنظر وريحها الطيب، وما أن انتهى حتى أغلق الشرفة وعاد بنظره إلى الداخل، ليجد مغلف موضوع بشكل مهندم على المكتب بالغرفة، أخذ يفتحه بهدوء ليجد مكتوب من دكتور

كندة ومبلغ مالي بالدولار. "ابني العزيز مازن، مؤكد أنه يلزمك بعض المال من أجل رحلتك الطويلة، وأنا للأسف لم أنتبه للأمر إلا بعد سفرك، وكم كنت أود أن أرسلك بمغلف مثل النقود إلى سوريا لكي أوفر عليك مشقة السفر، رجاءً ارفع التكليف فأنت الآن مثل ابني الذي كنت أتمناه، ولذلك أنا أساعدك قدر المستطاع، وليتني أحمل العبء عنك كاملًا، أخبرني عندما تصل إلى اليابان وبالتوفيق في رحلتك. حفظك الله".

أغرورقت عيناه بالدموع متأثرًا برسالتها التي جعلته يتذكر كل ما يشتاق إليه، شقيقته عندما تمزح معه، خوف أبيه الدائم عليه وعلى مستقبله، وأصدقائه، وحياته في الصبا، ولمياء عندما كان يلقنها دروسها، وكم اشتاق لأحضان أمه، وكم أوحشته مرام، حبه الذي كان وما زال نابضًا في قلبه.

وضع الرسالة في جيبه ونهض في هدوء ماسحًا عبراته بشجاعة، فهو يعلم أنه يلزم أن يكون صلبًا وقويًا استعدادًا لما هو قادم، وهَبَّ واضعًا أغراضه في الحقيبة استكمالًا لرحلة هروبه المستمرة.

******

الصدع

رحلة طويلة وشاقة استغرقت حوالي أربع ساعات من مطار دمشق إلى روما لينتظر في المطار ثلاث ساعات، ثم يواصل رحلته لمدة ١٢ ساعة لكي يصل طوكيو، كان تعبًا كفاية بحيث لا ينقصه عبء رحلة شاقة كهذه استغرقت ما يزيد عن ١٩ ساعة، ولكنه صال وجال المطارات مثقلًا بأعبائه الذهنية وهروبه أكثر من تعبه الجسدي الذي نخر عظامه، أضف إلى ذلك سفره فجرًا ووصوله فجرًا بتوقيت طوكيو وانقلاب ساعته البيولوجية رأسًا على عقب، كل هذه العوامل كانت كفيلة بأن تجعله يصل كجثة هامدة، ولكنه ما زال يتنفس أي أنه على قيد الحياة!

استيقظ على صوت رنين هاتف لم يدر من صاحبه، ولم يكن يعلم أين هو! لم يجب على الهاتف ولكنه اندهش من ذلك المكان الذي لا يذكر كيف جاء إليه؛ فنهض يتفحص المكان الذي يبدو أنه لا يوجد أحد غيره، رويدًا رويدًا بدأ يستعيد وعيه ودق رنين الهاتف مرة أخرى ليرى اسم شخص يدعى سارة، ليجيب على الهاتف.

- «مرحبًا، أستاذ مازن صباح الخير».

أجاب مازن وهو يَحُك عينيه: «مرحبًا، صباح الخير؟»

سارة وبلهجة رسمية: «أعتذر إن كنت قد أيقظتك باكرًا؛ ولكني وددت أن أتأكد من سلامتك بعد ليلة أمس».

اتسعت عيناه مندهشًا وسألها مازن بحذر: «معذرة ما الذي حدث أمس؟!»

أجابته متخلية عن رسميتها: «كنت تعبًا للغاية ولم تنتبه لخطواتك

وكدت تسقط عن السلم وأنت تصعد إلى المنزل، وحين بدأت تتهاوى عاد السيد هيراتشي لمساعدتك».

رفع مازن حاجبيه في اندهاش ثم أكملت سارة قائلة: «أعتقد أنه أول سفر لك يستغرق كل هذا الوقت ولم تعتد الأمر بعد، كنت أظن في بادئ الأمر أنك في حالة سُكر، ولكن قد اطمأننا عليك بعد أن قام الدكتور بفحصك وقال إنه مجرد إرهاق شديد».

بدا مازن وأنه قد استعاد بعض من ذاكرته حين وصل إلى المطار وقد استقبلته سارة والسيد هيراتشي، ولم يكن في كامل وعيه: «معذرة، ولكني قد استفقت للتو ولم أدرك الأمر سريعًا».

أجابته سارة بصوت مبتهج: «لا عليك، تستطيع الاتصال بي على هذا الرقم إذا دعت الحاجة».

همت بإنهاء المكالمة ولكن لاحقها مازن بسؤاله: «معذرة! ولكني لا أذكر أين مكان العمل، ولا أعرف متى يتوجب عليّ استلام عملي».

ابتسمت سارة وأجابته تحسده على حظه السعيد: «كان يتوجب عليك أن تكون في العمل منذ ساعتين، ولكن قد منحك دكتور هارت إجازة لمدة يومين حتى تستعيد عافيتك».

ابتسم مازن وأجابها مازحًا: «حقًا أنا محظوظ، فمن يحظى بإجازة وهو لم يبدأ في العمل بعد».

أنهى المكالمة معها وبدا وأنه بدأ في تدشين علاقاته مع أصدقاء عمله الجدد ويا لها من بداية، رأوه في غير وعيه مترنحًا على السلم! وإجازة يومين، فقد لفت انتباه زملائه قبل أن يبدأ في عمله، ثم قال لنفسه مبتسمًا: «سترك يا الله».

كانت الأحداث تتسارع به منذ أن دخل فلسطين ولم يكن لديه المتسع من الوقت للتفكير وإنما كانت الريح تأخذه يمينًا ويسارًا وهو يعافر لكي

يتفادى الإعصار، وبعد أن استيقظ وعاود إنعاش ذاكرته واسترد عافيته بدأ يفكر مليًا في وضعه وضرورة إخبار أسرته بالأمر أو على الأقل والده.
- «آلو!» بصوت خامل يملؤه النوم.
فرح مازن لسماع صوت أبيه وأجاب منتعشًا: «مرحبًا أبي». ثم أكمل مازحًا: «أوحشتني يا إمام».
ضحك إمام ورد يمازح ابنه: «وأنت أيضًا أيها الأحمق، كيف حالك أخبرني؟»
مازن: «اشتقت لكم جميعًا، أخبرني كيف حال أمي وميار؟»
إمام: «جميعنا بخير، الحمد لله».
مازن: «حسنًا، أرسل لهما سلامي إن كنت في المنزل».
أجابه إمام بعد أن استفاق من نومه: «حسنًا، عندما تستيقظان سوف أخبرهما».
لم ينتبه مازن لفرق التوقيت بين طوكيو والقاهرة ورد متفاجئًا: «آه! أعذرني يا أبتي فأنا الوقت لدي صباحًا ولم أنتبه لفرق التوقيت».
تعجب إمام من كلام ابنه وسأله محاولًا استيعاب الأمر: «فرق توقيت! الفرق مجرد ساعتين، ألست في قطر؟!»
أجاب مازن شارحًا لوالده ولم تفارق الدهشة عينيه وكان يشكك أكثر من مرة أنه ربما ما زال نائمًا، وصار يحك عينيه محاولًا إدراك تلك المخاطر التي تَحُف ابنه.
- «وهل أنت في مأمن الآن؟»
مازن: «لا تقلق يا أبي، أنا بخير الآن، كما أنني أخذت احتياطاتي جيدًا».
شعر مازن بنبرة الحزن التي يصحبها قلق عاطفة الأب على ابنه، ولذلك أراد أن يغير الموضوع قليلًا: «حسنًا أبي، كنت أريد منك أمرًا هامًا».
انتبه إمام واستمع إلى ابنه ثم استكمل مازن قائلًا: عليك بسحب كل

الأموال من حسابي ثم تغلقه؛ بموجب التوكيل الذي معك، لا أريد أن يكون لدي أي حسابات في أي بنك».
تعجب إمام قليلًا ورد متسائلًا: «ولكن كيف سوف تتدبر أمورك؟!»
مازن: «أنا لم أستخدم الحساب منذ ذلك الوقت الذي تركت به العمل في قطر، فمن الممكن أن أُراقب من خلال عمليات السحب والصرف منه، ولا تقلق سوف نتدبر أمر المال من أجل المعيشة».
إمام: «وكيف ذلك؟»
مازن: «سوف نعتمد الطرق القديمة، سوف تُرسل حوالات بالمبلغ إذا احتجت لشيء وسوف تكون باسم شخص آخر».
بعد أن أنهى المكالمة مع والده شعر وكأن كثيرًا من الوقت قد مر، فربما هي شهور إلا أنه شعر بأنها سنين، فقد تغيَّر أبوه كثيرًا وأصبحت لديه العاطفة غالبة على كل شيء، ذلك ما نبأ بأنه قد بلغ من العمر الكثير، ما جعله لا يرغب في شيء إلا أن يرى أولاده سعداء.
وبالرغم أنه ملّ الحياة ولم يَعُد يفكر إلا بمرام، إلا أن ذلك الملل لم يقده إلى التفكير في مكالمة أصدقائه، وإنما مارس عمله بشكل طبيعي، وفي غير أوقات العمل لم يقم بشيء سوى تسجيل مذكراته، وهي التي أخذت منه كثيرًا من الوقت، وبالنسبة لعمله كان يقوم بالدور المطلوب منه دون ابتكار.
بعد مرور بضع أيام على ذلك المنوال أقدم مازن على فتح برامجه الخاصة، وبدأ في مطالعتها بعد فتره كبيرة، وقام بالإطلاع على الأقمار الصناعية بعد اختراقها في المجال الخاص بعمله الحالي وهو الزلازل، ووجد النتائج ربما لا تُبشر بالخير، ولذلك عكف على تحليلها كثيرًا وظل حتى صباح اليوم التالي حتى بزغت الشمس وهو على يقين بنسبة ٩٠٪ أنه سوف يحدث زلزال، ولكن متى؟ لا يعلم! وتبنى هذه النتيجة بناءً

على تحليله لحركة الصفائح التكتونية بعد أن رأى انزلاقًا حاد وحركة لصفيحة المحيط الهادئ باتجاه الصفيحة الأوراسية.
لم يستطع أن ينام منذ تيقنه بتلك الحقيقة، ولذلك قام بإرسال تحذير غير رسمي في الساعة الثانية من ظهر يوم الجمعة ٢٠١١/٣/١١ إلى مكتب الأرصاد العامل به في طوكيو، كما أرسل نفس الورقة التحذيرية إلى مركز الهادئ في هاواي، ولكن الوقت لم يكن كافيًا، فبغض النظر عن كونهم رأوا التحذير أم لا، فهم أيضًا لديهم رصدهم وأجهزتهم والتي أطلقت صفيرها وقت حدوث الزلزال لتشهد اليابان أقوى زلزال لها منذ ١٤٠ عام منذ أن بدأ رصد الزلازل وتسجيل قوة ضربها، ففي تمام ٢:٤٦ ظهرًا بتوقيت اليابان ضربها زلزال قوته ٩.٨ ريختر ودامت الهزة الأرضية خمسة دقائق في واقعة غير مسبوقة.
لم تكن بؤرة الزلزال داخل أراضي اليابان، ولا على سواحلها ولا على مقربة من سواحلها، وإنما كانت أقرب مدينة لبؤرة الزلزال تَبعُد عنه بمسافة ١١٦كيلو مترًا -مدينة سنداي- ولأن اليابان تستلقي على حدود بين هذه الصفائح، فكان الخطر الأكبر واقع بشكل كبير عليها دون غيرها من دول حوض المحيط الهادئ، حيث كانت تُغرس صفيحة الهادئ داخل اليابان بواقع ٨سم سنويًا، وعلى مر العقود والقرون تنامت اجهادات عظيمة، أدت إلى ارتداد الصفيحة الأوراسية بعد أن كانت مثل المطاط وتمايلت مع غرس صفيحة الهادئ، وما نتج عن هذا الارتداد هو زلزال في عرض المحيط على عمق ٤.٢٤كيلو مترًا، نتج عنه موجات تسافر بسرعة ٨٠٠كيلو متر/ ساعة، فكل تلك الأرقام في تاريخ الزلازل حديثة المسمع ومهولة على أذن سامعيها، وبكل المقاييس هي كارثة لليابان وكانت لتكون على العالم أجمع إذا وصلت الأضرار للمفاعلات في محطة الطاقة النووية فوكوشيما، والتي كانت تُثير رعب

القادة والمسؤولين في العالم خلال ذلك الوقت، ويُتابعونها بكل حذر وترقب.

قد كان وحدثت واحدة من أسوأ الحوادث النووية في التاريخ بفعل تسونامي الذي تبع تلك الهزة الأرضية بعد أن أُذاع أن المادتان المشعتان -السيزيوم واليود- كُشِفَ عنهما قُرب المفاعل رقم واحد في المحطة.

لقد صمدت المفاعلات أمام الزلزال، وكان هناك سور دفاعي بارتفاع ٥. ٦متر، ولكن بعد ٤٠ دقيقة من الهزة الأرضية سَحقت الموجة السور وغرق مسافة نصف متر تقريبًا،

أقفل نظام اليابان التحذيري المفاعلات تلقائيًا ولأنه يتطلب تبريدهم بعض الوقت؛ عَمِلَت مولدات الديزل لحالات الطوارئ لضخ سائل التبريد، ولكن كانت تقمع المشكلة عندما غمرت المياه مولدات الديزل التي كانت تُبرد أنوية المفاعل، لتواجه اليابان مشكلة أخرى حين عَمِلَت بطاريات الطوارئ والتي يكفي شحنها لثمان ساعات فقط!

وبفعل هذه الكارثة كانت النتائج بشعة بحيث أغلقت مصانع، ومصافي نفط ومحطات طاقة ومطارات، وأدت إلى هبوط حاد في البورصات الآسيوية والأوروبية، وتدمير مطار سنداي، ومن أغرب ما أدى إليه ذلك الزلزال المريع هبوط خط الساحل كله بمسافة متر، وبلدة بأكملها مُسِحَت من على الخريطة -ميناميسانريكو- حيث دُمر ٩٥٪ من مبانيها، كما وقعت ٥٠٠ هزة تابعة بعد فترة تلت الهزة الرئيسية بأسبوع، وأحد النتائج التي بواقعها تصف مدى تأثير ذلك الزلزال في العالم أجمع في الوقت الحاضر وفي المستقبل أيضًا هي إزاحت محور دوران الأرض ١٠سنتيمترات -٤ بوصات-!

وفي حصيلة مؤكدة كانت النتائج ١٥٦٤١ قتيل، و٢٧٧٦ جريح، و١٦٢٤٤ مفقود،

ومن المتوقع أن يرتفع مستوى البحر عند سواحل ٢٥ دولة واقعة ضمن منطقة الخطر في المحيط الهادئ.
حجم الكارثة كان ليكون أعظم بكثير إذا كانت مدينة طوكيو مثلًا وقع عليها الضرر بشكل رئيسي، حيث بها ملايين السكان فضلًا عن كونها العاصمة وبها العديد من الجهات الحكومية والخاصة.
ولذلك لم يُصَبْ مازن بمكروه وباشر العمل لمتابعة توابع الزلزال، وبالطبع تواصلت معه أسرته بعد أن ماتت قلوبهم ألف مرة إلى أن سمعوا صوته يحدثهم ليطمئنوا عليه.
وبعد تلك الأحداث بفترة تم إرسال بعض فريق العمل إلى مركز الهادئ بهاواي لعمل تقرير كامل عن الزلزال، وكان مازن ضمن الفريق الذي ذهب إلى هناك.
وهناك تم الإطلاع على نتائج الأعمال، وتم عمل تقرير مُفَصَل عن الزلزال على هيئة فيلم وثائقي، وفيه تم الاستعانة بمجهودات الجميع وبالأشرطة المُسَجَلة عن طريق الكاميرات في شوارع اليابان، أو عن طريق الكاميرات الخاصة بالأفراد، وفي شهر يونيو عاد مازن إلى اليابان مرة أخرى ليُمضي يومين ثم يغادرها هاربًا!

******

نقلة زمنية: يونيو ٢٠١٢

١-على الجانب الآخر.

على الجانب الآخر كانت تُدَبَر المكائد وتُحاك الخطط للوصول لمازن منذ عام، ولغير مازن أيضًا ممن هم ضمن قوائم الاغتيال والتصفية، فمثل هذا النوع من التنظيمات لا ينام ولا تغفل له عين إلى أن يصل لمبتغاه، سواء كان معلومات أو التخلص من شخص ما.
ولكن إلى الآن لم يُؤَمَر بقتل مازن لأن لديه معلومات تحتاجها -وبشدة- تلك التنظيمات السرية.
في تركيا بأنقرة في تمام الحادية عشر مساءً كان هناك بأحد المباني العريقة مكتب لشركة ملاحة تُدار فيه مكالمات ومحادثات تليفونية دولية لمتابعة سير عمل تلك التنظيمات في الشرق الأوسط.
مكارثي: «أنتم تتبعونه منذ عام وأكثر، فكيف لا تستطيعون إيجاده؟!»
جون: «هو دائمًا كان يسبقنا بخطوة».
مكارثي: «ومتى نصل إليه؟! بعد أن يكون قد نفذ المشروع!»
جون: «نحن لا نترك مكان يمكن أن نجده فيه دون بحث، فضلًا عن أن آخر ما ورد إلينا هو الاشتباه في أحدهم في مدينة ياكوتسك في روسيا».
مكارثي: «منذ عام كنت تعلم جيدًا أنه في اليابان، ورغم ذلك لم تجدوه، والآن تقول لي معلومات غير مؤكدة عن مكانه! اسمع، لا بد وأن يكون هناك ورقة ضغط أخرى، حتمًا لديه شخص ما معه ويساعده في تحركاته فحاول البحث عنه.

جون: «حسب آخر معلومات أكيدة وردت إلينا إنه يتحرك وحده، كما أننا نحاول رصد أي اتصال له ونبحث عنه في كل الشبكات، أو أي تعاملات بنكية ولكن لم نستطع الوصول لشيء».
مكارثي: «يا جون، لا بد أن لديه حبيبة أو شخصًا ما قريب إلى قلبه، فحاول أن تكون تلك هي ورقة الضغط الأخرى».
جون: «إن كامل أسرته في مصر وليس لديه حبيبة، أترغب في أن نهدده بأسرته؟!»
مكارثي: «لا أقصد أسرته، عندما تعلم من يساعده نكون قد حصلنا على ورقة الضغط التي أتحدث عنها».
استمر هذا النقاش طويلًا إلى أن قاطعته السكرتيرة لتحول له اتصال آتٍ من الأرجنتين.
السكرتيرة: «سيد مكارثي، أستاذ نولان على الخط الثاني متصلًا من الأرجنتين».
مكارثي: «إلى أين وصلت؟»
نولان: «أعتقد أنها ربما حققت بعض الإنجازات في بحثها، ولكن لم تتمكن إلى الآن من الحصول على علاج».
مكارثي: «وماذا تفعل في الأرجنتين؟»
نولان: «أعتقد أنها ليست رحلة عمل لأنها ذاهبة إلى أنتركتيكا، وبرفقة أصدقاء ليسوا معها في العمل».
مكارثي: «يمكنك العودة إلى أستراليا للتأكد من الأمر في غيابها، وأنا سوف أتصل بخافير ليتولى أمرها».

أغلق الهاتف وكان يبدو عليه الاستياء قليلًا وتابع حديثه.
مكارثي: «يبدو أننا على مقربة من قتل أحدهم».

جون: «هل هي فتاة المصل؟»
مكارثي: «نعم هي، دائمًا العرب يضايقوننا».
جون: «الشرق الأوسط الآن هو عملنا ومهمتنا، خاصةً بسبب الأحداث الأخيرة، فهذه فرصتنا لعمل ما نريد في أي دولة عربية، ولكن الفكرة كيف تستدرج الفريسة!»
مكارثي: «أتعلم أننا محظوظون، لأن أغلب المطلوبين ومن هم تحت المراقبة مصريين، وبالأحرى ذلك الفتى الزئبقي مازن، وفتاة المصل، مرام».

******

٢-جـــوال.

مدينة ياكوتسك في سيبريا الشرقية – روسيا.
على الرغم من دخول فصل الصيف إلا أن الأجواء في تلك المدينة بالنسبة لمازن كانت مثل فصل الخريف؛ حيث تعتبر من أشد المدن برودة لبلوغها معدل درجة حرارة سجل ٦٣ درجة مئوية تحت الصفر، وفي فصل الصيف سجلت أعلى درجة حرارة بمعدل ٣٠ درجة مئوية.
تقع هذه المدينة في شرق سيبيريا على طول نهر لينا، وتَبعُد ٥٠٠٠ كم من موسكو، وهي عاصمة إقليم ياكوتي الروسي، جمهورية ساخا.
وبعيدًا عن النشرة الجوية للمكان، فقد كان برفقة مازن صديقة له تدعى برانيا، وحاول ثلاثة أفراد التعدي عليهما بسلاح ناري ليسرقوهما ليأتي رد فعل مفاجئ وسريع من مازن.
- «ألا تريد الحديث عما حدث للتو؟!»
مازن: «ليس هناك ما يقال».

قالت له برانيا بنظرات رعب وشعور الخوف يعترمها: «أنا لا أعتقد ذلك».

مازن: «إذًا ماذا تعتقدين؟»

أجابته وكانت تبدو في حالة صدمة مما حدث، فهي لم تتعرض للسرقة من قبل، كما أن رد فعل مازن فاجأها وأعطى لها انطباعًا أنه ليس شخصًا مسالمًا أو كما يدعي: «مازن، رجاءً كُنْ صريحًا معي، لقد صَدَّقت ما رويته لي عنك سابقًا، ولكن لم يَكُن سببك الحقيقي للهجرة هو قصة حب فاشلة، فهناك سر آخر في حياتك، وأعتقد أن من حاولوا قتلنا اليوم هم السر الحقيقي».

ابتسم مازن لِسِعَة خيالها ورد قائلًا: «الجميع لديه أسرار، حتى أنت».

ردت برانيا وهي غاضبة: «أنت مُحق! لكن سرك يخيفني، وما رأيته اليوم يوضح لي أنك لست الشخص الذي تبدو عليه!»

مازن: «ربما أخفي عنكِ أشياء، ولكن لم أكذب بشأن ما أخبرتُكِ عنه سوى في شيء واحد».

ردت برانيا بانفعال أكثر: «بربك! -ثم ساد الصمت للحظات- هل أديت خدمة عسكرية في بلدك أو تلقيت أي تدريبات حربية؟»

مازن في ذهول: «لا، لماذا؟»

برانيا ساخرة: «إذًا كيف لمواطن عادي وشخص مثلك ليس له سابق معرفة بأي تدريب عسكري ويعمل كصحفي أن يفعل ما فعلته اليوم مع هؤلاء الرجال؟!»

مازن: «هذه هي النقطة، أنا لست صحفي».

ضحكة برانيا في سخرية وبدأت تزداد في توترها لتبكي، فطالبها مازن بالهدوء وأمسك يديها لتصرخ في وجهه قائلة: «ابتعد عني». وبالفعل تراجع رافعًا لها يداه ليشعرها بالأمان، وقال: «هؤلاء لصوص محترفون

وكانوا يحملون أسلحة، ربما كان يؤدي إلى قتلنا إذا لم أتصرف كما رأيتي، وبشأن ما قمت به اليوم مع هؤلاء اللصوص فليس مشروط أنني كنت في الجيش أو تلقيت بعض التدريبات لعمل ما قمت به، وكما قلت لكِ الجميع لديه أسرار».

هدأت برانيا من بكائها قليلًا لتقول بلهجة جادة وهي تمسح دموع خيبة ظنها: «كما تشاء، لكن لا أستطيع الاستمرار في صداقة شخص لا أدري عنه شيء وأشعر معه بالخطر».

مازن: «نعم لقد فهمت، ولكن قبل أن أرحل ألا تريدين معرفة قصتي؟»

****

برانيا فيرغوس هي من أب أيرلندي ذي أصول إنجليزية، ومن أم فرنسية تعود جذورها إلى لبنان، ولذلك جمعت بين الجمال الفرنسي والإنجليزي، شقراء ولونها أبيض كالثلج، فهي ذات جمال أوروبي خالص، وما أخذته من الشرق فقط لغته فهي تستطيع التحدث بالعربية قليلًا كما تعلم بعض عادات وتقاليد الشرق.

ولدت في الإمارات وأحبت الشعوب العربية؛ لذلك درسة العربية طيلة سبعة أعوام، وعند بلوغها الثانية عشر من العمر انتقلت عائدة إلى وطنها أوروبا بعد جولة امتدت نحو شهرين في دول الوطن العربي.

وبعد أن كبرت وحددت ما ترغب أن تكون درست عدة أشياء مختلفة مثل الأدب والتصوير والصحافة واللغات حيث تتقن ٥ لغات: الإنجليزية، الروسية، الألمانية، الفرنسية، إضافة إلى اللغة الأوكرانية التي تشبه الروسية إلى حدٍ ما.

جمعتهما الصدفة في مدينة أويمياكون الروسية، حيث كان مازن قادمًا من اليابان هربًا بعد أن عاد من عمله في هاواي ليجد منزله قد انقلب رأسًا على عقب، ولم يعرف وقتها كيف يتصرف، وجالت به الظنون أن

الفاعل ربما مجرد لص كان يحاول السرقة ولكن المنطق بدد شكوكه حين وجد الأشياء القيمة ما زالت موجودة، وهذا ما أكد له ما لا يدع مجالًا للشك أن بيلي وجماعته قد استطاعوا الوصول إليه.
قد فاجأته سرعتهم في الوصول إليه هذه المرة، فلم يكن قد مضي على وجوده في اليابان سوى بضعة أيام حتى تحصلوا على مكانه، وهذا ما جعله متوتر ولا يعرف ماذا يتوجب عليه أن يفعل، ولذلك حاول الاتصال بدكتور كندة ربما ترشده، ولكنه لم يجد جواب، ليحول اتصاله إلى دكتور سليمان فالوقت ليس في مصلحته ويتوجب عليه التصرف فورًا.
- «إذا استطعت أن تدخل الحدود الروسية سوف تكون في أمان، تحديدًا مدينة أويمياكون».
تفاجأ مازن من اقتراحات دكتور سليمان وسأله: «لماذا أويمياكون تحديدًا؟ أنا لا أعرف هذه المدينة! وماذا بشأن عملي هنا؟»
سارع سليمان في رده: «في هذه المدينة يصعب احتمال تعقبك، كما أن عدد سكانها تقريبًا ٥٠٠ فرد، وظروف الحياة قاسية هناك، أما بالنسبة لعملك في اليابان فدعك منه، ودكتور كندة سوف تستطيع تدبر الأمر معهم، فقد سبق وحكت لي الأمر وحكت لي عن أبحاثك ونتائجها وما وصلت إليه، وبكل تأكيد أنت الآن لديك قنبلة ويتوجب عليك أن تظل هاربًا لكيلا تقع في أيديهم».
تبعًا لهذا المخطط استطاع مازن السفر مباشرة إلى روسيا بدون تأشيرة بجواز السفر الصربي متجهًا إلى مدينة ياكوتسك وهي أقرب مدينة بها مطار يستطيع من خلالها الوصول إلى أويمياكون، وبالرغم أن المدينتين لا تختلفان كثيرًا عن بعضهم في البرودة إلا أن البقاء في مدينة ياكوتسك كان أفضل لمازن!

فعندما قال دكتور سليمان أن ظروف الحياة قاسية في أويمياكون لم يتوقعها مازن بذلك السوء، فهي بالكاد تكون قرية وليست مدينة، فهي تقع على بُعد ٣٥٠كم من الدائرة القطبية الشمالية، ومناخها قاري وتقع على وادي يرتفع نحو ٢٠٠٠ متر عن سطح البحر مما يفاقم من برودة الجو، وتصنف هذه المدينة رقم ١ في المدن المأهولة بالسكان الأقصى برودة في العالم؛ حيث سجلت درجة حرارة ٢.٧١ درجة مئوية تحت الصفر، وتعني كلمة « Oymyakon» في اللغة الروسية «النهر الذي لا يتجمد»، فالماء لا يتجمد هناك حتى عندما تصل درجة الحرارة إلى الستين تحت الصفر.

يقطن هذه القرية ٨٠٠ شخص تقريبًا أغلبهم من رعاة الرنة، ويعانون من عدة مشاكل يومية، مثل تجمد أقلام الحبر التي يكتبون بها، وحرص السكان على تشغيل سياراتهم مرة أو أكثر يوميًا حتى لا تتجمد البطاريات الخاصة بهم، كما أن تغطية خدمات الهاتف النقال تكاد تكون معدومة، إذ أن معظم الأجهزة الإلكترونية تتوقف عن العمل عند انخفاض درجات الحرارة لدرجة التجمد، كما تملك هذه القرية مدرسة واحدة فقط ولا تغلق إلا عندما تصل درجات الحرارة إلى ٥٢ تحت الصفر، وبها أيضًا فندق واحد فقط، وهناك مكث مازن شهر بدون أي عمل، ولذلك كان لديه الكثير من الوقت لكي يتفرغ لكتابة خواطره ورحلة هروبه المستمرة التي جعلته يخطو إلى أبعد بقاع الأرض وأكثرها أريزًا، فقد كان محقًا ذلك الداهية دكتور سليمان بشأن صعوبة تقفي أثر مازن في هذه المنطقة، حيث لا توجد تغطية أي شبكات لا بنكية ولا هواتف نقالة، فهو بالكاد أرسله إلى حقبة زمنية أخرى لا تستطيع التكنولوجيا التغلب على بيئتها لتتبع خطى مازن.

وقد قابل برانيا بعد ثلاثة شهور من وجوده في القرية في ظل أعماله

الحرة التي أتاحت له مزيدًا من وقت الفراغ -إضافةً لعدد السكان المحدود الذي سهل معرفة الناس ببعضها-ليمضيه معها، خاصةً ليسترجع بعض اللغات التي درسها سابقًا مثل الألمانية والروسية التي كان يقرأ عنهما ويعرف مجرد أساسيات اللغة، وتكرر أن رآها أكثر من مرة ليتعرف عليها وأصبحا صديقين بشكل قوي، ليقررا الرحيل من المدينة ذاهبًا إلى العاصمة ياكوتسك.

****

برانيا: «ولم تخبرني بقصتك الحقيقية لإنك ما تزال لا تثق فيّ؟»

مازن: «لا، إطلاقًا، ولكن لا أريد أن أورطك معي».

أخذت رشفة من فنجان شاي قد أعدته لكي تستمع لقصة مازن باهتمام وردت بسخرية تمازحه: «شكرًا لحسن خلقك، ولكن أنا بالفعل معك».

مازن: «ما تزال هناك أمامك فرصة للهروب، وكأنني لم أخبركِ شيء، وكأنه ما زال سري».

برانيا: «نعم، الجميع لديه أسرار».

مازن: «بالفعل».

برانيا: «أتعلم، مهما يكن الأمر أنا معك، سِرك لم يغير موقفي، كما لم يغير سري موقفك».

مازن: «أنت حقًا جميلة».

السر الذي سبق وأن أخبرته برانيا به هو أنها تحبه ولكن كان رده: «قلبي ليس ملكًا لي، وإنما ملك لغيري». ولذلك كان مازن قد أطلعها عن قصة الحب المعلقة، والتي ما تزال تعيش داخله، ومن جهتها احترمت صراحته معها وبقيا صديقين.

- «كما أعلم يا مازن أنه يمكنك الزواج من غير دينك، صحيح؟»

مازن: «صحيح».
برانيا: «إذًا ما الذي منعك من زواجها؟»
مازن: «ليس هناك مشكلة بالنسبة إلينا في كونها قبطية وأنا مسلم، ولكن المشكلة مرتبطة بموافقة الأهالي، فأهلي أنا ربما يوافقون، ولكن أهلها ربما واحتمال بنسبة كبيرة أن يرفضوا».
برانيا: «وأنت لم تجد غيرها إلى الآن؟»
ابتسم مازن ونظر إليها كمن ليس بيده حيلة: «قبل أن أبحث عن غيرها يجب أن أنساها، وإلى الآن أنا لم أستطع».
برانيا: «وما الذي يجذبك نحوها؟»
ساد الصمت لثوانٍ قبل أن يبتسم مازن ويقول: «روحها، جمالها، إنه شيء ما لا أستطيع وصفه، كما لا أستطيع أن أقاومة بدليل أنها تعيش بداخلي إلى الآن».
برانيا: «نعم لقد فهمت، وبالرغم أنها ليست معك ما زلت تحبها؟!»
مازن: «في رأيي أن الحب أعظم بكثير من أن تشعري به فقط في وجود من تحبي، ولكنه يكون أسمى وأعظم بكثير حين تتمنى الخير لمن تحبه رغم علمك أنه ليس لك».
برانيا: «يا لك من رائع، ألهذه الدرجة؟!»
مازن: «وأكثر من ذلك، فأنا أتمنى أن تدور بي الدنيا وأراها مرة أخرى، حتى إن كانت لا تحبني فأنا لا أرغب سوى أن أطمئن عليها لأنني لا أحمل لها أي ضغينة، رغم أنها تركتني، وليس لها في ذاكرتي شيء سيء، فكل خطأ غفرته لها، ولم يبق لها في قلبي غير الحب والذكريات الجميلة».
كان حديثه عنها يقوده لذكرياته الجميلة معها، ولذلك امتد حوارهما طويلًا، فقد انسجم مازن وتأثر بحديثه عنها فكم كان يود الحديث

عن مرام، حيث يشعر بالراحة وعظمة ما يحمله لها، أما برانيا فرغم حبها لمازن إلا أنها سرحت وسبحت بخيالها وأفكارها محاولة تصور ذلك الحب المهول الذي رأته في عينيه حين تحدث عن مرام، فقد كان حديث شخص مخلص لحبٍ طاهر، جعلها تراه شخصًا عظيم في حبه، تلك النبتة التي لم تمت رغم أن مرام لم تروها بوجودها بجانب مازن، وإنما ظلت حية بداخله لأنه يرويها الوفاء والإخلاص.

****

لم يقطع تلك اللحظات غير اتصال دكتورة كندة.

- «مرحبًا مازن، كيف حالك؟»

أجاب مازن في حذر: «الحمد لله أنا بخير، شكرًا لسؤالك دكتور».

دكتور كندة: «أخبرني أين أنت الآن؟»

أجاب مازن مترددًا: «عذرًا دكتور، ولكني لا أستطيع أخبارك فربما هاتفك مرصود».

ضحكت دكتورة كندة وقالت له: «حسنًا، ولكن كيف لنا أن نؤمن وسيلة تواصل آمنة؟ فأنا أريد أن أتحدث معك باستفاضة في أمرٍ هام كما تعلم».

بادلها الضحك على حديثهما المبهم واستأذنها لثوانٍ قصيرة كان خلالها يفتح برامجه الخاصة محاولًا توفير خط آمن بينهما: «حسنًا دكتور، هل تسمعينني؟»

كان الصوت بعيد بعض الشيء فأجابت محاولة التركيز في كلماته: «معك، ولكن الصوت بعيد قليلًا».

مازن: «صحيح، لأنني أقوم بالتشويش على الاتصال، ولكن لا يمكنني ذلك لأكثر من دقيقتين، لذلك علينا أن نستثمرها جيدًا».

دكتور كندة: «هذا الوقت غير كاف، حسنًا، اسمعني جيدًا هناك

مجموعة معامل كيميائية لصديق لي أود أن أطلعك على أمره، ولكن الوقت ليس كافيًا، ولذلك سوف نؤمن شفرة فيما بيننا».

مازن: «حسنًا، أترسلين لي البيانات على البريد الإلكتروني؟»

دكتور كندة: «ليس هناك مشكلة، ولكن دعني أولًا أؤمن الشفرة وأرسلها لك على بريدك الإلكتروني».

أجابها مازن مسرعًا: «ليس على بريدي الإلكتروني». ثم نظر سريعًا لبرانيا ليسألها بابتسامة عن بريدها الإلكتروني.

دكتور كندة: «حسنًا، سوف أرسل الشفرة على هذا البريد، ولكني ربما أرسلها من بريد إلكتروني لشخص آخر؛ فترقب رسالتي».

أنهى الاتصال مع دكتورة كندة وجلس ينتظر تلك الرسالة، ولكن لم يأت شيء، وخلال ذلك الوقت كانت تتساءل برانيا عما فعله مازن لتغطية اتصال آمن.

مازن: «هناك برامج تجسس متعددة، وليست بحاجة إلى أجهزة معقدة أو مبالغ طائلة، فأغلبها تكون برامج للاختراق، وبدوري أستطيع تحويل هاتفك المحمول نفسه إلى أداة للتجسس بتشغيل المايك الداخلي أو الكاميرا حتى وإن كان مطفأً».

برانيا: «يا للهول، وكيف يحدث ذلك؟»

ضحك مازن ورد قائلًا: «كما قلت لكِ، هي مجرد برامج ويتم تطويرها بشكل مستمر».

برانيا: «وليس هناك طريقة لمعرفة الأمر؟!»

مازن: «يمكنكِ ملاحظة الأمر إذا لاحظتي استنزاف غير المعتاد لشحن البطارية، أو السخونة الدائمة للجهاز، أو سماع طنين عند تقريب الهاتف من سماعات وأنتِ غير متصلة بأحد».

برانيا: «وكيف تدري أنهم لا يستخدمون نفس التقنية ويراقبونك؟»

مازن: «الأمر يعتمد على تطوير تلك البرامج وأنا أعمل على تحديثها كل فترة، كما أن لديّ برامج اختراق لتلك الأنظمة لمعرفة ما يصلون إليه من تطويرات، وتجاوزت أيضًا أنظمتهم، فعملية التجسس تتم عن طريق شبكات، وأنا على علم بمن يراقبونني ويتجسسون عليّ ولذلك أقوم بالتشويش على تلك الشبكات، أو يتجسسون ويراقبون عن طريق برامج موجودة لدي لا تحمل كفاءة عالية من التشفير، ولكن ذلك الأمر أيضًا أستطيع التحكم فيه، لديكِ على سبيل المثال برنامجSkypeيستخدم قدرة تشفير عالية الأمان، على عكس برنامج What›s App الذي لا يستعمل أي معيار للتشفير، كما يعتبر أسوأ برنامج من الناحية الأمنية.

كانت البداية في عام ٢٠٠٧ تحت إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دبليو بوش الهدف منه مراقبة مستخدمي الإنترنت في العالم كله والتجسس على تحركاتهم واتصالاتهم في الفضاء الرقمي، فتقوم الوكالة بجمع وتخزين نسخ من الملفات الصوتية والصور والفيديوهات والمكالمات التليفونية ونصوص الدردشات عبر الإنترنت ورسائل البريد الإلكتروني والملفات المرفقة بها إن وجدت، وقائمة بالمواقع التي تمت زيارتها وكلمات وعبارات البحث الخاصة بالمشتركين في خدمات تسع شركات أمريكية هي: مايكروسوفت، ياهو، فيسبوك، بالتوك، أمريكا أونلاين، سكايب، يوتيوب، آبل، جوجل، وطبقًا للجارديان والواشنطن بوست، فقد قامت الوكالة منذ فترة بجمع وتخزين وفهرست ٩٧ مليار تقرير معلوماتي، وكانت إيران أكثر الدول التي تعرضت حركة الإنترنت فيها للمراقبة والتجسس حيث كان نصيبها ١٤ مليار تقرير، وباكستان في المرتبة الثانية بواقع ٥.١٣ مليار تقرير، والأردن في المرتبة الثالثة بواقع ٧.١٢ مليار تقرير، ومصر في المرتبة الرابعة بنصيب ٦.٧ مليار تقرير، ثم الهند في المرتبة الخامسة بواقع ٣.٦ مليار تقرير.

بعد حوارات طويلة، وتساؤلات كثيرة أُثيرت حول ذلك الموضوع انهمكا في ذهول وفقد مازن الأمل في أن تصل الرسالة التي أخبرته عنها دكتورة كندة ولذلك ذهب للنوم، وعلى الرغم من النوم المتأخر إلا أنه استيقظ باكرًا في الصباح، وكان الجو مشمس دافئ، وأقدم على فتح البريد الإلكتروني الخاص بصديقته برانيا بعد أن أتاحت له الدخول في أي وقتٍ يشاء ليرى هل وصلت الرسالة أم لا، ولكنه لم يجد شيء بعد.

توجه إلى المطبخ -حيث كان يستأجر شقة مناصفةً مع برانيا ولكلٍ منهما غرفته الخاصة- وقام بغسل فنجان ليُعِد قهوته إلى جانب الفطور، وأثناء قيامه بتلك المهام كان يهمس ويغني قليلًا من بعض أغاني فيروز، لتدخل عليه برانيا وهي تَحُك عينيها.

- «أنت مزعج».

ضحك مازن واعتذر لها لترد عليه: «ولكن أعجبني اللحن، من مغني تلك الأغنية؟»

مازن: «إحدى أشهر مطربي الشرق، تُدعى فيروز، والمناسبة هي لبنانية الأصل».

برانيا: «أوه، أعتقد أني سمعت عنها من قبل».

مازن: «مؤكد أن والدتك كانت تسمعها أو حَكَت عنها من قبل».

برانيا: «نعم أعتقد ذلك، ولكني لا أتذكر». ثم عادت تسأله بتعجب هذه المرة: «هذه أول مرة أراك تقف في المطبخ؟!»

مازن: «ربما لأننا دائمًا نطلب الوجبات السريعة».

برانيا: «أتحب المطبخ؟»

أجابها مازن مبتسمًا: «نعم، ربما في فصل الشتاء أكثر لأنه يكون أدفأ مكان في المنزل. أتريدين القهوة؟»

ضحكت برانيا وردت قائلة: «نعم أنت محق، حسنًا، أعطني كوب من

القهوة معك وأنا سوف أُخرج الجبن من الثلاجة».
مازن: «بالمناسبة أين والديكِ الآن؟»
برانيا: «هم في الوطن الآن، إنجلترا».
مازن: «حسنًا، أخبريني بعض الشيء عن والديكِ، مثل كيف تعرفا إلى بعضهما البعض؟»
ضحكت برانيا في بادئ الأمر ثم حَكَت له: «ربما هي مضحكة قليلًا لأن مجال عمل كليهما ربما لم يكن يسمح بأن يتعرفا حتى، ولكن الصدف تفعل أكثر من ذلك».
مازن: «أنت تُثيرين فضولي!»
برانيا: «أبي أحد الأثرياء، فهو رجل أعمال استَثمَر في عِدة دول منها الإمارات والسعودية، وانتشر مثل انتشار النار في الهشيم في دول أوروبا، وبالإضافة لذلك عَمِلَ كمؤرخ في إنجلترا لأنه يحب العمل الأدبي، وبعيدًا عن عقليته كرجل أعمال ناجح فهو رومانسي جدًا ويحب الموسيقى، أما والدتي فكانت عازفة على آلة الكمان، كانت تسافر لعِدة دول مع الفرق لتقديم الحفلات الموسيقية، ولذلك كان شغف وحب أبي للموسيقى يقوده ليسافر البلدان لحضور تلك الحفلات، وبالطبع ازدادت تلك الرغبة عندما قابل أمي في سويسرا».
مازن: «وماذا حدث بعدها؟»
برانيا: «تواعدا لفترة ليست طويلة ثم تزوجا وكنت أنا النتيجة».
ضحكا ثم رد مازن ليقول: «وهذه نتيجة ممتازة».
برانيا: «هذا كل ما في الأمر، ومنذ عام أرادا أن ينعما بالهدوء فقررا الاستقرار في إنجلترا وممارسة بعض الهوايات القديمة».
مازن: «أي هواية؟»
برانيا: «قام بعمل محال للزهور، فهو يحبها جدًا».

ضحك مازن ليقول لها: «وترك أعماله في الخارج! يا له من رجل رومانسي!»

برانيا: «لا، ولكنه ترك الأمر لمحاميه لتولي الأمور في الخارج، فهو كما قلت لك رغم أنه عقلية رجل أعمال ناجح إلا أنه يحب الهدوء والرومانسية، ووجد أنه يكفي ٣٠ عامًا من العمل الجاد لينعم بالقليل من الراحة، وأيضًا لأنه لا يحب أن يكون متقاعد افتتح محال للزهور، وبالمناسبة إنه مكان جيد جدًا لتختبئ فيه».

ابتسم مازن وأجاب في دهشة: «أي مكان؟! محل الزهور؟!»

ضحكت برانيا وصححت له قائلة: «لا، أقصد منزلنا هناك، فنحن في إحدى القرى الريفية شمال لندن ولكنها لا تبعد كثيرًا عن المدينة، وتتميز بالهدوء والسكينة، بالإضافة إلى جو مناسب أكثر من هنا».

أثناء ذلك الحوار كانا قد أنهيا فطورهما، وكان مازن يواصل حديثه معها وهو يعمل على حاسوبه الشخصي.

مازن: «لا أعتقد أنها فكرة جيدة الآن، فعلينا الانتظار».

برانيا: «عليك أن تفكر بشأن هذا الأمر».

مازن: «نعم سأفعل». وفي هذه الأثناء توقف مازن عن الحديث ليُبدي دهشة شديدة لما يراه على البريد الإلكتروني: «يا إلهي!»

برانيا: «ماذا حدث؟!»

مازن: «لقد جائتني الرسالة، ولكني أعرف من المُرسِل».

برانيا: «ومن يكون؟!»

****

اثنان على المحك

أغلقت دكتور كندة الاتصال وقامت بإعداد ورقة توضح فيها حروف معينة لتدُل على شيء آخر لتستخدمها كشفرة بينها وبين مازن، وبعد انتهائها من الأمر خرجت من غرفتها بأحد الفنادق بالأرجنتين واتجهت إلى غرفة أخرى لتطرق بابها وتفتح لها مرام.

- «مرحبًا دكتور، تفضلي».

دخلت دكتور كندة وأغلقت مرام الباب لتبدأ سؤالهما بقليل من المرح: «ماذا تفعلان؟»

أجابتها ديمة وهي تطالع الحاسب المحمول: «نشاهد صور رحلة أمس، كانت رحلة رائعة».

دكتور كندة: «حسنًا، هل لنا أن نعمل قليلًا»، بوجهٍ بشوش.

ابتسمت مرام وقالت: «ألم نأت هنا لقضاء عطلة، من الواضح أن العمل يلاحقنا».

ضحكت دكتور كندة وقالت بمزاح: «يكفي كسل لدينا مهمة سرية للغاية».

اتسعت عينا ديمة وقالت تمازحها: «هل بدأت العمل لتوك مع المخابرات؟»

ابتسمت دكتور كندة وتابعت حديثها وهي تخرج ورقة من جيبها: «هذه الورقة لا بد أن يقوم أحدكما بإدخالها على الحاسب ليرسلها على البريد الإلكتروني».

انتبهت مرام وديمة لكلامها وتبادلتا النظرات بابتسام لتقول ديمة: «وما المشكلة في ذلك؟»

تابعت دكتور كندة بلهجة حذرة: «الأمر سري للغاية، فتلك الحروف

هي شفرة، لذا لا بد ألا يطلع عليها شخص آخر غيرنا، لذا يجب تشفير أيضًا الملف قبل إرساله عبر البريد الإلكتروني».
ابتسمت ديمة لترد في حماس وهي تمزح: «أحب هذه العمليات السرية، ولكن ما الأمر».
ضحكت دكتور كندة وأجابتها: «اطمئنا فهو خير إن شاء الله، انهيا الأمر وأرسلاه على هذا البريد، وسوف آتي مرة أخرى لأحكي لكما الأمر».
الصدفة التي جمعت بين دكتور كندة ومرام وديمة هي رحلة سياحية إلى القطب الجنوبي، فقد قررت ديمة ومرام من جانبهما السفر ليغادرا القارة الأسترالية -حيث عمل مرام هناك- متجهتين إلى الأرجنتين لتبدآ رحلتهما إلى بونيس آيرس في الأرجنتين، ثم إلى أوشوايا وهي مدينة صغيرة -يطلق عليها الأرجنتينيون لقب آخر مدينة في العالم- تقع على سفوح جبال الإنديز ولا يتعدى تعداد سكانها ٦٠ ألف نسمة، ومن ثم سفينة تُبحر لمدة يومين لتصل إلى قارة أنتاركتيكا، وقد التقيتا بدكتور كندة مصادفة ضمن الفوج الذاهب إلى القارة القطبية، وسابق المعرفة بينهم أن والدة ديمة كانت إحدى أَعَز أصدقائها وبالطبع كانت تعرف ديمة، ولذلك ما أن تلاقتا وترامت الأحضان وتعرفت لأول مرة على مرام.

****

- «هل تعرفينها؟»
أجابت برانيا في اندهاش: «لا لم أكن أعرفها من قبل!»
تعجب مازن حين رأى أن البريد المرسل لرسالة دكتور كندة هو البريد الخاص بمرام، وتخبطت أفكاره وأثار الأمر فضوله، وظل هكذا لساعات ولكنه عاد لوعيه وبدأ يدقق في تلك الشفرة التي أرسلتها دكتور كندة ليكتب أول رسائله لها باستخدامها لكي يخبرها أنه ذاهب إلى إنجلترا إذا أرادت لقاءه هناك.

وعلى الزاوية الأخرى من المحيط الهادئ،كانت ولأول مرة منذ أكثر من عام تتحدث مرام بشأن مازن.
- «أما زلتِ تتحدثين إلى مازن؟»
توقفت ديمة عن مطالعة جوالها واتسعت عينيها ثم نظرت إلى مرام وأجابتها مبتسمة: «لا أذكر متى آخر مرة تحدثنا، ولكن أخبريني أما زلتي تتذكرين الأمر؟!»
أجابت مرام بشيء من الكبرياء: «أنا لم أنس من البداية، ولكن هذا هو حال الدنيا ننشغل بما نحن فيه». أخذت نفسًا طويلًا ثم استكملت تسأل: «أخبريني متى آخر مرة تحدثتِ معه تقريبًا؟»
حاولت ديمة التذكر ثم أجابت غير متأكدة: «تقريبًا منذ ٥ شهور»، ساد الصمت قليلًا لتستكمل بسؤالها: «ماذا! أشعر أنك لست بخير؟»
سَرَحَت مرام قليلًا وعادت تنتبه لكلام صديقتها وتجيبها: «لا أنا بخير، كل ما في الأمر أنه قد أوحشني وصرت أتخيله كثيرًا في الفترة الأخيرة».
نظرت إليها ديمة والابتسامة تملأ شدقيها: «أتشتاقين له كصديق؟ أم أنكِ ما زلتِ تحبينه؟»
سَكَتت مرام طويلًا وأجابت ببصر شاخص: «لا أدري، ولكن كل ما أعرفه أنني اشتقت للحديث معه واشتقت لرؤياه، واشتقت لأيام زمان، والأهم من كل ذلك أنني أشعر بالذنب».
أجابت ديمة ويمتلكها الغضب: «أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم! هذه هي المشكلة أنكِ ما زلت تفكرين بالعتاب واللوم ومن المذنب ومن صاحب الحق في حين أن الحب لا يعترف بتلك الأمور، إذا كنتِ تشتاقين له حقًا راسليه».
وبطبع مرام أنها كثيرة التفكير إلا إذا كان الأمر يتعلق بمازن فهي لا تعرف أن تفكر من الأساس، ولذلك استغرق الأمر منها كثيرًا لتفكر

مرة واثنين وألف، وكأنها تحاول أن تتعرف عليه من جديد، وربما الأمر أصعب إليها لأنها تعلم أنها من بادر بالخروج من حياته.
وفيما قاد مازن تفكيره إلى ذلك الزمن الجميل وبالتحديد بعد تلك الرسالة التي أرسلتها مرام، وهي لا تعلم أن تلك الرسالة مرسله إليه عن طريق البريد الإلكتروني الخاص ببرانيا، وكأنها الأقدار بدأت تلعب دورها ليحين وقت لقائهما من جديد بعد سنين الجفاف.
في الوقت نفسه على الجانب الآخر كان هناك حرب معلومات حول العناصر المطلوبة والتي منها مازن، ومرام، وأصبح معروف لدى مازن أنه مستهدف ومطلوب الحصول على المعلومات التي يمتلكها بأي ثمن كان، أما بالنسبة لمرام فالأمر يختلف قليلًا، فعندما ذهبت إلى أستراليا وباشرت عملها بكل شغف وإبداع، بدأت تظهر بصمتها القوية في مجال الأدوية لتلتحق بمعمل الأبحاث في المستشفى لتطوير القدرة العلاجية للأدوية، وبدأت تُظهر أبحاثها نتائج مذهلة لتُثبِت كفائتها وهي في سن صغير؛ ذلك ما دفعها أكثر لاكتشاف ما لم يُكتَشَف بعد، لتجد أمامها أحد السموم الفتاكة التي لم يوجد لها مصل إلى الآن وهو سُم أخطبوط الحلقات الزرقاء، ويتركز السُم في الغدد اللعابية للأخطبوط.
هذا الأخطبوط إذا فقد أحد أطرافه بسبب المطاردات من المفترسين فيمكن أن ينمو هذا الطرف خلال ستة أسابيع، ويُقَدر عُمره بنحو عامين، ويتركب سُم الأخطبوط من عِدة مركبات كيميائية هي:
Tetrodotoxin – Hydroxytryptamine – Octopamine – Taurine – Acetylcholine – DXopamine
وتعتبر مادة الـ Tetrodotoxin هي المركب الرئيسي لسُم الأخطبوط، وهو يعتبر من أقوى السموم العصبية، حيث تعادل قوته قوة مركب السيانيد ١٠ آلاف مرة.

السُم كفيل بقتل إنسان بالغ في دقائق قليلة عن طريق إحداث شلل في عضلات التنفس وتوقف القلب والموت، والحل الأمثل عند التعرض للعض هو التنفس الصناعي بصورة سريعة وإلا سوف يموت الشخص مختنقًا على الفور، وتوفير العناية الطبية الفائقة في المستشفى، ويتواجد ذلك النوع من الأخطبوطات في المياه الضحلة في الأحواض الحجرية والشقوق والصدوع من مياه المحيط الهادي الواقعة بين أستراليا واليابان، ولذلك كان وجود مرام باستمرار بين تلك المنطقة وأمريكا في ولاية ماساشوستس حيث وجود معمل الأحياء البحرية، لتطور الأمور في أبحاثها من مستوى التطوير إلى مستوى الاكتشاف، ومنذ بداية اهتمامها في ذلك الشأن وهي تحت المراقبة من إحدى المنظمات والتي لها أغراض في عدم ظهور علاج لهذا السُم دون أسباب معلومة حتى الآن!

ولذلك مطلوب قتلها وإعدام كافة التفاصيل المتعلقة بذلك البحث، أما مازن فتسعى خلفه نفس المنظمة الإسرائيلية وأكثر من جهة أخرى، أبرزها إحدى الوكالات المكونة من أفراد أمريكيين وأوروبيين.

لودميلا: «أنا لا أدري ماذا تفعلون؟! أين هي معلوماتنا!»

آلكوت: «نحن نجمع المعلومات حول الهدف، وتفاجئنا بشخص آخر يسعى وراءه وذلك ليس من مسؤوليتنا».

لودميلا: «ولما لم تقتلوه؟»

آلكوت: «لقد حاولنا بالفعل ولكنه اكتشف أمرنا وهرب، ولكننا استطعنا أن نأخذ له صورة، ها هي».

في هذه اللحظة أخرج آلكوت من جيبه صورة لبيلي الذي كان يعمل مع مازن في قطر!

لودميلا: «اجمع حوله كافة البيانات اللازمة وأرسلها مع صورته إلى

أودري، وقل له أن يقتله ويحصل على كافة المعلومات التي لديه من هاتفه النقال، حاسوبه المحمول، كل ورقة لديه يجب أن نحصل عليها، فنحن لا ندري ربما حصل على معلومات قيمة من الهدف».
بالطبع جميعهم حلفاء ولكن لا بد وأن يتم التنسيق بينهم من تحت الطاولة، ولكن ما يجعل تلك الوكالة تريد التخلص من بيلي دون اهتمامها بأنه يتبع لأحد المنظمات التي تسعى لنفس أهداف الوكالة أم لا فهذا يدل على أن التنسيق لم يتم من الأساس! أليس أمرًا غريبًا؟! ولكن لما لا؟! فهذا يدل على قيمة المعلومات التي لدى مازن! فربما هم على علم، ولكن المعلومات تستحق أن تُشعِلَ حربًا بين أقرب وأقوى الحلفاء.
في النهاية هم حلفاء أمام العالم، ولكن ليس هناك أي مانع أن يتناحروا فيما بينهم سرًا إذا كان الأمر يستحق فما زالت الضحية واحدة، وبالتأكيد هم العرب ودول العالم الثالث، وعلى أتم استعداد أن يواصلوا قتل العديد وأن يتسلقوا جبلًا من الجثث للوصول لمبتغاهم، فتلك هي ديمقراطيتهم المزعومة، وذلك هو السلام الذي يدعون إليه!

****

في تمام الساعة ٢ بعد منتصف الليل بتوقيت الأرجنتين تلقت مرام اتصال من صديقتها هيلينا في أستراليا، إحدى زميلاتها في المستشفى بأستراليا، واتصلت لتُخبرها أنه تم حرق المعمل بالكامل بالإضافة إلى حرق مكتبها على وجه التحديد في المستشفى.
- «نَشَب حريق أمس في الدور الخاص بالمعمل كما تم حرق مكتبك».
كان النوم يخامر عينيها وما أن سمعت كلمة حريق بدأت تستيقظ لتُجيب بشيء من الذهول: «يا إلهي! وماذا أفادت التحقيقات؟»
هيلينا: «التقرير المبدئي يرجح أن سبب الحريق هو تسريب في الغاز،

ولكن بالنسبة لحريق المكتب لم يُعرَف السبب بعد».
ردت مرام في قلق: «هل تضررت المستشفى كثيرًا؟ وهل من مصابين؟»
هيلينا: «كما تعلمين المعمل لا يعمل في المساء ولم يُصَب أحد غير أفراد الأمن المسؤولين بحراسة القسم، وهي جروح بسيطة».
ساد الصمت قليلًا قبل أن تسأل مرام عما يجول في خاطرها: «ألا تجدين الأمر غريبًا؟!»
أجابت هيلينا بحذر: «بلا شك الأمر ليس طبيعيًا وهناك أشخاص وراء الموضوع، فمن قام بذلك الأمر يستهدف أماكن بعينها، فلماذا المعمل على وجه الخصوص ولما مكتبك بالتحديد!»
مرام: «أنا لا أريد تصديق ذلك، لكن على ما يبدو أن الأمر كما أظن».
ترددت هيلينا قبل أن تجاوبها بيقين: «هناك شخص ما يسعى للنيل منك، ولكن عندما لم يجدك أحرق المكتب والمعمل بالكامل، وهذا يعني أنه لا يسعى خلفك فقط وإنما هناك شيء في عملك يريد محوه».
اتسعت عينا مرام لترد هي الأخرى بكل يقين: «ولا شيء هناك سوى مصل سُم الأخطبوط والأبحاث الخاصة به».
قاطعتها هيلينا وردت بخوف: «أظن أنه يتوجب عليكِ الهَرَب».
لم تستطع مرام أن تعود إلى نومها من كثرة التفكير فيما ينتظرها من مصير مجهول، فقد كانت حياتها مستقرة قبل دقائق معدودة لتجد الآن أن هناك من يسعى خلفها ولا تدري هل سيتوقف الأمر بمجرد الوصول لاكتشافها -المصل- أم أن الأمور قد تصل إلى قتلها؟! وظلَّت تَغُطُ في تفكير عميق حتى الصباح، ومع سطوع الشمس ازداد الأمر سوءًا ليأتها اتصال من معمل الأحياء البحرية في أمريكا مفاده أنهم اكتشفوا في الصباح بوجود خرق أمني بالمعمل، وبتقنين المفقودات في المعمل وجدوا أن أوراق البحث الخاصة بمصل أخطبوط الحلقات

الزرقاء قد اختفت ولم يَعُد لها أي أثر، كما أنه حدث عطل في قاعدة البيانات وربما يؤدي ذلك إلى مسح كافة البيانات.
انتهى الاتصال وأغلقت مرام الخط وهي في حالة ذهول رهيبة، وأيقنت أنهم قريبون جدًا منها، وأن الأمر لن يتوقف عند ذلك الحد، خصوصًا وأن كل ما تم إخفاءه من المعمل في أمريكا، وكل ما تم حرقه في أستراليا لديها نسخ من كل هذه المعلومات على الحاسب المحمول الخاص بها.
ما كان منها إلا أن تكون في حيرة من أمرها ولا تدري ماذا تفعل، حتى استيقظت صديقتها ديمة لتجد علامات الرعب على وجهها، وبالطبع أخبرتها حقيقة الأمر.
- «وما العمل الآن؟ بالتأكيد هناك حل ما لهذه المشكلة؟!»
أجابت مرام وهي متعمقة في التفكير بلهجة حذرٍ وخوف: «أنا لا أستطيع التفكير بشيء الآن،كل ما يشغِل تفكيري هو ترتيب الأحداث، فقد بدأ تسلسل الأحداث من ليلة أمس بحريق نشب في المستشفى بأستراليا، وبالتزامن مع إخباري بالأمر كان قد تم محو كافة البيانات في معمل الأحياء البحرية بأمريكا، مما يعني أن الفرق بين وقوع الحادث الأول والثاني تقريبًا ١٢ ساعة أو أقل»، استكملت حديثها باستنتاج آخر يرعبها: «ما قد يعني أنه بحلول الصباح لن نكون على قيد الحياة!»
كادت عينا ديمة أن تلفظا دموعهما رعبًا لتقول دون تردد: «إذًا الأمر لا يستدعي التفكير، علينا بحزم أمتعتنا فورًا».
هبت من مجلسها غير مبالية بشكلها على غير العادة، كما لم تغسل وجهها وإنما اتجهت إلى الدولاب ملقية بأغراضها على السرير، فيما كانت ما تزال مرام تنظر إلى الفراغ وكأنها لم تستوعب بعد ماذا ينتظرها، استوقفهما من يطرق بابهما وقد توقفت معه نبضات قلبيهما متبادلتين النظرات!

لم يحرك أحدٌ منهما ساكنًا لفترة تجاوزت الـ ١٠ ثوانٍ؛ حتى جاءهما صوت دكتور كندة من خلف الباب تتساءل عم إذ كانتا بالغرفة أم لا، بعد دخولها لم يلزمها كثير من الوقت لكي تعلم أن هناك أمرًا ما يجري، فتلك الملابس المتناثرة على السرير، وحقيبة السفر المفتوحة وتأخرهما في فتح الباب، كما نظرات الرعب أيضًا التي بَدَّلَت ملامحهما.

ديمة: «من المؤكد لن تعود للعمل بأستراليا، أنا أقترح أن نعود إلى مصر».

كندة: «ما رأيك مرام؟ ألا تشركينا معك في التفكير؟!»

ردت مرام بمنطقية: «إذا سافرنا الآن فالخيارات أمامنا ليست كثيرة، إما أن نعود إلى أستراليا أو أذهب إلى أمريكا أو نعود لبلادنا».

دكتور كندة: «حسنًا، إذا كان لديك نية الخروج من الأرجنتين عليك العودة إلى أستراليا».

تعجب كلتاهما لكلام دكتور كندة ولم تستوعبا الأمر فلا يكون لإحداهما رد سوى الدهشة. لتُكمل دكتور كندة موضحة: «من يحرق مستشفى في أستراليا، ثم يخفي بيانات هامة في أمريكا، إذًا هو يسعى بكل جهده ولن يبقى حيث هو حتى يصل إليكِ، إذًا فكرة عودتك لأيٍ من البلدين لن يتوقعها أحد، ربما لن تكوني بأمان كبير هناك ولكنه سوف يكون وضع مؤقت».

سألت مرام: «إذًا أنت تخططين لخطوة أخرى غير أستراليا؟!»

نظرت إليها وقالت لها بثبات لتصارحها: «بالفعل هناك خطوة أخرى حيث سوف نحصل لكِ على تأشيرة الدخول إلى إنجلترا».

عادتا لتعجبهما وعقدت مرام حاجبيها في اندهاش لتُكمل دكتور كندة بأسف: «أنا لست بارعة في أمور الهروب، لذلك سوف نلجأ لمساعدة أحدهم في إنجلترا».

أجابت ديمة بحكمة: «أظن أنه علينا قبل الهرب أن نفكر لماذا علينا الهرب، ولماذا مرام مستهدفة! فبالتأكيد هي لن تظل هاربة طوال حياتها! لذا يتوجب علينا تسوية الأمر».

أجابتها دكتور كندة سريعًا: «من يلاحق مرام يعلم جيدًا أنها غير موجودة في أستراليا وغير موجودة في أمريكا، لأنه بالتأكيد يراقبها منذ فترة عن كثب، وإذا كان يريد التفاهم معها كان ليُرسل لها أي دعوة نقاش ولكن ذلك لم يحدث، وإنما ما حدث في أستراليا وأمريكا يوضح نواياه، بالتأكيد يتوجب علينا تسوية الأمور ولكن تلك الخطوة بعد أن تهرب، فتلك الأحداث المتسارعة توضح أنها في خطر وعليها أن تتوارى عن الأنظار لبعض الوقت حتى نستطيع التوصل لاتفاق مع هذه الجماعات».

****

كما توقعت دكتورة كندة، ففي تلك البناية الموجودة في تركيا كانت لديهم حالة تأهب قصوى وأصدروا الأوامر بالفعل باختفاء أي قُصاصة ورقة متعلقة بمصل أخطبوط الحلقات الزرقاء، وقتل مرام.

خافير متكلمًا من الهاتف في أمريكا: «لقد تم الأمر».

مكارثي: «إذًا عُد إلى الأرجنتين وانه كل شيء».

خافير: «لك ما تُريد».

ثم أغلق مكارثي الهاتف وبدأ يتحدث معه جون.

جون:« أمتأكد أنه أخفى كل ورقة متعلقة بذلك المصل؟»

مكارثي: «بكل تأكيد، وهو الآن في طريقة إلى الأرجنتين لإنهاء كل شيء، هل من أخبار عن المستشفى في أستراليا؟»

جون: «على المستوى المحلي في أستراليا فقط، وإنما عالميًا ليست مُسَلَّطة الأضواء على الحادث وليس له ذِكر».

ابتسم مكارثي بشكل واثق: «نولان ممتاز ومحترف، وأنا أعول عليه لإنهاء الأمور المتعلقة بمازن بعد الانتهاء من مرام».
جون: «وماذا بشأن بيلي؟»
مكارثي: «هو يساعدنا للوصول لمازن، ولكن ذلك لا يمنع من إشراك نولان في الأمر، فقد استعنَّا ببيلي لأنه كان زميل لمازن في العمل وذلك سوف يساعدنا بكل تأكيد».

****

لم تَكُن الخيارات كثيرة أمامها، لذلك سارعت مرام بالسفر إلى أستراليا في يومٍ أجواءه ماطرة، ملبدة بالغيوم وكم كانت تبعث بها تلك الأجواء الشعور بالرعب، فهي تختبر شيء لم تعتده سابقًا، في حين سافرت ديمة إلى مصر، وبقيت دكتور كندة في الأرجنتين إلى أن تنهي ترتيباتها بشأن مرام.
تحدثت إلى مرام فور وصولها إلى أستراليا حتى تخبرها أنها لن تتوقف في إنجلترا وإنما وجهتها الأخيرة في باريس، حيث هناك إحدى الشقق التي تملكها دكتور كندة وبإمكانها أن تمكُث هناك، ولكن يلزمها ألا تسافر مباشرة من إنجلترا إلى فرنسا، فهي تحاول تعقيد الأمور على من يتعقبها؛ لذا كانت تخطط إلى سفرها بحرًا إلى ألمانيا أولًا، ثم إلى باريس عبر القطار، أثناء حديثهما لاحظت سماع صوت طنين أزعج أُذُنها لتُبعِد الجوال عنها، ناظرة للهاتف إذا كان هناك اتصال آخر أو أحد إشعارات الهاتف لتجد أن الطنين ما زال موجودًا وقويًا، حاولت تقريب الهاتف من سماعات السيارة ووجدت أن الطنين ازداد بشكل قوي جدًا، وأيقنت حينها أنه هناك من يتعقب الاتصال أو يتجسس على المكالمة، ولذلك سارعت بإغلاق الخط ومن ثم أغلقت الهاتف تمامًا.
أيقنت وقتها دكتور كندة أنها مهددة بالخطر، كما أنها ما تزال خائفة

على مرام وحدها، وظلَّت تُفكر طويلًا كيف السبيل للوصول لها وتطمئن على مصيرها المجهول، ولم يهديها التفكير إلا لطريقة واحدة ليس لها بديل، وباشرت تنفيذها على الفور، حيث قامت بإرسال رسالة مشفرة إلى مازن على بريده المستعار، وكان نص الرسالة كالتالي:

»ابني العزيز مازن، أتمنى أن تكون في تمام الصحة والعافية، أعلم أن الأمور اشتدت عليك ضيقًا وأعلم بوضعك الصعب ولكن الخيارات ليست كثيرة أمامي الآن، على أي حال هناك إحدى الصديقات المقربات ذاهة إلى إنجلترا، وهي دكتورة تُدعى مرام، أرجو أن تتواصل معها عبر الرقم المذكور وتُعلِمها بأن تتجه إلى فرنسا بعد الذهاب إلى ألمانيا، الأمر يكاد يكون معقد بالنسبة إليك لفهمه الآن، ولكنك ستفهم كل شيء إذا سنحت لك الفرصة بعد أن تتصل بها، ورجاءً لا تتأخر عليها بالاتصال فعليك الاتصال بها في غضون أسبوع من الآن، وأخيرًا كم كنت أود أن نلتقي في بلادنا، ولكن نحن لم نعلم بعد ماذا تُخبئ لنا الأقدار!«

استقبل مازن تلك الرسالة بذُعر وريبة خوفًا مما تخفيه هذه اللهجة لدكتورة كندة، واستنتج منها أمرين، أولهما أن مرام في خطر وذلك ما يدعوها لعمل عِدة سفريات إضافة لقلق دكتورة كندة عليها، والأمر الآخر أن لهجة دكتورة كندة في الرسالة توحي بأنها أيضًا في خطر، ولذلك بعد قراءة رسالتها كانت الأفكار لدى مازن متخبطة ولا يدري ماذا عليه أن يفعل؟!

****

الجميع بخير

١-الموعد.

- »مبارك وصولك يا لمياء، حمدًا لله على سلامتكم جميعًا«.
محمد بمزاح وهو مرهق من سفر طويل من مصر إلى إنجلترا: »حسنًا، هي قد جاءت من أجل العمل، ولكن لما طلبتني؟ ما الفائدة من وجودي؟ وأخبرني لماذا أطلقت شاربك؟«
لمياء بتعجب: »حقًا لم أعرفك! لقد تغير شكلك كثيرًا«.
ضحك مازن وأجابهما: »هذا من أجل الدواعي الأمنية يا شباب، أن تكون هاربًا أمر ليس سهلًا على الإطلاق«.
ضحك الجميع ثم أكمل مازن قائلًا: »سوف أخبركم كل شيء عندما نصل، ولكن أخبروني كيف حال البلاد؟«
لم يلق مازن إجابة غير ضحكاتهما ليسأل مرة أخرى مندهشًا يمازحهما: »ألهذه الدرجة الوضع مضحك في مصر؟!«
أجاب محمد مستمرًا في ضحكاته: »في الحقيقة هذا تأثير ما نراه من مرسي وجماعة الإخوان، وهما في الأصل وجهان لعملة واحدة«.
مازن: »أنت مُحق، على كُلً فلنترك السياسة الآن وشأنها، أخبروني كيف حال أمي وأبي وميار؟ هل هم بخير؟«
لمياء وابتسامة على وجهها: »لا تقلق، الجميع بخير. هم فقط يشتاقون لرؤياك«.
عاد محمد يسأل مرة أخرى في نفاد صبر وهو يمازح صديقه: »حسنًا، لقد طال الطريق يا هذا، أتحاول خطفنا ؟! كما لم تخبرني بعد لماذا

جِئت بي إلى هنا؟!»
ضحك مازن وأجابه: «لا تقلق قاربنا على الوصول فالمنزل بعيد قليلًا عن قلب المدينة ولكنه مكان هادئ، وهو مكان ملائم لكي أتحدث إليك، كُن صبورًا يا فتى».
دخلوا جميعهم إلى المنزل وألقوا التحية على برانيا وأبويها، ثم ذهبوا إلى المنزل المجاور الذي استأجره مازن عندما وصل إلى إنجلترا لأنه لم يرض بقاءه في منزلهم وشكر لهم حُسن ضيافتهم.
- «اسمعني جيدًا يا صديقي، لقد انتهى وقت المزاح وعلينا أن نتحدث بجدية أكثر، أنا أعلم أنك قلوق ورغم ذلك سوف أشرح لك وبكل وضوح ولن أحاول تجميل الأمور».
نظر إليه محمد بخيبة أمل ورد محاولًا أن يخفف من وتيرة الحديث الذي يبدو أنه مؤلم: «حسنًا، هات ما عندك، فأنا أعلم أنك دائمًا تُخفي الكوارث».
قاطعتهم لمياء: «معذرةً يا شباب، ولكن ألا يتوجب علينا التحدث بالإنجليزية حتى تفهمنا برانيا، فمن العيب أنها تجلس بيننا وهي لا تدري شيء عما نقول».
ضحك مازن وتوجه بحديثه إلى برانيا قائلًا: «هي تعتقد أنك مستاءة لأننا نتحدث لغة لا تفهمينها».
ابتسمت برانيا وردت تقول للجميع: «لا، لا مطلقًا، لقد أخبرني مازن سابقًا عن الأمر وأنتم بحاجة لكي تتحدثوا سويًا الآن، أنا سوف أقوم بإعداد القهوة لكم فيما تتحدثون».
ردت لمياء تمازحها: «حسنًا، وأنا سوف أنضم إليكِ وأُعلمكِ العربية لكي تتحدثينها معنا».
- «في حقيقة الأمر يا صديقي أنا لن أكذب عليك، فنحن وضعنا سيء

والفرص أمامنا قليلة».
انتاب محمد الذعر وبدأ ينتبه ليحاول فهم ذلك الوضع الضبابي: «حسنًا، ولكن علينا بتفنيد الأمور لكي نستطيع حلها، أولًا لمياء قد جاءت من أجل العمل، ولكن لماذا طلبتني معها؟»
أحنى مازن ظهره مقتربًا في جلسته من محمد: «حسنًا، أولًا ما لم أستطع أن أخبرك به، أنني بحاجة لمساعدة لمياء لتنفيذ مشروعي».
اندهش محمد ورد قائلًا: «أليست أبحاثك مكتملة؟ وبالطبع لمياء لن ترفض، ولكن ألهذا السبب طلبتني!»
مازن: «بالطبع لا، ولكن قد استطعنا تدبير ذلك العمل للمياء لكي يكون متاح لها الدخول إلى المعامل لكي نستطيع أن نطلق أولى تجاربنا من تلك المعامل فالأبحاث مكتملة وينقصنا أن نبدأ التجارب، أنا لا أستطيع العمل الآن في أي جهة حتى لا ينكشف أمري، فكما تعلم أنا هنا بجواز سفر صربي وربما قد انتشرت مشكلتي في الأوساط العلمية، ولكن لمياء هي الوجه غير المعلوم، فتلك مخاطرة كبيرة لا أستطيع أن أجبرها عليها، لذلك يجب أن تشترك معها في القرار».
ابتسم محمد ورد بكل ثقة: «لمياء كبيرة بما فيه الكفاية لكي تتخذ قراراتها بنفسها، صحيح أنني أخاف عليها، ولكن بكل تأكيد أنت أيضًا سوف تخاف عليها وتحرص على سلامتها». ساد الصمت قليلًا وهم يتبادلان الأحضان ليعاود محمد حديثه مازحًا: «كما أنك بالتأكيد تعلم أنها كم كانت تود العمل معك في ذلك المشروع، ويا ويلي منها إذا رفضت الأمر».
ضحك مازن ثم نقل حديثه إلى أمر آخر: «حسنًا، ألا تريد أن تعرف لماذا طلبت أن تأتي؟»
أومأ محمد بوجهه علامة الإيجاب منتبهًا ليُكمل مازن حديثه: «أنا لا

أستطيع الوصول إلى دكتور كندة، وقد وصلتني رسالة منها منذ ثلاثة أيام، وبعد ذلك قُطِعَت كل أخبارها وهاتفها مغلق، ورسالتها مريبة حقًا، خُذ اقرأها».

بعد فترة وجيزة انتهى محمد من قراءة الرسالة ليعيدها لمازن قائلًا في ريبة وارتباك: «حقًا كلماتها توحي بالخطر، ولكن أخبرني هل تقصد في رسالتها مرام زميلتك؟!»

أغمض مازن عينه آخذًا نفسًا عميق: «بالفعل هي! وما أكد لي الأمر أن دكتور كندة أرسلت لي بريد إلكتروني من البريد الخاص بمرام سابقًا، لذا ليس هناك مجال للشك أن مرام قد تكون شخصًا آخر لا أعرفه».

محمد في دهشة: «سبحان الله! ما هذه الصدفة العجيبة! وكيف تعرفتا على بعضهما؟»

مازن: «لا أعلم، الأهم الآن أن الرسالة كما رأيتها لا تُبَشِّر بالخير».

محمد: «والآن ماذا ستفعل حيال ما طلبته منك دكتور كندة؟»

أجاب مازن مُضطرِبًا: «هناك شكوك أن يكون هاتف مرام مراقب، لذا لا نستطيع المجازفة».

ساد الصمت كثيرًا قبل أن يكسره محمد قائلًا بحكمة: «حسنًا، اسمعني جيدًا، أنت لديك ما يكفيك من المشاكل، وبالطبع أنا أعرف ماذا تعني مرام بالنسبة لك، ولكن الأمر ليس سهلًا! فإذا كان هاتفها مراقب كما تقول، وهذا احتمال وارد جدًا، بذلك أنت ستقوم بكشفها لدى من يتتبعوها وربما تكشف نفسك أيضًا، وبذلك أنت لن تساعدها وإنما سوف تضُرها».

أجاب مازن باندفاع: «وبالطبع لن أقف مكتوف الأيدي، أنا لم أجد الحل إلى الآن ولكن بالطبع لن أتركها ولن أخاف على نفسي أكثر من خوفي عليها!»

محمد: «يا صديقي، أنا لم أقُل لك أن تتركها وتمضي، أنا فقط أُريدك أن تضع في الاعتبار وضعك ولا تنس أنك هارب أيضًا».
كان صوتهما جليًا بما فيه الكفاية لكي تنتبها برانيا ولمياء، حيث بدأ النقاش يبدو أكثر تعقيدًا لعدم الوصول لحل.
- «حسنًا وجدت الحل الأمثل، سوف نُجري اتصال سريع بمرام أخبرها بما يتوجب عليها أن تفعله دون أن أتلفظ بأي معلومة، أما من جهتي فلن يستطيع أحد معرفة ما أقوله لها، وبذلك لن يستطيع أي شخص يتعقب مرام معرفة إلى أين سوف تذهب ومتى».
محمد: «ولكنك هكذا سوف تُيسر عليهم الوصول إليها إذا كانوا يتعقبون اتصالاتها؟!»
مازن: «عامل الوقت ليس في صالحنا حيث يلزمهم ٣٠ ثانية ليحددوا مكانها، لذا علينا أن ننهي المكالمة في خلال ٢٥ ثانية كحدٍ أقصى لكي نكون في أمان».
دخول ميار في وسط حديثهما جعلها متعجبة ولا تعرف عما يتحدثان لتتساءل مندهشة: «أنا لا أفهم عما تتحدثان!»
محمد: «انتظري وسوف أشرح لكِ». ثم توجه بحديثه إلى مازن بعد أن أيقن أمرًا في غاية الخطورة: «ولكن إن كانوا يتعقبون لها أي اتصال ليصلوا إليها، فنحن لا ندري إن كانت قد قامت في هذه الفترة بعمل أي اتصال وهل وصلوا إليها أم لا! وربما تقوم بالاتصال بشخصٍ ما الآن فيما نحن هنا نتحدث!»
انتبه مازن لكلامه بذعر ورد في قلق: «إذًا علينا العمل سريعًا والتحرك في أسرع وقت ممكن».
يومين قبل الموعد.
- «آلو!»

مازن: «مرام، أنا مازن من فضلك لا تجيبي سوى بكلمة حسنًا ولا بأس».
اندهشت مرام وصارت تُثار التساؤلات داخلها ولكنها جارته فيما طلب:
«حسنًا».
مازن: «هناك احتمال كبير أن يكون هاتفك مراقب، ولذلك لا تكرري أي معلومة أقولها لك».
مرام: «حسنًا».
مازن: «أحضري ورقة وقلم سريعًا وأكتبي ما أقوله لكِ».
مرام: «حسنًا، أخبرني».
مازن: «بعد غد الساعة ٣ عصرًا في ميدان ترافالغار (Trafalgar)، مرام لا تتأخري».
مرام: «حسنًا».
مازن: «لا تحاولي الاتصال بأي شخص أو أن تستقبلي أي اتصالات حتى ألقاكِ».
مرام: «حسنًا، لا بأس».
مازن: «أراكِ قريبًا، إلى اللقاء».

****

يوم واحد قبل الموعد.
- «ألم نستطع الحصول على مكانها؟»
جون: «كنا على وشك، ولكن قطع الاتصال قبل الانتهاء بثوانٍ قليلة».
سَكَت مكارثي قليلًا قبل أن يستكمل جون قائلًا في ثقة: «لما القلق! نولان يتتبعها، ونعلم أنها في إنجلترا والوصول لموقعها تحديدًا هي مسألة وقت ليس إلا».
مكارثي: «حسنًا، أعطه الأوامر بإنهاء المسألة برمتها، نُريد أن نتفرغ قليلًا لأعمالنا الأخرى».

من جهة أخرى بدا أنه سوف تحدث تصادمات قوية بين طرفي النزاع، الوكالة الإسرائيلية والمنظمة متعددة الجنسيات.
آلكوت: «لديّ أخبار جيدة».
لودميلا وهي متفاجئة: «رجاءً أخبرني، أنا بحاجة لسماع شيء جيد».
آلكوت مبتسمًا: «لقد عَلِمنا بمكان وجود مازن».
لودميلا وهي متفاجئة: كيف؟! أهى معلومات مؤكدة؟!»
آلكوت: «بنسبة ٩٠٪». ثم تطرق شارحًا: «أولًا حَصُلنا على معلومات تؤكد وجود بيلي في إنجلترا، وتأكدنا من كونه يتتبع مازن، ومن هنا أجزمنا وجود مازن وبالتحديد في لندن».
لودميلا وهي مندهشة بابتسامة: «وبيلي أيضًا! يا له من صيد ثمين، ولكن ذلك لا يؤكد وجود مازن، فربما بيلي هنا لسبب آخر».
آلكوت: «لا أظن ذلك لأنه منذ قدوم بيلي منذ ٤ أيام ونحن نراقب مطار لندن وفوجئنا بشخص يشتبه أن يكون هو مازن بالفعل».
لودميلا: «إذًا أنت تعرف ماذا عليك أن تفعل».
آلكوت: «بالضبط».
لودميلا: «أودري ينهي أمر بيلي، وحاول أنت وفريق معك أن تحددوا مكان مازن بالضبط لنحصل على ما لديه».
آلكوت: «ومن الممكن أن نتتبع بيلي ليقودنا لمكان مازن، ثم نتخلص منه بعد ذلك؟»
لودميلا: «فكرة صائبة، إذًا شدد الرقابة على بيلي ونسق مع أودري ليكون مستعدًا».
يوم الموعد.
ميدان ترافالغار يُعَد مكان سياحي، وهو عبارة عن ساحة كبيرة يتجمع فيها الناس للهو والمرح، فهو مكان جيد للنزهة حيث المساحة الواسعة

والنافورات ذوات الأشكال الجمالية، كما للمعمار دوره أيضًا في إضفاء بعض الشكل الجمالي على المكان، فَتَطُل الساحة على أكثر من خمسة شوارع تتفرع من الميدان.

المشهد العام كثير من المارة وسيولة مرورية في الميدان وشوارعه المجاورة، وشاحنة سوداء يقودها مازن ومعه برانيا ومحمد ولمياء، ليتوقف على جانب الطريق قبالة ساحة الميدان.

مازن في حماس: «ماذا بكم يا شباب؟ أراكم متوترين!»

ابتسمت برانيا وأجابته: «بالطبع نحن كذلك».

كان محمد يراجع محتويات الحقيبة التي سوف يعطونها لمرام فيما سألته لمياء: «أليس من الأفضل أن يذهب شخص آخر غيرك يا مازن؟ فأنت مشتبه به؛ لذا ظهورك سوف يثير البلبلة».

محمد: «كلامك صحيح، أنا سوف أذهب».

بدا مازن مترددًا وقال لهم: «أنت على حق يا لمياء، ولكن ظهور شخص لا تعرفه مرام لن يساعدنا».

أجابته لمياء مسرعة: «إذًا من الممكن أن أذهب أنا؛ لقد قابلتها وهي تعرفني في حين أنها لا تعرف محمد أو برانيا».

نظر إليها محمد بخوف ثم عادت تطمئنه: «لا تقلق يا أخي فلا يعرفني أحد، ربما الاقتراب من مرام يكون هو الخطر، ولكن الأمر لن يدوم طويلًا».

عندما رأوا مرام في ساحة الميدان خرجت لمياء بالحقيبة، وبدأ مازن يشعر بالقلق والريبة ليستخدم منظاره وبدأ يقلب في وجوه الناس على أطراف الساحة، وحينما أمعن النظر حول مرام وجد بيلي! ذلك ما دفعه للخروج سريعًا نحوها وهو يقول لبرانيا أن تتولى قيادة السيارة، ومع خروج مازن سُمع ضرب النار ليصاب جميع من في الساحة بالذُعر،

فيما ألقت لمياء الحقيبة لمرام وانبطحت على الأرض، ولاحظ محمد المصري وجود قناصة فوق العمارة التي تقف سيارتهم بأسفلها، ولذلك اتجه صوب مازن معتقدًا أنهم يُصَوبون نحوه، ولأن قنصلية الإكوادور مُطِلة على ساحة الميدان ذلك عَجَّلَ من تدخل الشرطة لتبدأ في تبادل النيران مع المسلحين، وفي خضام هذه الأحداث أثناء توجه محمد صوب مازن أُطلقت رصاصة مستهدفة مرام، ولكنها أصابت محمد في كتفه الأيسر من الخلف، كما أصيب مازن في ساعده الأيمن بجرح طفيف نتيجة احتكاك إحدى الرصاصات بذراعه.
كل ذلك حدث في بضع ثوانٍ حين أدارت برانيا المحرك واتجهت إليهم لتأخذ مرام ولمياء، فيما دفع مازن محمد داخل السيارة وجرى بعيدًا عنهم.

****

٢-جحيم في القطار.

بعد أن اختفى مازن عن الأنظار قليلًا وابتعدوا جميعًا عن موقع الحدث، قام مازن بالاتصال على هاتف برانيا ليخبرهم ما عليهم فعله.
- «يتوجب عليك إيصال محمد ولمياء إلى أقرب مستشفى».
برانيا: «لك ما تُريد».
أكمل حديثه وهو يُقَطِّب جرحه محاولًا إخفائه بقطعة قماش لكيلا يراه المارة: «ثانيًا سوف تذهبين إلى محطة قطار جسر لندن وتتركي حقيبتي هناك، وأنا سوف أجدها».
برانيا: «وماذا بعد؟»

مازن: «محطتك الأخيرة في الميناء حتى تذهب مرام، ثم اتركي السيارة لأنهم قد يبحثون عنها الآن».
برانيا: «حسنًا، ولكن إلى أين أنت ذاهب؟»
أجابها مازن متألمًا لجرحه: «يجب أن أختفي بضعة أيام وسوف أعود».
برانيا: «حسنًا، انتبه لنفسك».
مازن: «بالتأكيد شكرًا لكِ، الآن دعيني أتحدث إلى لمياء».
أخذت لمياء الهاتف منها فيما كانت تحاول وقف نزيف أخيها ليستكمل مازن قائلًا: «لا تقلقي يا لمياء محمد بخير، أنتما ذاهبان الآن إلى أقرب مستشفى، وسوف تخبري المسؤولين هناك أنكما سائحان وحدثت الإصابة فيما كنتم هناك، ميدان ترافالغار بالأساس مكان سياحي».
أجابته لمياء محاولة أن تكتم بكاءها: «إن شاء الله سوف يكون بخير، انتبه لنفسك».
مازن: «أنا سوف أنتظر حتى تهدأ الأمور قليلًا وسوف أعود مجددًا، أعطيني مرام».
أخذت مرام السماعة وهي متوجسة من ذلك المصاب أمامها ولا تعرفه كما لا تعرف ماذا يحدث وبالكاد لا تعرف لمياء وبالطبع لا تعرف من هي تلك الفتاة الشقراء التي تقود تلك الشاحنة الغريبة وأجابت بهمس خائفة: «من هؤلاء الأشخاص يا مازن؟ أنا لا أعرف أحدًا؟»
كان جليًا في كلامها الخوف الشديد من كل شيء حولها، ذلك ما جعل مازن يحاول طمأنتها: «اهدئي يا مرام، ولا تفزعي، هؤلاء أصدقائي، أنت تعرفين لمياء، ومحمد وبرانيا من أصدقائي، وجميعهم يساعدونك، فعليكِ أن تتمالكِ أعصابكِ أكثر من ذلك، لأنكِ سوف تتحركين وحدك من الآن».
بدأت مرام في البكاء وهي تتحدث إليه: «كنت أشتاق لك وأتمنى

رؤياك، ولكن ليس في مثل هذه الظروف!»
حاول مازن أن يخفف عنها: «ها أنت قلتها، ليس في مثل هذه الظروف، نفذي ما أقوله لكِ جيدًا وسوف تكونين على ما يرام بإذن الله، تلك الحقيبة التي أعطتك إياها لمياء بها حاسب محمول كما يوجد بها هاتف نقال، عليكِ باستخدام تلك الأجهزة وتخلصي من هاتفك القديم تمامًا».
مرام: «حسنًا، ودكتور كندة ماذا حدث لها؟ وكيف تعرفها؟!»
أجابها مازن في عجالة وهو يواصل طريقه صوب محطة القطار:
«ليس هذا الوقت المناسب لهذا الحديث يا مرام، الآن سوف تركبين على متن السفينة المتجهة إلى بريمرهافن ومن هناك إلى شتوتجارت، هناك ستجدين حجز تذكرة قطار إلى باريس، وستجدين ورقة في نفس الحقيبة بها جميع العناوين، وجميع حجوزاتك مؤمنة، كما ستجدين أيضًا مبلغ ٣٠٠٠ يورو عليك بالصرف منهم ولا تستخدمي أي بطاقات بنكية على الإطلاق».
مرام: «ومتى سوف ألقاك؟»
مازن: «نفذي ما قُلتُ لكِ واتركي الباقي، وأنا لن أتأخر عليكِ».
ربما هي مجرد كلمات ولكن لا يوجد غيرها ليُطَمئِن مازن بها مرام، ولذلك أَخَذَت مرام تلك الكلمات بصدق ووعد من مازن لها لتتحلى بقليل من الشجاعة لتمضي في الطريق وحدها.

****

بدا أن المشاحنات سوف تنتقل من الميدان إلى محطة القطار، بمجرد وصول مازن وبين زحام المارة المتجهين لمختلف مناطق إنجلترا وُجِد بيلي وبالطبع معه أفراد آخرين من الوكالة الإسرائيلية التابع لها، ومن جهة أخرى كانت المنظمة المتعددة الجنسيات تتبع بيلي، وبدورها

تواجدت فرقها هي الأخرى، فكان المشهد العام في المحطة يسيطر عليه الزحام الشديد بالطبع وفي خبايا هذا الزحام ينتشر كافة عملاء الجهتين المعنيين باستهداف مازن، وجميع أفراد كل جهة على اتصال بأجهزتهم المخبأة سواء في الأُذُن للاستماع أو أي جزء آخر من أجسادهم للتحدث.
المنظمة متعددة الجنسيات.
لودميلا متحدثة من مكتبها: «راقبوا الهدف عن كثب دون لفت الانتباه، أودري كُن مُستعدًا في حال تطلب الأمر تدخلك».
أودري من داخل محطة القطار: «أنا في موقعي وأنتظر الإشارة».
لودميلا: «حسنًا، آلكوت انتهز الفرصة المناسبة لاقتناص هدفك واعمل مع فريقك على التغطية».
الوكالة الإسرائيلية.
مكارثي: «بيلي كُن حذرًا؛ فالهدف يعرف شكلك».
بيلي: «لا تقلق، فقط دعهم قريبين مني ومعهم أدوات التغطية».
مكارثي: «لا تقلق نحن حولك وأنت تحت مرآنا، وفي انتظار الإشارة منك لبدء المهمة».
في هذه الأثناء لاحظ مازن خطوات معينة تسير بالقرب منه دون جميع المارة الباقيين، كما أنه هناك حركة غير طبيعية في المكان، ولذلك أيقن أنهم ما زالوا يلحقون به، وفي انتظار الوقت المناسب لتنفيذ مخطتهم بخطفه أو قتله وخطف حقيبته، فيما لاحظ بيلي أيضًا أن مازن بدأ يمشي سريعًا وخطواته تتسارع وكأنه علم بأمره.
بيلي : «يا شباب، مازن بدأ في التحرك بسرعة؟»
مكارثي: «حسنًا إذًا، على الجميع أن يستعد، القطار سوف يصل بعد ١٥ ثانية، فريق التغطية يبدأ مهمته فور وصول القطار، بيلي عليك أن تبدأ هجومك لتخدير مازن وخطفه».

بيلي: «لا، نحن لا ندري إن كان سيركب القطار أم لا».
مكارثي: «عليك أن تمنعه، أنت تقول إنه ربما علم بأمرك، إذًا عليك أن تمنعه وتبدأ بتنفيذ مهمتك، فاليستعد الجميع، ٥، ٤، ٣، ٢، ١ نولان ضع القنبلة في آخر عربة في القطار».
في هذه الأثناء وقبل وصول القطار اكتشف أفراد المنظمة وجود بيلي لتتخبط خطتهم قليلًا.
آلكوت: «لدينا مشكلة، أنا أرى بيلي؟»
ردت لودميلا مسرعة في قلق: «حسنًا، فلنقتله، أودري عليك به».
رد آلكوت مسرعًا: «لا، أودري انتظر، إذا أطلقنا عليه الرصاص الآن سوف تَعُمْ الفوضى أرجاء المكان وسوف نفقد مازن، هذه فرصة ربما لن تأتي إلينا مرة أخرى للقبض على مازن».
ساد الصمت قليلًا ليرُد أودري قائلًا: «أنا أنتظر الإشارة، ما هو قرارك؟»
لودميلا: «حسنًا إليكم الخطة، أودري أطلق الرصاص على بيلي دون أن تصيبه، ولكن فقط لتجبرة على ركوب القطار، وعندما يحدث ذلك سوف تَعُمْ الفوضى كما قلت يا آلكوت، ولذلك عليك استغلال هذه الفوضى لتغطية هجومك على مازن والنيل منه، وفيما يتعلق ببيلي، الوحدة رقم ١ورقم ٢ عليكم ركوب القطار وتتخلصوا من بيلي في المحطة التالية».
آلكوت: «ممتاز، خطة جيدة».
لودميلا: «حسنًا، الإشارة قبل انطلاق القطار بـسبع ثواني، استعدوا جيدًا، البداية معك أودري».
أودري: «لكِ ما تريدين».
وما أن وصل القطار بدأ الركاب بالصعود إليه، وكان من بينهم بعض عملاء الوكالة الإسرائيلية لوضع إحدى العبوات الناسفة لإحداث

حالة من الفوضى؛ ليستغلها بيلي للهجوم على مازن لتخديره ومن ثم خطفه، ومن المفترض إحداث التفجير قبل انطلاق القطار، ولكن قبل التفجير بدأ إطلاق النار بالقرب من بيلي كما خططت المنظمة متعددة الجنسيات؛ لتحدث حالة الفوضى التي كان يسعى إليها كلتا الوكالتين، ولكن لم يحسن استخدامها أيٌّ منهم لخطف مازن، حيث أنه أحسن التصرف واندفع بالنزول إلى قضبان القطار ليصعد إلى رصيف الجهة الآخرى، وأثناء هروبه حدث الانفجار لينبطح الجميع أرضًا، ونظر مازن إلى الأمر بشكل خاطف ومن ثم تابع طريقه ليختفي عن الأنظار.

****

من ناحيتها كانت مرام قد انطلقت سفينتها لتأخذها في رحلة نهرية خارج لندن وصولًا إلى بحر الشمال، متجهة إلى ميناء بريمرهافن في مدينة بريمن الواقعة في شمال ألمانيا، ومنها تتجه إلى شتوتجارت في الجنوب لتتجاوز رحلتها مدة الـثلاثة أيام دون توقف، وتواصلها إلى باريس عبر السكك الحديدية الأوروبية في رحلة شاقة مدتها الزمنية ثلاث ساعات وأربعين دقيقة.

تطلب الأمر من مازن أن يختفي تمامًا من لندن لفترة ما؛ ليتجه إلى مدينة ليفربول الواقعة شمال البلاد حتى تهدأ الأوضاع وتتوارى عنه الأنظار، ذلك الوقت الذي أمضاه مازن وحده جعله يفكر في كل شيء من جديد، ليعيد ترتيب حساباته ويحلل تلك المعارك الضارية التي حدثت في محطة القطار وفي ميدان ترافالغار، فهو يعلم تمامًا قيمة ما لديه، ويعلم أيضًا أن تلك الجماعات التي تسعى وراءه يريدون ما لديه ولا يريدون قتله، لذا يقوده التفكير إلى أن أسباب ضرب النار هو وجود مرام، ولكنه لا يعلم بعد ماذا فعلت من أجل ذلك، فهو لا يعلم عنها شيء لمدة تتجاوز الأربعة أعوام! فبدا أنه مشتت في تفكيره وعاد يراجع

الأحداث مرة أخرى حين وصل إلى محطة القطار حيث لم تكن مرام معه ولم تظهر، إذًا فلماذا ضرب النار وتلك الانفجارات التي حدثت؟! تجاوز الأمر قدرته الاستيعابية، ولم يَعُد قادرًا على التفكير ولكنه أيقن أنه هناك حلقة مفقودة، ربما يجدها حين يلقى مرام.

أسند رأسه إلى الخلف في مكان جلوسه وبدا أنه سوف يذهب في النوم منهكًا، ولكن اخترق حاجز الفراغ صوت هاتفه النقال ليجد اتصال من برانيا.

- «حاولت منع نفسي من الاتصال، ولكن ما سمعته في نشرة الأخبار أجبرني على ذلك!»

تعجب مازن قليلًا وتساءل عما حدث لتجيبه: «تتحدث وسائل الإعلام عن حادث تفجير وإطلاق رصاص في محطة القطار حدث صباح اليوم، هل أنت بخير؟»

انتبه مازن للأمر وأخبرها: «أنا بخير لا تقلقي، يبدو أنهم كانوا يتتبعون خطاي، ولكن أنا بخير الحمد لله تمكنت من الهرب منهم، أخبريني ما وضع محمد الآن؟»

برانيا: «لقد تماثل للشفاء، إصابته لم تكن خطيرة ولكنه فقد كثيرًا من الدماء».

مازن: «هل كان هناك شكوك حول الأمر؟»

برانيا: «لا على الإطلاق، حيث كان هناك مصابين آخرين، وتعاملت الشرطة على أنه حادث إرهابي».

يومٌ دامٍ في لندن: هجوم مسلح يفضي بحياة مواطن، وإصابة أكثر من ٧ أفراد بين جروحٍ خفيفة إلى متوسطة في ميدان ترافالغار، وما أن اتجهت الشرطة للتعاملِ مع المسلحين حتى انتقلت الأحداث إلى موقع آخر، وبالتحديد في محطة قطار جسر لندن التي تبعد عن الميدان ثلاثة أميال

فقط، عبوة ناسفة قد زرعها الإرهابيون في إحدى عربات القطار أسفرت عن مقتل ٩ أفراد من بينهم معاون أمن واثنين من العاملين بالمحطة، كما أدى إلى إصابة أكثر من ٢٠ جريحًا.

- «يومٌ دامٍ! ٣٥ شخص بين إصابات وحالات وفاة ولم نصيب هدفنا! هل أنتم حمقى أم أنني أقود مجموعة من الهُوّاة والمبتدئين؟!»

جون: «اهدأ قليلًا سيد مكارثي، فهو ما زال في إنجلترا ولم نفقده».

ضحك ساخرًا مكارثي وأجاب: «الأمر لم يَعُد متعلق بمازن فقط، لقد أصيب بيلي، فمن غيرنا يريد مازن؟ لا بد أن نعرف».

جون: «هذا ما نعمل عليه الآن».

مكارثي: «وانتبه وأعد البحث عن مازن مرة أخرى؛ لا نريده أن يغادر البلاد، لا تتهاون أبدًا في هذا الأمر، فأنا أريد الإمساك به وسحق جمجمته لكي أعرف كيف يفكر ذلك الداهية».

****

بعد انقضاء سبعة أيام، قضاهم مازن وحده في ليفربول عاد مرة أخرى إلى لندن، لم يرغب أن يُعلم أصدقاءه بقدومه، أراد أن يكون كل شيء على طبيعته وألا يثيروا الشكوك، ولذلك ما كان منهم إلا أن تفاجئوا لحظة دخوله عليهم.

اطمأن أولًا على محمد وتمكن من تحريك ذراعه منذ أيام قليلة، ثم جلس يحدثهم.

- «أنا لم أكن أتوقع كل هذه الأمور، لقد حدثت منذ ٧ أيام تغيرات لم تكن في الحُسبان جعلت أفكاري متخبطة، وبالطبع أي شيء كنت أخطط له سوف يتم تأجيله، فتلك الأحداث غيرت مسار كل شيء، كنت أود القيام به قبل قدومكم إلى هنا».

محمد: «حسنًا، أخبرني ما تنوي القيام به؟»

مازن: «لا بد أن أسافر للقاء مرام».
لمياء: «وماذا بشأن أبحاثك؟»
مازن: «لن نستطيع القيام بشيء الآن يا لمياء، الوضع ضبابي، وما حدث يجبرني أن أعيد تفنيد الأمور، الأمر تجاوز الآن فكرة أنهم يريدون الأبحاث التي أمتلكها لأن ما حدث كان يَنُم عن نية القتل».
رد محمد منفعلًا: «لا تخبرني أنك سوف تستسلم الآن!»
التقط مازن أنفاسه ليهدئ من روع صديقه وأجاب: «لم أقل ذلك يا صديقي، الأمر أشبه بالتأجيل ليس أكثر، بالإضافة أنني لا بد أن أعرف قصة مرام وما جعلها في ذلك الموقف».
ساد الصمت لاقتناعهم بكلامه ثم عاد يسألهم: «أين برانيا هل هي في منزلها؟»
لمياء: «لا أدري دعني أتفقدها».
ذهب مازن يرتب أغراضه استعدادًا للسفر، وبعد دقائق قليلة طرقت برانيا باب غرفته.
مازن: «تفضلي بالدخول».
برانيا بنظرات من الحزن: «أستطيع أن أرى أنك مغادر؟!»
مازن: «نعم بالفعل، كما تعلمين مرام وحدها في باريس، ويجب أن أذهب من أجلها».
برانيا: «كنت أتمنى التعرف إليها».
أدرك مازن تلك النبرة الحزينة التي تتساءل فيها عما إذا كانت النهاية قد حانت، ليرد مبتسمًا: «من المؤكد أن أحتاج إليكِ، ويمكنك زيارتنا بعد أن أسافر وتتعرفي إليها».
برانيا: «أتعني أنها ليست النهاية بعد؟»
أجابها مازن وهو يربت على كتفها: «بالطبع ليست النهاية، فأنتِ أعز

أصدقائي».
التقطت برانيا نفسًا عميقًا ثم ردت تقول: «وأنت أيضًا من أعز أصدقائي، وأتمنى أن أراك قريبًا».
كان جليًا في حديثها الخوف ألا ترى مازن مجددًا، فبالرغم أنها تعلم أن حدودها في حياته لن تتجاوز الصداقة إلا أنها تفضل أن تراه فقط وليبقى الحب مكتومًا داخلها.
اتجه مازن إلى المطار وأقلعت الطائرة وهو يرمي كل ما حدث وما سوف يحدث خلف ظهره، فقد ذهبت روحه إلى باريس قبل جسده، فهو مشتاق وتؤرقه لوعة الشوق، وربما لذلك هو مشتت ولا يستطيع التفكير جيدًا.
ومما لا شك فيه أن مازن يسابق الزمن من أجل تلك اللحظة منذ سنين، وما هي إلا مجرد ساعة حتى يرغب في أن يتوقف به الزمن عند لقائه بمرام.

****

كأن شيئًا لم يكن

رحلة لم تستغرق سوى ساعتين وخمسة عشر دقيقة ليصل مازن مطار شارل ديجول في باريس في تمام الساعة السابعة صباحًا. أمطارٌ كقطرات الندى رقيقة ولكنها متواصلة، وسماءٌ يبدو أنها لن ترى الشمس ذلك اليوم، تلك هي الأجواء المعهودة في باريس، وأغلب البلدان الأوروبية في مثل هذا التوقيت في شهر يناير.
إنها الأجواء المحببة لكليهما، فصل الشتاء الذي قد يكرهه الكثيرون لأنه

قد يبقيهم تحت الأغطية لوقتٍ طويل، أو قد يواجه الغالبية معاناة شديدة لكي ينهض من نومه ليذهب للخدمة، ولكن في نظر مازن ومرام كانت تلك الأجواء مثالية ويفضلانها على حر الصيف الذي ربما لو تجردت من كامل ملابسك لسوف تظل تشعر بالحرارةِ والتعرق.
اتجه مازن مباشرة إلى وسط المدينة باحثًا عن أحد المقاهي التي فتحت أبوابها باكرًا في تلك الأجواء الشتوية قارصة البرودة وجلس يفتح أغراضه ليتقفى أثر مرام، وبعملية مسحٍ سريع تأكد له وجودها
في كنيسة Norte Dame Cathedral
بجانب مسكنها الواقع في شارع، Rue Des Gravilliers
، ابتسم برضا وهو يحتسي قهوته قائلًا في خاطره: «وأخيرًا لا يفصلني عنك سوى بعض الكيلومترات». هدأ لكيلا تتسارع نبضات قلبه ليحافظ على تركيزه، فهو ما زال هاربًا ويتوجب عليه الانتباه لكل خطوة تحوم حوله، ثم نظر في ساعته ليجد أنها قاربت العاشرة صباحًا بتوقيت القاهرة.
ليجد أنه التوقيت الأمثل لكي يتصل بوالده.
- «صباح الخير».
أجاب إمام في ترقب: «صباح النور، من المتحدث؟»
ابتسم مازن وقال: «أنا يا والدي، أنسيت صوتي؟»
فوجئ إمام بصوت ابنه الذي لم يتحدث إليه منذ فترة طويلة ليرد باندهاش: «حمدًا لله على سلامتك يا بني، هل من الصواب أن تتركنا كل هذه الفترة دون أن تتحدث إلينا! أخبرتنا ألا نهاتفك وذلك يعني أنك ملزم أن تطمئننا عليك كل فترة، ولكن ليس كل هذه الفترة، فقرابة الثلاثة شهور ونحن لا ندري عنك شيء».
مازن: «اعذرني يا أبي، ولكن لقد مررت بوقتٍ عصيب في الفترة الماضية،

ولكني الآن في أفضل حال لا تقلق».
إمام: «أخبرني ماذا حدث؟»
مازن: «محمد صديقي عائد إلى مصر خلال خمسة أيام وسوف يحكي لك الأمر، فالوقت غير مناسب، أتحدث لك لأني اشتقت لكم جميعًا وكم كنت أود رؤياكم».
هدأ إمام قليلًا ليحاول أن يدرك ما بين السطور: «ماذا بك يا بني؟! لا تعجبني نبرة صوتك!»
مازن: «أنا بخير يا أبي، ولكن أرهقني الهروب وأود العودة إلى مصر».
تنهد إمام قليلًا ثم رد بخيبة أمل: «لا أعرف ماذا أقول لك يا بني، ولكن ما دام أنك بخير وتستطيع تدبير أمورك فحاول أن تظل أطول فترة ممكنة خارج البلاد، فالوضع سيء ومحتمل أن نأتي إليك».
تعجب مازن ورد سائلًا: «ماذا هناك يا أبي؟ ما الذي يحدث؟»
إمام: «بالتأكيد أنت تتابع الأخبار وترى ما يحدث في البلاد، علمًا أن ما يذاع في التلفاز لا يُمثل سوى نصف الواقع».
بدأ مازن يمزح مع أبيه قائلًا: «ما دام أنك قلت هذا فأستطيع أن أتنبأ أن المشاكل لها علاقة بأعمالك، لأنني أعلم جيدًا أنك لست مهتم بالسياسة لهذه الدرجة يا سيدي الفاضل».
ضحك إمام ورد ممازحًا ولده: «لو أنك في مصر لكان لي رد فعل آخر، على أي حال إن كنت رجل أعمال مثلي كنت لتعرف جيدًا ما أعنيه».
ضحك مازن وعاد يسأل بجدية: «صحيح، ولكن أخبرني حقيقة الأمر؟»
إمام: «ليس يسيرًا أن تكون رجل أعمال دون أن يكون هناك ود بينك وبين حكومة البلاد، وتلك الحكومة الحالية لا يوجد بيني وبينها أي عمار لأنهم يظنون أنني من أتباع النظام القديم».
ضحك مازن عاليًا وقال ساخرًا: «حقًا إنهم لا يعلمون شيئًا، فأنا أظن

أنك لم تعلم أن مبارك هو من يحكم البلاد إلا في آخر ٥ سنوات!»
عَلَت ضحكات إمام قبل أن يرد على مازن مازحًا: «تأدب يا ولد، أتسخر من أبيك».
ضحك مازن وأجاب: «لا، لا تغضب يا أبي، أنا أمزح معك، أفهم منك أن الحكومة تُصَعِّب عليك إنهاء معاملاتك».
إمام: «بالطبع، أزيدك من الشعر بيت، هناك شحنة من ماكينات الحصاد ما تزال في ميناء بورسعيد ولا نستطيع إنهاء معاملاتها الجمركية لكي ندخلها مزارعنا حتى الآن، ناهيك عن الكثير من الأموال المطلوبة وغير المبررة».
مازن في اندهاش: «الأمر وصل إلى حد السرقة!»
إمام: «الأخطر أن السرقة تحدث بكل جرأة وبدون خوف ومن جهات رسمية، ولكن لا عجب في ذلك، يا بني مبارك كان جالسًا على بالوعة وعندما قامت الثورة انفجرت البالوعة».
ضحك مازن وأجاب ساخرًا: «ما أطيب مرادفاتك يا أبي وما أجمل رائحتها! أراك أصبحت سياسيًا محنك».
إمام: «بالطبع يا ولدي فما نراه لا بد وأن نتعلم منه، على أي حال لا تتأخر في الاتصال مرة أخرى».
ابتسم مازن قائلًا: «عُلم وينفذ يا سيدي».
أنهى المكالمة مع والده وأخذ أغراضه ذاهبًا إلى حيث توجد مرام، دخل إلى الكنيسة يتحقق من وجودها، رآها تمارس شعائرها الدينية ولم يرغب مقاطعتها وتوجه ينتظرها في الخارج.
وبينما هو منتظر في الخارج كانت هي تبتهل إلى الله في الدعاء بأن يكون عونًا لها ويساعدها، وتطلب من الله برجاء أن ترى مازن، وها هي أمنيتها تكاد تتحقق!

وعلى الرغم أن مازن يقف بعيدًا في مواجهة باب الكنيسة، وبالطبع مرام لن تحدق فيمن يقف ومن يسير إلا أنها خرجت من الكنيسة وهي تطالع الأفق، رفعت رأسها وهي تأخذ نفسًا عميقًا بعد جلسة روحانية وَلَّدَت لديها بعض الطاقة الإيجابية التي تجبرها على التفائل بأن دعائها مستجاب وتحقيقه قريب، وتدريجيًا بدأت تخفض رأسها وتعود مرة أخرى إلى الأرض ويلفت انتباهها ذلك الواقف هناك دونًا عن باقي المارة! فهيئته مألوفة، وطوله يقارب طول شخص تعرفه جيدًا! وتلك النظرة المتربصة التي يرمق بها المكان تُثيرها، أيعقل أن تكون استجابة دعائها بتلك السرعة؟! أيعقل أن يكون مازن؟! تلك التساؤلات التي دارت بذهنها وهي تقدم خطوة وتؤخر خطوة نحو ذلك الرجل الغامض.

تعجبت أكثر حين اقتربت منه وبدأت ترى ملامحه شيئًا فشيئًا لتجد أنه صورة طبق الأصل من مازن، ولا يختلف بينهما سوى ذلك الشارب الذي يغطي أسفل أنف الواقف هناك! ابتسم لها ليزيدها اندهاشًا وأصبحت تسير نحوه دونما شعور، وكأن شيء يجذبها.

وقفت أمامه مباشرةً ولا يبعدها عنه سوى سنتيمترات قليلة، وبدون أي كلام، فقط ابتسامة من مازن وذهول من مرام، مدت يدها تتحسس وجهه وكأنها شخص عاد إليه بصره من جديد ويبدأ باكتشاف ملامح أعز الناس إليه، تركها وظل ناظرًا بعينيها محاولًا إقناعها أنه حقًا مازن، ورويدًا رويدًا بدأت مرام تبتسم وتضحك وتعلو ضحكاتها لتملأ باريس كلها، لتندفع بكل قوة دون تفكير لترمي نفسها بين ذراعيه، فاجأته بردة فعلها وابتسم وهو يربت على رأسها قائلًا: «حمدًا لله أنك بخير».

أخذتهم غمرة الشوق للقاء بعضهما فنسيا الزمان والمكان، ونسيا حتى أنهما مجرد صديقين، وجعلا من شوقهما جسرًا يعبران عليه من تلك

الفترة السوداء في علاقتهما. فكلاهما أحب الآخر وما زال يحبه وفرقتهما الظروف، ورغم أن الأسباب لم تزول إلا أنهما اجتمعا مرةً أخرى.
لم تكن هناك أفضل من هذه مناسبة لكي يجعلاها سببًا ليفرحا قليلًا رغم ما يحيط بهما من أخطار، كذلك لم تكن هناك أفضل من هذه الأجواء المحببة إليهما لكي ينطلقا فيها، فبالتأكيد لن تسعهما الأماكن المغلقة لتستوعب فرحتهما العارمة، لذا كان من الأفضل أن يظلا في الهواء الطلق أو بالأحرى تحت قطرات المطر الرقيقة.
- «هل تسامحني يا مازن؟»
فاجأته –مازن- تلك الكلمات؛ ليقول لها مندهشًا: «لا أجد أنه الوقت المناسب للعتاب، ولكن أنت في الأساس لم تخطئي في شيء حتى أسامحك، كل ما حدث أنك قررت أن تفكري بالمنطق وهذا ليس عيبًا، فحبُنا ليس له مستقبل ولا يمكن له أن يتطور لشيء أكثر من المشاعر».
اندهشت قليلًا حيث بدا على كلامه قليلٌ من القسوة، ثم أكمل لها قائلًا: «تلك هي الحقيقة التي لم نكن نريد أن نستوعبها سابقًا، أو بمعنى أصح كنا نود الهرب منها، ولكن لقد استوعبت الأمر وتأقلمت معه، ولم أكن أريد شيء آخر سوى أن ألقاك».
صمتت قليلًا ثم نظرت إليه تبتسم بأسى: «ولكن أنا إلى الآن لم أتأقلم مع الأمر، وما زلت أخشى تصديق ذلك».
أجابها مازن محاولًا أن يبعث بها قليلًا من الطاقة الإيجابية: «حسنًا، سوف أساعدك، أخبريني بماذا أنت تقتنعين؟»
نظرت إليه مرام وابتسمت قائلة: «أنا أقتنع بأنني أحبك!»
مازن: «حسنًا، وأنا لا أريد شيئًا آخر، وأهم من كل ذلك أن الله كتب لنا لقاءً آخر».
سارَت بجانبه معلقة يدها بساعده تتأمل الأفق وتدقق في حالهما

لتقول: «ومن كان يتوقع ذلك؟! من كان يتوقع أن نلتقي هنا؟ ومن كان يتوقع أن نصل إلى ما وصلنا إليه! حقًا تدبير ربي عجيب ولكن ما أحلاه».

أثار كلامها مازن ليبدأ بسؤالها عن السبب الذي جعل لها أعداء لتُصبح مستهدفة من قِبَلِهم، ورَوَت له الأمر وأخبرته عن علاقتها بدكتور كندة وكيف تعرفت إليها، ثم تطرق حوارهما إلى تلك الأحداث التي جاءت بمازن إلى باريس.

- «ذلك ما يعني أنه أينما وطئت قدمك بلدًا ما حلت المتاعب».

بادلها مازن المزاح: «ليس لي ذنب، فأنا لست مُحرك الثورة السورية، وعندما ذهبت إلى اليابان لم أكن مثل الدودة التي تنخر في طبقات الأرض لتحدث مثل هذه الفاجعة هناك».

استمرت مرام تسخر من نحسه وحظه العثر الذي يلاحقه: «وكيف تبرر ما حدث في إنجلترا؟! أليست أنت السبب؟»

ضحك مازن وأجابها رافعًا حاجبيه: «أنا لست سبب مباشر، فأنا لم أنسف ذلك القطار ولم أطلق النار على المارة، كما أخبريني لماذا ترين الأمور السيئة فقط! لقد كنت في قطر وسافرت السعودية وإلى روسيا وها نحن هنا في فرنسا ولم يحدث شيء»

ضحكـ مرام عاليًا وردت تمازحه بخوفها: «أخشى أن تحدث كارثة ما هنا، حينها سوف أتأكد تمام التأكد أن حظك العثر هو السبب».

ظلت ضحكاتهما مستمرة وطال بهما الطريق، ذهبا لتناول الفطور سويًا، وفيما هما جالسان خطر على بال مرام آخر محادثاتها مع دكتور كندة.

- «أخبرني، هل تعرف شيئًا عن دكتور كندة؟»

توقف مازن عن تناول الطعام ورفع نظره إلى مرام قائلًا في أسى:

»للأسف هاتفها مغلق«.
نظرت مرام بأسف قائلة في خيبة أمل: »منذ قدومي إلى هنا وأنا أحاول الاتصال بها من الهاتف الذي أعطيتني إياه، ولكني لم أستطع«.
أكمل مازن في نبرة حزن: »اللهم لا اعتراض ولا راد لقضاءه أولًا وأخيرًا، ولكن يبدو أنها أصابها مكروه، ولكن أيضًا نحن لم ترد إلينا معلومات مؤكدة، لذا لا نريد أن نستبق الأحداث«.
لم تستطع مرام أن تكمل طعامها إثر ذلك الحوار الذي لا يحمل أي جرعة من التفاؤل، حاول مازن أن يقنعها بإكمال فطورها، ولكنه لم يستطع وسألته: »حسنًا، وماذا بشأن وضعنا؟ أسنظل هاربين؟«
أجابها مازن يحاول أن يطمئنها: »في هذه الفترة علينا أن ننسى العالم، نود أن نمضي إجازة العمر، فلا تذكريني بما يحدث، وعلى كل حال أنا لست بحاجة لمن يذكرني، أرجوكِ فأنا هارب منذ ما يقرب العامين«.
ابتسمت مرام قائلة: »كفاك مزاح، هناك من يلاحقنا وإذا توقفنا عن التفكير للحظة سوف يصلون إلينا، فعليك أن تعلم أنه ما دمت هاربًا فيجب أن تسبق من يتبعك بأكثر عدد من الخطوات قدر ما تستطيع«.
ضحك مازن ورنت ضحكته أصداء المطعم وأجابها مازحًا: »فليتكلم شخصٌ غيرك عن الهروب، يا عزيزتي أقول لكِ أنا هارب منذ ما يقرب العامين، ولدي الخبرة الكافية في ذلك«. أكمل حديثه بجدية قائلًا: »لا تقلقي يا مرام، أنا لا أقول أننا سوف نظل هاربين، فقط أنا أود أن أصفي ذهني ليومين على الأقل، ولننال قسطًا من الراحة حتى نفكر جيدًا«.
كلماته ومزاحه بددا خوفها ولم تَعُد راغبة بالتفكير في أمر هروبهما، فكم كانت تشتاق لرؤياه من بعيد، وها هي الآن تراه جالسًا بجانبها؛ فلا يسعها سوى أن ترمي كل شيء خلف ظهرها وليحدث ما يحدث.

أمضيا اليوم كاملًا بالخارج يتنزهان ويلعبان ويجريان تحت الأمطار التي لا تتوقف سوى لبضع دقائق، ثم تعاود سقوطها الرقيق، عادا إلى المنزل منهكين في تمام الثامنة والنصف مساءً ليدور نقاش آخر بشأن أمر مبيتهما سويًا بين خجلٍ وحرج، ولكن تغلبا على تلك الأمور بحُسن الدعابة والمرح.

- «حسنًا، سوف أجعل الأمر بسيطًا، أنا سوف أنام بالغرفة وأنتِ تنامين هنا على الأريكة».

نظرت مرام إليه تضحك قائلة: «ما أنبل أخلاقك!»

ضحك مازن وقال مازحًا: «حسنًا، لا تتحاذقي عليّ، فهو على أي حال نوع من أنواع الرومانسية العنيفة». ثم أكمل ضاحكًا: «حسنًا، سوف أتنازل وأنام على الأريكة، ولكن لا تنسي أن تغلقي باب غرفتك، لأنني عندما أكون مرهق يرتفع صوت شخيري قليلًا ولن تعرفي النوم هكذا».

ضحكت مرام وردت تمازحه رافعة حاجبيها: «بالطبع سوف أغلق الباب خلفي، يا عزيزي، أنا سوف أتركك تنام في المنزل فقط لأنك ابن بلادي، ولو غير ذلك لطردتُك خارج المنزل».

نظر مازن إليها بإعجاب مبتسمًا ثم اتجه يُعِد مكان نومه على الأريكة، فيما ذهبت مرام إلى غرفتها، وللحظات قبل أن تغلق الباب بالمفتاح وضعتت المفتاح داخل الباب ثم نظرت إلى الأرض وصارت تتأمل

همس مازن في الخارج، فقد كان يتلو بعض الآيات القرآنية التي اعتاد قراءتها قبل النوم، ابتسمت واضعة كلتا يديها على صدرها وهي في قمة سعادتها، لم تغلق بابها رغم أنه من حقها بكل تأكيد، ولكنها لم تجد أنه هناك سبب يجعلها تخاف من وجود مازن، فكيف لها أن تخاف منه وهو أمانها بعد الله، كما أنها لم تعامله يومًا على أنه شخص غريب لكي تخشاه أو تخشى أي تصرف غير أخلاقي منه، لذا ظلت ابتسامتها تملأ

شدقيها وهي ناظرة إلى سقف غرفتها قائلة: «الحمد لله».

****

- «السلام عليكم، مرحبًا دكتور سليمان».

أجاب سليمان متفاجئًا: «مرحبًا مازن، لم أسمع عنك منذ فترة، أخبرني كيف تسير أمورك؟»

أكمل مازن حديثه على مضض: «حمدًا لله بخير، ولكني أهاتفك هذه المرة لأنني قررت أن أوقف عملية تجارب الأبحاث التي قدمتها إليك، وعلى أي حال أنا شاكر لمجهودك معي».

اتسعت عينا دكتور سليمان قبل أن يجيب في دهشة: «ماذا تقول! عن أي مشروع تتحدث! أتمازحني؟!»

انفعل مازن وأجاب بلهجة قاسية: «في حقيقة الأمر أنا لا أدري من منا الذي يلعب! ألا تدرك أنني منذ عامين وأنا أتحدث إليك ولم ألقك حتى الآن! رغم اعترافك أن الأبحاث في مضمونها تبشر بالخير، ورغم ذلك أنت لم تُقَدرها حُسن تقدير، كما أنك وبالإضافة أنك لا تشعر بما أعانيه منذ عامين في رحلة الهروب التي أعيشها يوميًا، أُقسم لك أنه لولا وجود دكتور كندة لما كان لدي الثقة في الاستمرار في تلك المراسلات الهزلية التي بيني وبينك كل هذه الفترة، فقد أثبت لكم جديتي وأنت لم تفعل شيء!»

ازدادت حدة الحوار وأجاب سليمان مندهشًا: «هل جننت؟! أتريد أن توقف المشروع فقط لأنك لم تقابلني؟!

كما أنني لو لا آخذ الأمر على محمل الجد كما تقول لما كنت أجلس أفكر لك عن طريقة للهروب ممن يحاولون الوصول إليك».

مازن: «يا أستاذي الفاضل، لو أنك تقدر قيمة تلك الأبحاث حقًا سوف تترك ما في يدك لإيجاد الطريقة الملائمة لتنفيذها، وما كنا جلسنا كل

هذا الوقت هاربين». أكمل مازن حديثه محاولًا أن يحسم الأمر: «على كل حال الأمر أصبح منتهيًا لأني لم أَعُد وحدي».
تعجب سليمان قليلًا وأجاب محاولًا أن يفهم ما بين السطور: «يبدو أن هناك من يساومك على شيء هام بالنسبة لك، يا بني اسمعني جيدًا، سوف نجد حل ما عما قريب، وصدقني أنا لا أدخر جهدًا في ذلك، وسوف نلتقي في خلال وقت قصير إن شاء الله، أخبرني أين أنت الآن؟»
مازن: «دكتور سليمان، أمر هروبي كان يسيرًا في السابق، مجرد حقيبة ظهر وحقيبة صغيرة لملابسي وألوذ بالفرار في لمح البصر، الآن أنا لم أَعُد وحدي وإن كان في مقدوري المخاطرة بروحي سابقًا فلا يمكنني ذلك الآن».
أجابه سليمان في نفاد صبر: «لن تقتنع إلا بلقائي، وللأسف دكتور كندة مختفية منذ فترة حتى تشرح لك حقيقة الأمر، على أي حال فقط أخبرني أين أنت؟»
مازن: «أنا في باريس».
سليمان: «جيد جدًا، في أقرب فرصة إن شاء الله سوف نلتقي، وإذا لم أستطع سوف أتدبر لك الأمر للقاء دكتور مصطفى، أتعرفه؟ بالتأكيد حكت عنه لك دكتور كندة؟»
أنهى المحادثة معه وهو على أمل أن لا يطول انتظاره هذه المرة، لعل سليمان قد اقترب من إيجاد الحلول المناسبة، وبالطبع كانت مرام تستمع لحديث مازن.
- «أنا لا أعرف مع من كنت تتحدث، ولكن صدقني أنا لن أرضى بقراراتك تلك».
نظر إليها مازن مبتسمًا بوجهٍ عابس محاولًا أن يفصل بين حديثه معها ومعركته التي أنهاها لتوه مع سليمان: «عن أي قرارات تتحدثين

آنستي؟»
مرام: «مازن من فضلك أنا لا أمزح، أتكلم عن قرارك بوقف تنفيذ التجارب على أبحاثك، أهذا ما توصلت إليه بعد أسبوع بأكمله من التفكير وتصفية الذهن!»
أجابها مازن محاولًا تقليل حدة الحوار لأنه لا يتحمل معركة أخرى: «اهدئي يا عزيزتي، فالقرار ليس نهائيًا، فقد وعدني دكتور سليمان هذه المرة بأن يُسرع في النظر في الأمر حتى ننتهي منه عما قريب، لذا يتوجب علينا الانتظار قليلًا قبل أن نتخذ أي قرار بشكل نهائي».

بعد مرور عشرة أيام بقيا على وضعهما لحين التوصل لحل جذري، لم تكن محاولات دكتور سليمان لتأتي مثمرة، فقد كان بحاجة لمزيد من الوقت لتدقيق اختياراته، الأمر الذي لن يقبل به مازن بالتأكيد، ولذلك كان عليه تدبير لقاء مازن مع دكتور مصطفى كما قال سابقًا، وعلى الفور هاتف صديقه دكتور مصطفى ليطلعه على آخر المستجدات في ذلك الأمر ولترتيب لقائه مع مازن.
المشهد العام: شارع مزدحم بالمارة إثر شتاء شمسه دافئة قليلًا قبالة أحد المقاهي المجاورة لبرج إيفيل، حيث يجلس مازن منتظرًا قدوم دكتور مصطفى في الموعد المحدد في الحادية عشر صباحًا، ليرى شخص يرتدي ملابس رياضية متوجهًا نحوه ويعرف فيما بعد أنه دكتور مصطفى.
- «صباح الخير».
أجاب مازن ويبدو عليه الدهشة قليلًا: «صباح النور دكتور، تفضل».
ابتسم دكتور مصطفى قائلًا: «مرحبًا، لماذا يبدو عليك التوتر؟»
مازن: «لا أبدًا، ولكني فقط مندهش لهيئتك التي تبدو فيها كلاعب

رياضي».
ضحك دكتور مصطفى وأجاب يمازحه: «ليس كل العلماء مجانين مثل دكتور سليمان، فهو وضع استثنائي في شخصيته، كما هو وضع استثنائي في عمله ما شاء الله».
عَلَت ضحكات مازن ورد في غير حرج: «كنت أخشى أن أكون مثله في تلك الشخصية المجنونة عندما أكبر، حمدًا لله أنني لست الوحيد الذي يرى أنه مجنون».
بداية الحديث بالروح المرحة التي أوجداها في حوارهما سَهَّلَت تعارفهما، وجعلت هناك قبول من كلا الطرفين لخلق روح من المحبة والإخاء رغم فرق السن الذي يقرب لعلاقة بين أب وابنه.
- «منذ ما يقرب العام تحدثت إليّ عنك دكتور كندة، وكانت تبدو منبهرة بأعمالك، وبعدها بفترة وجيزة اجتمعنا ثلاثتنا وقد ناقشنا أبحاثك ونتائجها، ووجدنا أنها نظريًا رائعة وقد تبدو أجمل إذا دخلت في إطار التجربة».
ابتسم مازن في حرج قائلًا: «هذه شهادة أعتز بها، ولكن أستميحك عذرًا دكتور، ألا ترى أن الكلام متناقض مع الأفعال».
أدرك دكتور مصطفى ما يقصده مازن وابتسم وهو يجيبه قائلًا: «أنا أعلم مقصودك، وأعلم أنك مندهش أن يأتي إليك شخص قائلًا إنك اكتشفت أعجوبة وتجده لا يساعدك في أن تطلقها للعالم أجمع، ولكن صدقني قد يبدو لك أن دكتور سليمان متخاذل في هذا الأمر، ولكنه في الحقيقة يبذل كل مساعيه لتحقيق رغبتك».
مازن: «دكتور كما تعلم أن الأمر الآن امتد لقرابة العامين، خلال هذين العامين أنا لا أحظى بحياة كباقي البشر، أنا هارب منذ عامين ولا أعلم ربما أنا معك الآن، ولكن غدًا في مكان آخر أو ربما لن أكون موجودًا».

أجابه دكتور مصطفى في أسف: «معك حق وأنا آسف لذلك، وبقدر أهمية عامل الوقت بقدر أهمية دقة الاختيار. أخبرني يا مازن، أنت طلبت أن تكون التجارب في مصر أو على الأقل في دولة عربية، صحيح؟»
مازن: «صحيح».
دكتور مصطفى: «بالفعل سليمان كان يحاول تنفيذ مطالبك ولكنها عسيرة جدًا، المشروع كبير وتنفيذه ليس بالمهمة اليسيرة، كما لا ننسى أن المشروع رهن التجربة أي أنه يصعب أن تقنع إحدى المؤسسات الكبيرة بجدية الأبحاث ما دامت غير مؤكدة، إضافة أن تحديد المكان لا يساعدنا على الإطلاق، فمصر لم تصل بعد لمرحلة الاستقرار فضلًا عن وجود شحن لقيام ثورة ثانية، كذلك الحال في تونس التي لم تستقر أمورها بعد، ناهيك عن الوضع الدامي في سوريا واليمن وليبيا، وبالطبع القضية الفلسطينية من قديم الأزل، والعراق وحالة الانفلات الأمني منذ الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣م. وبذلك لم يتبق لنا غير دول الخليج التي تعد منطقة جذب استثمارات ممتازة وبالطبع سوف يرحبون بمثل هكذا مشروع، ولكن كما يعلم جميعنا أن دول الخليج فاتحة أبوابها دون تدقيق في أصول الشركات، وفي ذلك مثال حي كالشركة التي كنت تعمل بها في قطر، فضلًا عن صعوبة إيجاد الإمكانيات اللازمة لتنفيذ مشروع بمثل هذا الحجم».
كلامه منطقي وهي بالفعل حقائق كان يعلمها مازن جيدًا، ولكنه كان يطمح إلى تنفيذ المشروع في مصر أو في أي بلد عربي، ولكن الواقع يضرب بطموحه عرض الحائط.
- «حسنًا، وما المقترحات البديلة؟»
دكتور مصطفى: «هناك طرفين يحاول دكتور سليمان أن يتعاون معهما بشأن مشروعك، بالطبع مع وجود ضمانات الملكية، أحدهما مشروع

المفاعل التجريبي الحراري النووي الدولي (آيتر)».
قاطعه مازن على الفور قائلًا: «نعم أعرف المشروع جيدًا، ولكن مشروعهم متعثر كما أنه يُعد عمل مشترك حيث يشترك في هذا العمل أكثر من ٨ دول!»
دكتور مصطفى: «معك حق ربما نضيع بينهم ولكن لا تنسى أن معوقات المشروع حلها في أبحاثك وهذا ما يعطينا الأفضلية، على أي حال، الطرف الثاني هو ربما يكون روسيا، روسيا دولة تطمح إلى الحصول على تفاعل الاندماج قبل غيرها، صحيح هي مشاركة في مشروع (آيتر)، ولكن إذا وجدت الحل الفردي لن تتقاعص عن تنفيذه، لأنها تعلم جيدًا أنها في منافسة قوية مع الولايات المتحدة للحصول على تلك الطاقة، خاصة بعد التحركات السرية التي بدأت تقوم بها أمريكا في هذا الصدد».
بدا مازن كأنه لا يعرف شيء عن تلك التحركات السرية التي يتحدث عنها دكتور مصطفى، وقرر البحث جيدًا في الأمر فيما بعد، ولكنه بعد لحظة من الصمت أجاب بنبرة حائرة: «أي أنه يتوجب علينا الانتظار مرة أخرى، حسنًا».
أدرك مصطفى ما يحمله ذلك الشاب على كاهله، وترك مقعده المقابل لمازن وجلس على مقربة منه قائلًا وهو يُربت على كتفيه مبتسمًا: «لن أقول لك أنني أعلم ما أنت به، ولكني أشعر بالقليل منه ولكن إن الله مع الصابرين يا بني، وحاول أن تمضي بعض الوقت لتسترخي، واعتبر أنك هنا في إجازة حتى تتخلص من الضغط، وفي حال كنت بحاجة لأي شيء فيسعدني اتصالك في أي وقت».

****

في أحد أيام شهر نوفمبر ١٩٨٥ عقد مؤتمر قمة للدول العظمى في جنيف، ضم كلًا من رئيس الوزراء الروسي آنذاك غورباتشوف، والرئيس

الأميركي ريغان، وبعد التشاور مع الرئيس الفرنسي ميتران، اقترح الجانب الروسي إقامة مشروع دولي لتطوير مصدر جديد للطاقة للأغراض السلمية يعتمد على طاقة الاندماج النووي، وأن يكون هذا المشروع العملاق أكبر مشروع علمي لإنتاج الطاقة في القرن الـ٢١ والذي عرف باسم المفاعل التجريبي الحراري النووي الدولي (آيتر).

ولتحقيق هذه الفكرة الطموحة، كُلفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية بتنفيذ هذا المشروع، وقد تم الإتفاق على أن يقوم كل المشاركين بالمشروع بتصنيع أجزاء محددة منه، ونقلها إلى مكان التجميع في منشأة كاداراش جنوب فرنسا، وبالرغم من مساعي الوكالة لتنفيذ مشروع الاندماج النووي، وتنظيمها عددًا من المؤتمرات العالمية لتطوير طاقة الاندماج النووي، وعقدها الكثير من الاجتماعات الفنية للخبراء في مجال الاندماج النووي، فإن تحقيق هذا الحلم قد تعثر أكثر من مرة، حيث انسحبت الولايات المتحدة الأميركية منه بسبب تكلفته الباهظة ثم عادت إليه، كما أن تكاليف بناء المفاعل النووي قد تجاوزت التوقعات، مما أدى إلى تأخير المشروع سنوات طويلة.

المشكلة الاقتصادية كانت أحد أبرز المشكلات التي كادت أن توقف بناء المفاعل بشكل كامل، حيث قُدرت تكلفة البناء في البداية بنحو خمسة مليارات دولار ومتوقع بدء أولى تجاربه بالوقود في عام ٢٠١٦م، في حين أنه أثناء التنفيذ وجد أن التكاليف قد تتجاوز الـ ٥٠ مليار دولار أي حوالي ١٠ مرات ضعف التقديرات الأولية، كما لن تبدأ أولى التجارب قبل عام ٢٠٢٧م أي بتأخير ١١ عامًا عن الجدول الزمني!

- «هل أُعد لك فنجان من القهوة معي؟»

لم يسمعها مازن حين كان يجلس في إحدى زوايا غرفة المعيشة حيث يطالع حاسوبه الشخصي، كما يحيط نفسه بكثير من الأوراق التي تبدو

هامة للغاية، وعادت تسأله مرام مرة أخرى: «أنت أيها العبقري! ألا تريد أن تحتسي شيء؟»

أجابها مازن دون اهتمام: «أنت تشتتين تركيزي! حسنًا، أي شيء».

مرام ضاحكة تسخر منه: «حسنًا، سوف نشرب القهوة ونضيف إليها بعض الحليب لأننا قد نموت بردًا هنا، هيا قُم وساعدني، ألست أنت من قال أننا في إجازة».

ابتسم مازن وأجابها وهو ما زال ناظرًا إلى حاسوبه: «لو أنك ترين ما أقرأ لأتيت تشاركيني القراءة!»

ابتسمت مرام وأجابته مندهشة: «ألهذه الدرجة الأمر شيق؟! حسنًا سوف آتي».

مازن: «زيدي لي قطعة من السكر رجاءً».

عادت حاملة أكواب القهوة وشاركته القراءة في ذلك البحث العميق الذي بدأه عن تلك التحركات السرية التي قامت بها أمريكا، التي بدأت تعمل سرًا بالفعل لإيجاد بديل عن مشروع (آيتر) المتعثر قاب قوسين.

وللوصول إلى واحدة من أكثر شركات الاندماج النووي سرية في العالم يجب على الزائرين شَق طريقهم من خلال مجمع مكاتب في الضواحي عند سفح جبال سانتا آنا إلى الشرق من إرفين، كاليفورنيا، إلى أن ينتهوا إلى مقر كبير لشركة تراي ألفا إينرجي حيث لا توجد أي علامات لأن الشركة تحمي أسرارها التجارية بإحكام شديد لدرجة أنها لا تملك موقعًا على شبكة الإنترنت!

المبنى يحوي واحدة من أكبر تجارب الاندماج الجارية الآن في الولايات المتحدة، وهي أكثر التجارب غير التقليدية، فبدلًا من استخدام مفاعل توكاماك بشكل الدونات الذي هيمن على بحوث طاقة الاندماج النووي لأكثر من ٤٠ عامًا، «تختبر حاليًا تراي ألفا مفاعلًا خطيًا تَدَعّي أنه

سيكون أصغر وأبسط وأرخص.

مشروع (آيتر) تديره سبعة أطراف هي الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة، وروسيا والصين واليابان، والهند وكوريا الجنوبية، وبسبب المشاكل الاقتصادية وتعثر المشروع انسحبت الولايات المتحدة أكثر من مرة ثم عادت مرة أخرى! في حين أنها تعمل سرًا على نموذج آخر ولا يدري أحد عن الأمر شيء! ولماذا عادت لتنفيذ مشروع (آيتر) بعد انسحابها؟! فما كان لمازن ومرام غير أن يوقنوا أن أمريكا تعمل لصالحها وتريد أن تُمسك العصا من المنتصف!

****

هدوء ما قبل العاصفة

بعد مرور خمسة شهور، من أجمل وأسعد الأيام لمازن ومرام، فقد قضاهم مازن بالفعل كإجازة كما قال له دكتور مصطفى، والذي شاركهما بعض أوقاتهما السعيدة، وكان بمسابة الأب لهما، كما كان للمكان سحره، فهم في المدينة التي لا تنام، فكيف لهما ألا يقضيان إجازة ممتعة! فتلك المدة لم تكن مجرد إجازة، فهي إجازة للعمر.
وبين جو بديع ومناظر خلَّابة، وشواطئ وأماكن سياحية مبهرة، وبين ضحكات مرام التي ملأت الدنيا سعادة لمازن، وبين رجلٍ لا يعترف بسنه -د.مصطفى- وأطلق العنان لقلبه لينطلق ويستمتع بأيامه التي ربما تكون الأخيرة، وَرَدَ إليهم خبر وفاة بيلي!
بينما كان مازن في التراس يطالع بعض أبحاثه في جو هادئ، كانت مرام

بالداخل جالسة في غرفة المعيشة والتلفاز مفتوح وصوته منخفض، وهي تقرأ أحد الكتب، ليدخل مازن لأخذ كوبًا من المياه، ويلفت انتباهه مراسل تليفزيوني يعلن خبر وفاة أحدهم.

»توفي إثر طلق ناري في الرأس داخل إحدى الشقق المستأجرة في شمال لندن، وبمتابعة التحريات توصل فريق البحث الجنائي أنه شخص يُدعى بيلي، أمريكي الجنسية، ويعمل بإحدى الشركات المرموقة في مجال العلوم والتكنولوجيا، واستبعد المحققون أن يكون الدافع وراء الجريمة هو السرقة، حيث وُجِدَت أشياء قَيّمة داخل الشقة من ممتلكات المجني عليه، ورَجَّحَ المسؤولون أن تكون واقعة اغتيال للبحث عن أشياء بعينها نظرًا لوجود بعض الأوراق المبعثرة«. هكذا كانت تقارير المراسلين.

لم يكن للخبر مردود جيد لدى مازن، ولكن كان مردوده عكس المتوقع، فالخبر في ظاهرة أنه تخلص من شخص كان مكلف بمطاردته وهذا أمر جيد، ولكن ما وراء الخبر لم يكن جيدًا من وجهة نظر مازن.

- »هلا تهدأ قليلًا لما أنت ترى الأمور هكذا؟!«

أجاب مازن وهو يفكر مليًا: »في تفاصيل الخبر قالوا إنه لا توجد شُبهة في أنها عملية سرقة ومن المرجح أن تكون عملية اغتيال. حسنًا، إذا كان الأمر هكذا فبالتأكيد من جاء ليغتاله ويبحث عن شيء معين فليس هناك أهم من حاسبه الشخصي أو هاتفه النقال!

مرام: » كلام صحيح ولكن أين المشكلة؟! ربما هناك من يطارده ويبحث عن شيء ما في أعماله«.

أجابها مازن وهو على يقين: »مؤكد أنه كان مطارد حتى سنحت الفرصة المناسبة لمطارديه لكي يتخلصوا منه، ولكني أشك في أمر أنه هناك شيء ما في عمله فأمثال بيلي وجماعته كائنات طفيلية تعيش على مجهود

الآخرين ولا يحسنوا ابتكار شيء البتة».
بدا الأمر مبهم لمرام ولم تَعُد تفهم شيئًا: «أنا لم أفهم وجهة نظرك حتى الآن!»
أخذ مازن نفسًا عميقًا ورد يمازحها: «كيف تصلين إلى اكتشاف علاج لم يكن موجود وأنت بهذا الذكاء ولا تفهمين!»
ضحكت وردت بوجهٍ عابس: «تأدب يا هذا ولا تنس أنني أكبرك عمرًا».
ضحك مازن وأجابها: «حسنًا آنستي، ما أقصده أن بيلي وراءه جماعة إسرائيلية، هذا إذا لم يكن مدعومًا من الحكومة نفسها، فكيف يُستَهدَف ويُقتل بهذه السهولة!»
مرام: «إذًا أنت تقول إن جماعته تخلت عنه؟ أو ربما هم نفسهم من قتلوه؟!»
أجاب مازن وبدأت حيرته تزداد: «كلا الفرضيتان مرجحتان، هناك حلقة مفقودة في أمر وفاة بيلي ولا بد أن أعرفها!»
توجه على الفور يفتح حاسوبه ليبدأ برصد جهاز بيلي والتجسس عليه محاولًا كشف تلك الحلقة المفقودة، وجد أولًا أن جهاز بيلي مفتوح من آمستردام في هولندا، ثم تطرق لبعض محادثاته المريبة مع شخص يدعى ميشيل، كان يبدو عليها طابع السرية، ومحادثات أخرى مع بعض زملائه ينصحونه بالانصياع للأوامر، وبعد فحصٍ دؤوب في الملفات ومحاولة ربط تلك المحادثات ببعضها البعض خَلُصَ مازن إلى أنه أصدرت تحذيرات رسمية من شركة كونانو بأن يَكُف البحث عن مازن بعد أن صَرَفَت النظر عن الأبحاث الخاصة بمفاعل الاندماج النووي، وأن تمسكه بالبحث خلف تلك المعلومات يثير غضب المسؤولين في الشركة، ذلك ربما يدفع الشركة إلى التدخل وهو الأمر الذي تحاول تجنبه لكيلا يحدث ما لا يُحمد عُقباه.

كما وجد في مجموعة مراسلات أخرى من أصدقائه أنهم يحذرونه أن الشركة جادة في تحذيراتها، وعليه ألا يأخذ الأمر كصراع شخصي مع مازن، وشخص آخر أخبره بعد حادثة القطار في لندن أنه لا يتوجب عليه مطاردة مازن بعد الآن؛ لأن الشركة سبق وقد تعاونت مع إحدى الوكالات الأخرى التي تسعى أيضًا خلف مازن، وقد تم التنسيق بينهم في هذا الخصوص لتولي أمر ذلك الملف.

- «أرأيتم؟»

أجابه دكتور مصطفى مبتمسًا: «ذلك يعني أنه هناك أكثر من جهة كانت تفتش عنك!»

ردت مرام منبهرة: «الآن فهمت، أنت تقصد أن ما حدث في محطة القطار لم تكن أنت المقصود به؟»

رد مازن بالإيجاب وزاد على كلامها قائلًا: بل أيضًا ربما ما حدث في ميدان ترافالغار لم يكن أحد منا هو المقصود، ففي كلا المنطقتين كان بيلي متواجدًا».

ابتسم دكتور مصطفى ورد بِحِس الدعابة: «حسنًا، بإمكاننا أن نطمئن الآن أنكما على الأقل لستما مستهدفين».

قاطع مازن ذلك الاستنتاج المتفائل وقال في حذر: «ولكن علينا الانتباه، الآن تبحث عنا جماعتان، ذلك ما يعني عدد أفراد أكثر وتعاون أكبر، وربما نتائج أسرع، لذا علينا الحذر».

قاطع حديثهم المليء بالمفاجآت مفاجأة أخرى ورد صداها من إيرلندا، حيث أرسلت برانيا بريد إلكتروني لمازن يحتوي على كل المعلومات الخاصة بشركة كونانو، فمنذ خبر وفاة بيلي طلب منها مازن أن تستعلم عن أصل الشركة نظرًا لعلاقاتها في أوروبا، فضلًا عن كون أبيها رجل ممن لا يستعصي عليهم شيئًا.

هي شركة هولندية الأصل تعود تسميتها إلى اسم المؤسس كونو وهو اسم هولندي، إضافة لمجال الشركة المتعلق بعلوم النانوتكنولوجي فتم دمج كلمتي نانو وكونو ليتم تأسيس شركة كونانو عام ١٩٩٥م، وحصلت الشركة على أول تكريم لها عام ١٩٩٨م في تل أبيب بعد أن عَمِلَت على تطوير السلاح الإسرائيلي، وهو أول المشروعات الضخمة التي تتسلمها الشركة على المستوى الدولي، والذي أنجزته خلال عامين ونصف، ومنذ ذلك الوقت وبدأ يلمع اسم الشركة في الأوساط العلمية، كما اقترحت الحكومة الإسرائيلية حينها إنشاء مقار للشركة في الشرق الأوسط وتبنت مصاريف التأسيس بالكامل.

وحتى غزو العراق عام ٢٠٠٣م كانت الشركة قد حققت إنجازات مع الجيش الإسرائيلي وبدأت تتخذ توجه آخر بعيدًا عن السلاح وتطويره لكي تجذب فئة أخرى من العلماء والباحثين الذين لم يرغبوا في تسخير قدراتهم العلمية لتطوير آلة الحرب، ولذلك أقدمت وقتها بالفعل على تنفيذ الاقتراح الإسرائيلي وإنشاء أول مقر لها في الشرق الأوسط في قطر، ومن وقتها وقد تم تسريب ما يقرب من ١١٢ بحث علمي غير مكتمل في اختصاصات مختلفة.

بدأت الأمور تتضح بشكل جلي مما يعطي لمازن فرصة جيدة للتخطيط لخطوته القادمة، التي كانت تبدو وأنها سوف تتجه عائدة مرة أخرى نحو الأراضي الروسية، حين أخبرته برانيا في آخر رسالتها أنها قادمة إلى فرنسا لأمرٍ هام.

****

في يوم الثلاثين من يونيو لعام ٢٠١٤ جاءت برانيا قادمة من إيرلندا، ذهب مازن ومرام لاستقبالها في المطار، وبالطبع لم تنفك مرام تترك الهاتف حتى تعاود الاتصال مرة أخرى بوالدها الذي أنهت معه مكالمة

منذ فترة وجيزة، فذلك اليوم يتزامن مع أحداث ثورة الثلاثين من يونيو، اليوم الذي لا يخفى عن ذاكرة العالم أجمع حين استيقظوا صباحًا ليجدوا ثورة أخرى تنتفض في مصر في أقل من خمسة أعوام، بل جاءت بحشود أكثر من سابقتها حيث شهدت حشود غير مسبوقة في تاريخ الثورات على مستوى العالم تعبيرًا عن الرفض التام للنظام الحاكم آنذاك.

- «هل تسمعني يا أبي! أنا لا أسمعك جيدًا الصوت حولك مرتفع جدًا».

أجابها فخري بصوتٍ عالٍ لكي تسمعه: «إنها أصوات الملايين يا ابنتي، ليتكِ معي الآن».

تساءلت مرام باهتمام: «لا تخبرني أنك نزلت المظاهرات وحدك!»

فخري: «لا، لا تقلقي، مجلس إدارة الشركة بالكامل معي، وجميع العاملين تقريبًا». ثم أكمل ضاحكًا: «يبدو لي أن جميع من في مصر موجودين في الشارع الآن».

ضحكت مرام وردت تدعو له: «حفظكم الله يا أبي، وكن حريص على نفسك».

فخري: «حسنًا، سوف أتصل بكِ حين عودتي إلى المنزل أريد أن أتحدث إليكِ في أمرٍ هام».

كان لقاء مرام وبرانيا يبدو فاترًا فلم تفعل مرام شيء غير أنها لوحت بيدها؛ لأنها كانت مشغولة في محادثة والدها.

كان مؤشرًا غير طيب لمازن؛ فهو بين المطرقة والسندان لأنه يعلم أن برانيا تحبه لدرجة تجعلها تحب أي شخص لمجرد أن مازن مرتبط به، كذلك كان يعتبرها صديقة مميزة ولا يريد خسارتها، ومن جانب آخر يجد مثل ذلك التصرف من مرام وهو لا يعلم إن كان مقصودًا أم لا، ولكنه لا يدل سوى على غيرة عمياء لا داع لها.

أنهت حديثها مع والدها حين كان مازن يَهُم بالانطلاق بالسيارة متجهًا

لحيث مكان إقامتهم، وهناك كانت المفاجأة من مرام! فهي قد شَعَرَت بالفعل باستياء مازن أثناء الطريق ولذلك حين وصولهم المنزل جلست في غرفة المعيشة تتحدث مع برانيا حين كانوا يتابعون الأخبار في القنوات الناقلة باللغة الفرنسية.

- «لم أر في حياتي حشود بهذا القدر الكبير!»

أجابتها مرام مبتسمة: «أنا كنت واثقة من حدوث ثورة أخرى، ولكن لم أكن أتخيلها بهذا القدر العظيم».

برانيا ضاحكة: «أرى أن ذلك يوضح القيمة الكبيرة لتعداد السكان الضخم».

بادلتها مرام الضحك وردت بحكمة: «ليس الأمر هكذا، الأمر لا يتعلق بتعداد سكان فحسب ولكن يرتبط بطبيعة الشعب أيضًا، فهناك بلاد كثيرة يتجاوز سكانها تعداد سكان مصر».

برانيا: «نعم، أنت محقة فالشعب المصري اليوم أثبت كم هو عظيم».

قالت لها مرام بلهجة آسفة: «بالمناسبة أعتذر لكِ على الاستقبال الفاتر في المطار، ولكن كنت أتحدث إلى أبي فهو ضمن الحشود المتظاهرة اليوم وكنت قلقة للغاية على سلامته».

أجابت برانيا مسرعة: «لا، لا عليكِ لا بأس، الأهم أن يكون والدك بخير».

تعجب مازن من تلك الأُلفة وذلك التحول في أسلوب مرام حين كانت في المطار وعندما وصلوا إلى المنزل، فتلك الأجواء أخرجته من توتره الذي يجعله أحيانًا يتعامل بغير طبيعته، وحينها بدأت أمسيتهم بعد أن رحبوا بضيفتهم حيث قاموا سويًا لإعداد الطعام، وتبادلوا بعض النكات والضحكات إلى أن بدأ حديثهم العملي، وهو ما جاءت برانيا من أجله.

- «إنه رجل أعمال روسي، ومهتم بإنجاح تجارب الاندماج النووي».

مازن: «وكيف هي معرفتك به؟ أقصد هل أنت تثقين به؟»

أجابت برانيا وهي تحتسي رشفة من كوب الشاي: «هو رجل مرموق في وسطه الاجتماعي، بالإضافة لكونه على علاقات قوية بالحكومة الروسية، وكما تعلم أن روسيا أول من بدأت التجارب في هذا الشأن حين ابتكروا مفاعل توكاماك، لذلك فهم بالطبع مهتمون بالأمر ليشاركوا بإطلاقه من أراضيهم، وحتى إن كان هناك بعض الاختلافات في عملية التنفيذ فليس من سماتهم اللجوء إلى الطرق الملتوية، وعلى مستوى شخصي فهو صديق مقرب لعائلتي من جانب أمي، لذا لا داع للقلق».

مرام: «أعتقد أنها بداية تبشر بالخير، لذا أقترح أن تجلس معهم قريبًا».

هَز مازن رأسه علامة الإيجاب قائلًا: «حسنًا، حددي لنا موعد معهم، وأنا سوف أقابلهم، ولكن رجاءً لا تخبريهم أنهم سوف يجلسون مع صاحب الأبحاث».

برانيا: «لماذا!؟»

مازن: «أريد أن تكون أول مقابلة للتقييم والتعارف، ولا يضر أن نتفق على الخطوط العريضة على أن يكون هناك موعد آخر معهم في مصر بحضور دكتور سليمان».

اعتذرت مرام من حديثهم حين سمعت رنين هاتفها وذهبت إلى التراس تتحدث إلى والدها.

- «حسنًا، أخبريني إلى متى سوف يظل وضعك هكذا؟»

أجابت مرام محاولة أن تهدئ والدها الذي بدا وكأنه مستاء: «لا تقلق يا أبتي، أنا أحاول مع مازن حل الأمر سريعًا».

فخري: «يا ابنتي بالطبع أنا سعيد لكونك في أمان، ولكن وضع وجودك مع شاب غريب غير مقبول!»

ابتسمت مرام وأجابت باتزان: «بالطبع، معك حق ولكن كما تعلم يا أبي الظروف هي من أجبرتنا على ذلك، وكما أخبرتك سابقًا عن مازن فهو...»

قاطعها فخري قائلًا: «نعم، نعم، أعلم أنه شاب مؤدب وخلوق ولكن هذا لا يمنع أن وضعكم غير صحيح».
مرام: «لقد مَرَ وقت طويل ولم يبقى غير القليل صدقني، المسألة مسألة وقت ونتمنى ألا تكون أكثر من ذلك».
أجابها فخري وهو يأخذ نفسًا عميقًا: «المهم سلامتك، ولكن يا عزيزتي لا تنسي أنكِ مصرية، ولنا عاداتنا وتقاليدنا التي لا يمكن أن نغيرها».
ضحكت مرام وردت تحاول أن تخرج أباها من غضبه: «لا تقلق يا أبي، فمازن أيضًا مصري ويحافظ على عاداته وتقاليده ومتدين أيضًا، صدقني لقد طلب مني مرارًا وتكرارًا أن أجعله يتحدث لك، ولكني أخبرته أنك متفهم وتعلم أنه وضع استثنائي».
لعله أمر من الصعب حدوثه داخل أي أسرة شرقية أن تترك بنت مع أحد أصدقائها الصبية، ولكن الأمر استثنائي لكليهما -مرام ومازن- لذا ففي تلك الأوضاع القهرية أخلاقهما هي التي سوف تعبر بهما إلى بر الأمان.

****

في صباح اليوم التالي استيقظت مرام باكرًا، لم تستطع النوم كثيرًا حيث كان يشغل بالها أكثر من شيء، كلام والدها بالأمس، وكذلك أمر هروبها بالإضافة أنها تهتم لأمر مازن. خرجت من الغرفة ذات السريرين في هدوء لكيلا تزعج برانيا التي تشاركها غرفتها لحين موعد سفرها بعد لقائهم مع الفريق الروسي. وبكل هدوء تسللت إلى المطبخ لإعداد فنجان قهوة وأخذته تحتسيه بالشرفة.
كان مازن ممدًا على الأريكة خلفها وشيئًا فشيئًا بدأت تخترق أشعة الشمس غرفة الجلوس ليبدأ مازن بالاستيقاظ رويدًا رويدًا.
- «صباح الخير، لماذا استيقظت باكرًا؟» بصوتٍ ناعس.

ابتسمت مرام وأجابته: «لقد أفزعتني يا هذا!»
رد إليها الابتسامة قائلًا: «إذًا أنت كنتِ تفكرين في شيء ما وهذا ما أقلق نومك، حسنًا أخبريني؟»
نظرت إليه مرام بابتسامة هادئة: «لقد كنت أتحدث إليك وأنت نائم، هل سمعتني؟»
ضحك مازن وأجابها يحك عينيه: «نعم كنت أسمعك، ولكن دعيني أخبرك أنه لا داع للقلق، لن نستمر هكذا طويلًا».
بدأت تندهش مرام من كلام مازن الذي يبدو وكأنه كان يسمع حوارها مع والدها بالأمس: «أكنت تسمع محادثتي مع أبي بالأمس؟!»
ابتسم مازن وأجابها بكل ثقة: «لا، ولكني قرأت ما دار بينكما في ملامح وجهك».
ضحكت مرام قائلة: «ألهذه الدرجة يسهل قراءة أفكاري؟»
مازن: «على العكس تمامًا، كان يَصعب هذا الأمر عليّ سابقًا، ولكن بِتُّ أستطيع الآن».
مرام: «وما الذي تغير؟»
مازن: «في البداية كنتِ مترددة في أن تجعليني أحد المقربين إليكِ، ولكنك الآن جعلتيني أكاد أكون أقرب الناس إليكِ، لذا فأمر قراءة أفكارك يصعب على أي شخص غير الذين أنت تودين أن تجعليهم أقرب إليك من حبل الوريد».
بدأت تشعر بالإلهام وناقشته وهي سعيدة من كلماته بكل موضوعية: «ولكن لنكن واقعيين، لقد كانت مشاعرنا أكثر فيضًا من الآن، فكيف ترى أنني سابقًا كنتُ مترددة في جعلك شخص قريب مني؟»
مازن: «حقًا كان يبدو ذلك، فقد كنا ما نزال في عمر المراهقة وربما ما زلنا إلى الآن، ولكننا على الأقل أصبحنا أكثر نضجًا، لذا فالحب ليس

بالضرورة أن يكون فائض وأن تصبح كلمة مكررة كل يوم، فهي أفضل حين تكون أفعالًا لا أقوال وأن تريه في كل فعل ورد فعل، وهذا ما يحدث الآن، ربما قليلًا ما نتبادل كلمات الحب ولكن كثيرًا ما نفعله في ردودنا، في نظراتنا، في اهتمامنا، فتلك أمور لا تخفى على عاشق».
ضحكت مرام وأجابته ساخرة: «حسنًا أيها العاشق، لا تستغل الموضوع لكي تتغزل ولا تنس هناك برانيا في الداخل».
مازن: «برانيا شخص مهذب وذات أخلاق نادرة، لذا تمسكت بمعرفتها إلى الآن، أتوافقينني أن ندعوها لزيارتنا في مصر حين ننتهي مما نحن فيه؟»
مرام: «بكل تأكيد فهي حقًا كذلك، صحيح أني لم أجلس معها سوى مرة واحدة، ولكن يبدو ذلك عليها ويكفي كلامك عنها».
أضاق مازن عينيه وقال لها مازحًا: «أهذه هي الغيرة؟»
ضحكت مرام عاليًا: «حسنًا، انهض لأنه يبدو أنك ما زلت تغط في نوم عميق، لدينا الكثير لنفعله اليوم».

بعد أن تواصلت برانيا مع الفريق الروسي وحددت موعد للقائهم، استأجر مازن شقة بعيدة تمامًا عن مكان إقامتهم كإجراء احترازي، واتفق مع دكتور مصطفى للحضور معهم كما أقنع مرام بعدم الحضور لكي تكون بعيدة عن الأنظار.
كانوا ثلاثة أفراد، رجلان وفتاة، الأول يدعى فاسيلي وهو الشخصية الرئيسية، والآخر يدعى ساشا وهو المستشار الثاني، فيما كانت الفتاة هي المستشار الأول وتدعى أوكسانوشكا.
الشعوب الروسية هي بطبيعتها قليلة الكلام، وتجد الطبيعة القاسية لأجواء بلادهم جلية في أسلوبهم في الحياة، كما في طريقة كلامهم، فلا

مجال لخلق حوار ودود معهم فضلًا عن كونهم جاؤوا لمهمة معينة وهي تقييم المشروع المقترح من مازن وتحديد آلية العمل على التنفيذ والاتفاق على الشروط.
كانت برانيا تقوم بأعمال الترجمة لمازن، وعلى الجانب الآخر كان يترجم ساشا للسيد فاسيلي، وبالفعل لم يخبرهم مازن أنه صاحب الأبحاث، وإنما هو نائب عنه لأنه في مصر، ومن جانبه أبدى السيد فاسيلي إعجابه بالمشروع قائلًا: «إنها مغامرة مشوقة لتجربتها، وكم يسعدنا أن نكون شركاء في إطلاق المشروع».
مازن: «حسنًا، ما زال لديكم الوقت الكافي لعرض الأبحاث على خبرائكم في روسيا إلى أن نلتقي في مصر مع صاحب الأبحاث بنفسه لإبرام العقود اللازمة من أجل ذلك».
فاسيلي: «ولكن لا يسعني تحديد موعد لقائنا القادم في الوقت الحالي؛ فعلينا مراجعة جدول الأعمال وكذلك كما قلت الآن لا بد أن يطلع خبرائنا على الأبحاث، لذا مجرد أن ينتهوا من الأمر سوف أتواصل معكم».

****

انتهى الاجتماع وخرج الجميع سعداء بالنتائج الأولية التي تبشر بالخير، لتعود برانيا سالمة إلى بلادها، وما هو إلا أسبوع واحد فقط ليفاجأ مازن باتصال منها تخبره أن فريق العلماء لدى الروس انتهوا من نظر الأبحاث وقالوا إنها مبشرة جدًا، وبناءً عليه حدد السيد فاسيلي وبناءً على جدول أعماله أن يتم لقائهم في يوم السابع من أكتوبر.

****

كل الطرق تؤدي إلى هناك

١-في ربوع القاهرة.

القاهرة - ١٧ سبتمبر ٢٠١٤م.

منذ واحد وثلاثين شهرًا لم يشاهد مازن سماء القاهرة ولم تطأ قدمه أرضها، لذلك كان للحظة وصوله إحساس مختلف تمامًا، فكم كان يشتاق للعودة إلى الأوطان بعد غياب نحو ثلاثة أعوام، خاصة لشعوره بالغربة المستمرة لعدم الشعور بالأمان، لأن الأمان مرادف لكلمة وطن.
لم يأبه الأصدقاء والأهل بمن يطاردوهما -مازن ومرام- وذهبوا جميعًا في تجمع كبير لاستقبالهم في المطار، وكان برفقة مازن ومرام أيضًا الضيفان برانيا ودكتور مصطفى.
كما أقام والد مرام -فخري- عزومة للجميع فرحًا بتلك اللحظات المميزة، وعلى إثرها قضى الجميع سهرة فريدة من نوعها، كان تجمعًا كبيرًا جدًا ملأته روح الاشتياق، الاشتياق لمن هاجروا منذ زمنٍ قريب، ولكن المخاطر التي تحف بهم جعلت تلك الواحد وثلاثين شهرًا تبدو كأنها واحد وثلاثون عامًا.
حفاوة اللقاء جعلت من السهل تعارف العائلتين ، كما تعرفوا إلى برانيا وفريق الدكاترة، وأقحموهم في حواراتهم المرحة، فجنون دكتور سليمان وما أصاب عقله من هيستيريا بسبب غزارة علمه، وبرجوازية دكتور مصطفى التي قد توحي بأنه رجل أعمال، لم تكن تُنَبِئ باندماجهم السريع مع الحضور، ولم تكن تجعل الجميع أيضًا يتوقع بينهما معركة الديكة التي دائمًا ما يفعلانها ويُثيران ضحكاتهم على أنفسهم.

واختلاف برانيا عن باقي الحضور شكلًا وموضوعًا لم يكن يوحي بأنها سوف تنخرط معهم سريعًا، ولكن كل ما سَهَّل تلك الأمور وجعل وكأنهم يبدون عائلة واحدة حقيقية هو اشتياق الجميع لتلك اللحظات السعيدة كما يشتاقون لمازن ومرام، ولذلك كانت الابتسامة هي عنوان كل فعل ورد فعل بين الجميع.

يوم مميز كم كان يشتاق له دكتور مصطفى الذي يفتقد تلك الأجواء الحميمية منذ أن فقد زوجته في غربته، بقدر ما اشتاق له دكتور سليمان الذي لا ينفك أن يتخلص من أعماله المتلاحقة والتي ترمي به في كل بلدٍ تارة، كما أنها أجواء استثنائية لبرانيا التي عاشت وعاصرت الحياة في بلدان الشرق ولكنها لم تتذوقها أبدًا كتلك الليلة الفريدة، وبالطبع كان يومًا مميز لأهالي الهاربين مازن ومرام.

وقرابة نهوض الجميع كلٌ لبيته، أقدم مازن وللمرة الأولى أن يطلب محادثة والد مرام على انفراد.

- «خيرًا يا بني؟»

مازن: «كل خير يا عمي ولكن كان لي رجاء، ألا تقيم مرام في منزلها».

اندهش فخري قليلًا ورد يسأله بتعجب: «لماذا؟ إذًا أين تقيم؟»

مازن: «من يتتبعونها بالتأكيد يعرفون كل صغيرة وكبيرة عنها، وبالتأكيد لن يخفى عليهم عنوان منزلها! لذا كنت أقترح أن تقيم في فندق ما أو أن تقوم بإيجار إحدى الشقق كوضع مؤقت لحين الانتهاء من الأمر، وأنا أفضل أن تكون بإحدى الشقق المستأجرة لأن الفندق يكون به الكثير من الحركة والكثير من النزلاء.

نظر إليه فخري باندهاش قائلًا: «ألا نكون مبالغين في الأمر! أعني أنكم الآن في مصر ووسط أهلكم، فمن قادر على إلحاق الأذى بكم؟»

ابتسم مازن وقال بحكمة: «كل شيء وارد يا عمي، وعلينا الانتباه جيدًا،

تلك منظمات دولية يعني أنه من اليسير عليهم أن يكون لديهم ذراع في كل منطقة».

كان موقف مثير لدهشة والد مازن وأكثر دهشة لمرام التي لم تفارقها الابتسامة منذ أن سأل مازن والدها لمحادثته!

- «ترى هل كان منتظر أن يتقدم ليطلب يدكِ للزواج!» قالتها نادين مازحة.

أجابت مرام ضاحكة:« كفاك سخرية، بالطبع هو لن يفعل إلا حين أطلب منه ذلك».

استمرت نادين ضاحكة وهي تسأل: «أي حبٍ هذا!»

مرام: «إنه شيء لم ولن تستوعبيه أبدًا ما بينيٍ وبين مازن أطهر وأكبر بكثير من الحب».

استمرت نادين تداعبها وقالت في سخرية: «بدأت أشك في أمرك، أخبريني ماذا حدث في باريس؟»

عَلَت ضحكات مرام وأجابتها: «بالطبع لم يحدث شيء مما يجول في خاطرك، ولكن كل ما أعرفه أنني أمضيت وقتًا سعيدًا هناك». أكملت مرام حديثها وهي تجلس على مقعد إحدى الكافيهات المعروفة بحي مصر الجديدة صباحًا: «هناك قد ذاب ما بيننا، لقد تجاوزت عقولنا فكرة الاختلاف ورضينا بما كتبه الله علينا، الاختلاف لن يمنعنا أن ننعم بلحظات الحب، فالمشاعر الجميلة خلقت داخلنا للبوح بها وليس لكتمانها، حتى وإن كانت لن تلقى براح في علاقتنا أكثر من مسمى الصداقة».

نظرت إليها نادين بإعجاب قائلة: «أراك أصبحت تقولين كلماته السابقة؟!»

مرام: «بالفعل مازن كان محقًا، أثناء هروبه كان من الوارد جدًا

أن يلقى حتفه في أي لحظة، كذلك أنا عندما كنت في لندن، كانت الأجواء جنونية هناك، أتتخيلين أن تكوني وسط وابلًا من الرصاص! تلك اللحظات لن أنساها ما حييت، فهي التي جعلتني أسترجع كلماته حين قال لي أنه لا بد أن ننعم بكل لحظة نعيشها لأننا لا نعلم إذا كان بإمكاننا تعويض تلك اللحظات أم لا».

نادين: «أنا سعيدة لفرحك وهذا ما يهمني الآن، ولذلك علينا الاحتفال».

ابتسمت مرام قائلة في حرج: «لا يا صديقتي، صحيح أنا لم أركِ منذ وقتٍ طويل ولكن بإمكانك أن تنضمي إلينا».

اندهشت نادين وسألتها: «أنضم في ماذا؟!»

مرام: «لدينا متسع من الوقت قبل لقاءنا مع الفريق الروسي، ولذلك رتبنا جدول بالأماكن التي نرغب في زيارتها للتنزهه».

أجابتها نادين متعجبة: «رتبتم! وجدول! متى وأين وكيف؟ ومن هم الذين رتبوا؟»

عَلَت ضحكات مرام وأجابتها: «اهدئي يا عزيزتي إنه مازن، من لهفته قام بترتيب الأمور مع أصدقائه قبل أن يأتي، تخيلي أنه لم يعد إلى مصر منذ ما يقارب الثلاثة أعوام!»

نادين: «إنها مدة طويلة تجعله يفعل أكثر من ذلك، حسنًا سوف أحاول الانضمام إليكم».

اتجهت أولى خطواتهم إلى وسط العاصمة حيث المباني العتيقة التي تمثل التراث الحقيقي للوطن، ففي تلك الأحياء وبين ثناياها تشعر بدفئ المكان حتى وإن كان يعلوها الغبار، ففي قدم الحي تجد قيمته ليبقى صامدًا متحديًا عوامل التعرية، ومن أبرز أحياء وسط العاصمة الدرب الأحمر والموسكي وباب الشعرية والسيدة زينب ورغم قِدم هذه الأحياء إلا أن عبق التاريخ ما زال يُضفي عليها رونقًا يجعلك تتناسى الباعة

الجائلين والزحام الذي أصبح يَعُم المكان الآن.
فهي من أقدم أحياء القاهرة وأرقاها تخطيطيًا وعمارةً، حيث بناها الخديوي إسماعيل على أحدث الطرز الأوروبية المعمارية، حتى أنه تم إدخال الإضاءة في شوارعها قبل أن تدخل شوارع باريس، كل ذلك لتكون واجهة مشرفة لمصر، ولكن لا يوجد وجه مقارنة الآن بين باريس والقاهرة، فبمرور الزمن كانت تسير مؤشرات النمو والتطور بين القاهرة وباريس بشكل عكسي، فباريس سارت على نهج مصر وحافظت على ما وصلت إليه، أما مصر فلم تستطع الحفاظ على شيء، بل امتد إليها العمران بشكل عشوائي ليعبث بالتخطيط العمراني القديم، وأساء الباعة الجائلين لواجهة تلك المباني العتيقة وصارت تعلو أسطحها العشش والأوكار، كما تعرجت طرقاتها التي كانت ترش بالماء وتغسل يوميًا.
وامتدت خطاهم بعد ذلك لزيارة الحسين، وهو أحد الأحياء القديمة أيضًا التي تعتبر مزارًا سياحيًا لكافة الجنسيات لما يوجد بها من المعالم الأثرية الإسلامية القديمة والفاطمية ومنها مسجد الحسين ومنطقة خان الخليلي والجامع الأزهر، لقد تغيرت البلاد كثيرًا في وقت بسيط، واختلفت وجهات النظر في أن يكون الاختلاف سلبيًا متجهًا نحو الأسوأ وبين أنه تغيير سلبي ومتجه نحو الإصلاح، ولكن أجمع الزائرون على أنه اختلاف سلبي، فعلى سبيل المثال إسلام يرى أنه يصعب العيش في مصر بعد الآن، فكل شيء يتهاوى سريعًا، كما يتفق معه آدم الذي قال بشيء من اليأس: «لقد عشنا سنين عجاف الفترة الماضية آملين أن يتحسن الوضع بعد الثورة ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن».
في حين عارضه أحمد حين رد قائلًا: «لقد قمنا بالثورة على أمل أن نجني ثمارها، ولكن الأمر ليس يسيرًا، فنحن نتكلم عن فساد أكثر من ٣٠ عامًا، ولذلك لن يسهل إصلاح الأمر بين ليلة وضحاها».

وأضاف مازن قائلًا: «الأمر بكل بساطة يتلخص في طرفين، الأول هو فساد الجهاز الإداري في مصر طيلة الفترة الماضية، والطرف الثاني هو الشعب الذي تأثر بتلك القيادة الخاطئة؛ ما أدى إلى جهل وفساد وتفشي الأمية، وبالتالي مفهوم الحريات منتقص لدى الكثيرين، ولذلك حين قامت الثورة مطالبة بالحرية وحين نالها الشعب أصبح مثل شخص بدائي كان يعيش في العصور الحجرية ودخل إلى بوابة زمنية أخرجته إلى حياة الحضارة».
المصري: «أتفق معك بشدة، فالمجتمع المصري يفتقد لسياسة الاختلاف والاعتراض».

وفي زيارة هي الأولى من نوعها لهم جميعًا ذهبوا لزيارة حارة اليهود، ذلك الحي الموجود بشارع الموسكي، كان يحتوي قديمًا على أحد عشر معبدًا، أما الآن لم يعد هناك غير ثلاثة معابد فقط وهم معبد موسى بن ميمون ومعبد أبو حايم كابوسي ومعبد بار يوحاي.
لم يعد هناك شيء يدل على حارة اليهود التي تتوسط القاهرة الفاطمية سوى نجمة داوود السداسية المشغولة بالحديد على أبواب بعض المنازل القديمة المتبقية التي رحل عنها أصحابها ما بين عامي ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧، لكن الحارة صمدت باسمها.
وفي سياق متصل أبدى محمد إعجابه بالمكان، وأخبرهم في دهشة أنه ولأول مرة يعرف أنه يعيش في مصر بعض من الشيعة ليأتيه ردًا تاريخيًا من آدم حين قال: «يا صديقي في مصر القديمة لم يكن يهتم الناس بالتوجُهات الدينية ولم يَكونوا يعيرون للأمر أهمية، على العكس كانوا يتشاركون في تجارتهم ويتبادلون الزيارات، كنت تصدق بحق المثل القائل بأن «الناس لبعضها»، حين ترى جميع قاطني الحارة

يقفون بجانبك في حزنك قبل فرحك، وعندما ترى البيوت فاتحة أبوابها للجيران، وعندما تجد أولاد ليشع يلعبون مع أولاد عم محمد الفوال».
الشعب فيما بينه لم يكن يعترف باختلافه عن بعضه، وكان يبدو كأن الناس جميعًا من طبقة واحدة، والذي مثله أحد الأفلام المصرية القديمة -حسن ومرقص وكوهين- الذي كان يحكي عن ثلاثة من التجار الذين اختلفت أديانهم بين مسلم وقبطي ويهودي، على الترتيب، وحتى أن قصة الفيلم نفسه لم تكن تحكي عن الاختلاف بينهم بل أنهم جميعًا اتفقوا للنصب على شخص آخر وتناقلوا الأحداث بشكل كوميدي، فالمجتمع المصري منذ قديم الزمن وهو نسيج واحد بكافة اختلافاته، ولكن كان لأحمد رأيًا آخر حين قال: «ولكن علينا ألا ننسى قول الله في القرآن الكريم: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»».
كلماته أثارت الارتباك لمرام القبطية التي حاولت أن تُخفي اهتمامها بحديثهم وابتسمت بهدوء وهي تقول: «كلامك صحيح يا أحمد، ولكنك تتحدث عن النصوص الدينية في حين أن آدم يتحدث من الجانب الاجتماعي، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو نفسه الذي ذهب يسأل على جاره اليهودي حينما لاحظ غيابه لفترة طويلة دون أن يُلقي القمامة أمام منزله، كما أنه وقف ذات مرة حين مرت به جنازة فقام، فقيل له: «إنها جنازة يهودي»، فقال: «أليست نفسًا؟!» وأعتقد أن شرح الآية الكريمة يوجهنا إلى التمسك بمعتقداتنا جميعًا لكيلا يتزعز المرء عن دينه، ولم يكن المقصود منها أن تتجنب الاختلاط مع من هم من غير دينك، فالجانب الديني في حياة كل فرد هو أمر خاص به، ولكن حياتنا الاجتماعية نحن نتشاركها ما دمنا نعيش في وطن واحد».
لم يسع أحمد الرد بغير أنه ابتسم إعجابًا بردها وقال محاولًا تغيير الموضوع: «نعم يا مرام، أنت مُحقة لقد خلطت الأمور ببعضها،

وبمناسبة الحياة الاجتماعية فنجد في الأوروبيين خير مثال، فهم مجتماعات متحضرة وتحترم الإنسانية في حين أن أغلبهم لا يؤمن بشيء».

تدخل مازن قائلًا: «خير مثال يا صديقي، فبالحديث عن الحياة الاجتماعية علينا أن ننظر جيدًا في عمق المجتمعات الأوروبية فتجدهم يعرفون الأخلاق جيدًا ومقدرين لمعنى الإنسانية، تلك المعاني التي تؤكد عليها جميع الأديان، ولكن انظروا الآن كيف مجتمعاتهم وكيف حال مجتمعاتنا».

ديمة: «صحيح يا مازن، نحن بحاجة لثورة أخلاق أولًا».

المميز في حوارهم هو أسلوب النقاش فبين علامة قوية لعدم الاتفاق بين أحمد ومرام ووجود نزعة دينية في حديثهم، وبين الاختلاف الحقيقي في الديانات إلا أنهم تبادلوا وجهات النظر بسلاسة دون أن يتبدل الحوار إلى معركة مثلما نرى في برامج هذه الأيام، فإما تجد الصراع المباشر بين الضيفين اللذان هما من أبناء طائفة واحدة وبلد واحدة وربما يسكنان في حي واحد وأيضًا كانا يرتادان ذات يوم جامعة واحدة، ونجدهما الآن يتراشقان التهم وأبشع الألفاظ والسُباب، أو تجد القناة بأكملها ذات توجه خاص لتبدأ حملة من الإعلام الموجه بينها وبين القنوات الأخرى التي تعارضها، ليبدأ صراع من نوع آخر ولكن بشكل أكبر، فهي معركة قائمة على عدد المشاهدات! لينتهي اليوم بتشتيت المواطن البسيط، أما هم فقد حققوا أغراضهم بجمع المشاهدات ومن خلفها جمع المال! والحديث عن الإعلام لا ينتهي في سطور.

****

رحلت خطاهم بعيدًا عن وسط القاهرة ليتجهوا إلى شرق العاصمة في مصر الجديدة تحديدًا، قام بتأسيسها البلجيكي البارون إمبان عام

١٩٠٦م، وبها قصره الشهير -قصر البارون- ويتميز المكان بالمباني القديمة والتصميم الأوروبي أيضًا، وفي هذا الحي ذهبوا تحديدًا إلى شارع الكوربة فهو أحد أشهر شوارع مصر الجديدة حيث الهدوء وجمال المعمار الآسر، فتلك المنطقة من أشهر معالم حي مصر الجديدة وما يميزها بالتأكيد.

وبالطبع خلال جولاتهم في ربوع القاهرة تلاحظ لديهم وجود العديد من الجنسيات المختلفة السودانيين ومن سوريا والعراق والمغرب وإرتريا وفلسطين، فكانت التجمعات تختلف من مكان إلى آخر، ولكن كان واضحًا وسط صخب الشعب المصري في أي مكان تذهب إليه أن هناك لهجة أخرى غير مصرية.

- «إما أن مصر أصبحت منطقة جذب للسياح العرب أو أننا لسنا في مصر». قالها مازن ساخرًا.

وأجابته ديمة ضاحكة: «لا كُن متأكد أنت في مصر، أنا في البداية لم أستعب الأمر مثلك، ولكني اعتدتُ الأمر، وكأنني أعيش في حلب».

مازحها آدم ساخرًا: «لقد أصبحنا في احتلال، حتى أنك سوف ترى أن معظم المطاعم في مدينة السادس من أكتوبر أصبحت قائمة على السوريين».

عَلَت ضحكات ديمة لتجاوبه ساخرة: «هذا لأنكم فاشلون في المطبخ يا عزيزي، فعليكم بتركه لمن هم أهلٌ له».

دخلت مرام في مزاحهم قائلة: «صلوا على النبي يا شباب وهدئوا من روعكم، فلن نخسر صداقتنا من أجل صحن تبولة، وعلى كلٍ عليكِ أن تلتزمي الصمت يا ديمة، فأنا أعلم جيدًا أنك فاشلة أيضًا في المطبخ».

عَلَت ضحكات الشباب وكأن رد مرام جاء لنصرتهم ونصرة الشعب المصري وقال إسلام: «ولكن حقًا هم بارعون في المأكولات، وإذ كنا نقول

إنهم أخذوا نصيبًا كبيرًا من أرباح المطاعم فهذا بالتأكيد عن جدارة».
مرة أخرى كان يبدو الحوار غير متكافئ مطلقًا نظرًا لوجود ديمة السورية الوحيدة بينهم وفي بلد ليس بلدها إلا أن حوارهم كان ساخرًا ناقدًا للوضع، ولكن في وقت الجد أقروا جميعًا بالحقيقة حتى وإن كانت تنصر ديمة عليهم جميعًا فتلك الحقيقة لا تقلل من شأنهم أو شأن مصر، فسواء تفوق السوري على المصري في المأكولات أو العكس ففي النهاية جميعهم عرب وأشقاء، تلك هي الرسالة التي استمروا ينقلونها في حواراتهم المختلفة، حتى حين انتقل حوارهم عن السياسة، فمثلما يختلف الكثيرون على أحداث هذه الأيام فيما يحدث في سوريا، فيختلف أيضًا البعض عما حدث في الماضي أيام حرب ٦ أكتوبر.
- «لقد بدأ الحرب بقلب أسد وأنهاها كالخاسر حين ذهب لعقد اتفاقية كامب ديفيد».
أجاب مازن على ديمة بكل هدوء: «كل رؤساء العالم لهم سلبيات وإيجابيات، وبالتأكيد لن نجد شخص يتفق أو يختلف عليه الجميع، أما فيما يتعلق بالسادات فربما أنت مُحقة في جزء بسيط من حديثك؛ لأنكِ ترين الأمر من زاوية واحدة فقط».
سألته ديمة باهتمام: «حسنًا، أخبرني بوجهة نظرك رجاءً».
مازن: «حرب ٦ اكتوبر هي آخر تعاون مشترك بين أغلب الدول العربية».
قال محمد بلهجة الأسى على الواقع: «شارك فيها ٩ دول عربية بجانب مصر وسوريا».
ثم أكمل مازن: «بالضبط، بشكل رئيسي ومباشر كانت الحرب من جهة مصر وسوريا وباقي الدول جاء دعمها ومشاركتها ببعض فرق المشاة والطيارات، وبالطبع لا نغفل الضربة القاصمة حين تسببت دول الخليج

في أزمة بترول لدول الغرب».
قاطعته ديمة قائلة: «لأنها مثلما قلت حرب مشتركة، فيكف بعد هذا المجهود ويذهب السادات ويضع يده بيد الصهاينة وإقرار السلام؟!»
ابتسم لها مازن وأجاب شارحًا: «تلك هي الزاوية التي ترين منها الأمر، أن السادات خان من تعاون معه ولكن في حقيقة الأمر أن السادات وقتها قام بتنفيذ قرار مجلس الأمن حين أقروا وقف ضرب النار وبدء مفاوضات السلام، الزاوية الأخرى التي أتحدث عنها يا عزيزتي، أن السادات بدأ الحرب بتنسيق جيد مع الأسد، ولكن أثناء المعركة غاب التنسيق وهذا خطأ مشترك، ومن زاوية أخرى أيضًا لقد أخطأ الأسد حين تقدم بقوات المشاة بدون مظلة جوية، وهذا نفس الخطأ الذي وقع فيه السادات بحجة تخفيف ضغط الحرب على الجانب السوري، وبالطبع هذا التصرف كلف الجيش السوري والمصري خسائر كبيرة بعد أن كانت الخسائر محدودة.
الزاوية الرابعة والأخيرة أن الهدف من الحرب هو أن تسترد مصر سيناء وأن تسترد سوريا الجولان، وهذا حدث بالفعل لذلك لا يجب أن يُلقي كل حاكم اللوم على الآخر في حين أن أخطائهم مشتركة.
ورَدًّا على كثير ممن يقولون إن السادات قد خان العرب عندما تأكد من انتصاره، أود أن أقول إن السادات لم يتأكد من انتصاره حتى بعد نجاح الضربة الجوية وتحطيم أسطورة الجيش الذي لا يُقهر، فمصر كانت تحارب على خط تزيد مسافته عن ١٦٠ كيلو مترًا يعني مساحة انتشار القوات تزيد ضعف مسافة انتشار قوات الجيش السوري على جبهة الجولان، وما يدل حقًا على صعوبة الحرب على مصر أنها دخلت ١٣ كيلو مترًا فقط في عمق سيناء حربًا، أما الباقي فقد تم تسليمه بعد تنفيذ اتفاقية السلام، وهذا يُعد دهاء من السادات فضرباته الاستباقية

كانت حافز قوي للجنود المصريين ولنشر حالة من اليأس لدى المجتمع الإسرائيلي، وهو استخدمها جيدًا فقد حارب وانتصر دون أن يُظهر ضعف إمكانياته، كما أن اتفاقية السلام جاءت من مصدر قوة بعدما دُمرت القوات الإسرائيلية، ولكن كان لا بد من وضع حد للحرب لأنها لو كانت استمرت كانت لتزيد الخسائر على العرب، لأنه يعلم جيمعنا أن إسرائيل لم تكن وحدها في المعركة، فكان هناك جسر جوي أمريكي لإنقاذ إسرائيل قبل سقوطها دون رجعة».

إجابته استمالت عقلها وحَوَّلَ لديها الفِكر السيء تجاه السادات وبدأت تهز رأسها باقتناع بعد أن علمت منه جوهر الأمر وقالت له: «كلامك صحيح، ولكن بشكل عام لقد فرقتنا الحكومات وبعض المتعصبين، ولكن نحن كشعوب عربية في جوهرنا أخوة ونحب بعضنا البعض».

لعلهم لو اعتلوا المناصب السياسية كلٌ في بلده لاستطاعوا أن يتفقوا، فهكذا توحي شخصياتهم المختلفة في شكلها وجنسياتها وطباعها إلا أن تقبلهم للآخر وقبولهم لفكرة الاختلاف هي التي ترشحهم بقوة للنجاح، أو ترى هل مقولة المصريين صحيحة بشأن الكرسي؟!

****

في غروب شمس اليوم التالي جلسا على حافة اليابسة قبالة نهر النيل مباشرةً، يأتي ذلك قبل يوم واحد من موعد لقائهما بالفريق الروسي.

- «يا لها من نهاية رائعة!»

مازن مبتسمًا: «ومن قال إنها النهاية؟ منذ أن التقيتك في باريس ونحن نعيش أفضل أيامنا، وبالطبع لم نكن لنصفها بأنها الأفضل لو لم نأتِ إلى مصر ونلقى أحباءنا وأصدقاءنا».

ابتسمت مرام في هدوء لتجيبه: «أقصد أنها نهاية رائعة للمرح، لنبدأ العمل من الغد».

مازن: «وسوف نستمر إن شاء الله في أجواء المرح تلك بعد لقاء الفريق الروسي والاتفاق على تفاصيل مشاريعنا».
انتبهت مرام ونظرت باندهاش إليه بعد أن كانت ناظرة إلى النيل قبالتها والتفت تسأله: «مشاريعنا! ماذا تقصد؟»
نظر مازن إليها بابتسامة قائلًا في مرح: «أَلَم أُخبرك؟ على جانب لقائي بهم أخبرتهم بشأن مشروعك، وقالوا إنه من المحتمل تنفيذ المشروع لأنني أخبرتهم أن نتائج أبحاثك مؤكدة، ويتبقى فقط أن يلتقوا بكِ بشكل شخصي لتشرحي لهم الأمر».
نظرت إليه مرام واتسع شدقاها فرحًا بتلك الأخبار، حتى أنها لم تستطع كيف تعبر عن فرحها وسألته بسذاجة: «أخبرني كيف لي أن أشكرك الآن! وأنا أعلم جيدًا أنه لا يوجد شكر بيننا، ولكن أنت حقًا رائع يا مازن».
ثم وضعت يدها على يده ليقول لها بوجه حاني: «كما قلتِ، ليس هناك من كلمات شكر بيننا ولكن يتوجب علينا نحن الاثنان أن نشكر الله، فهو من فرقنا لهدف وجمعنا لهدف».
ابتسمت وهي تسأله: «وبرأيك يا عزيزي، ما كان الهدف من افتراقنا؟»
ابتسم وأجابها مازحًا: «الهدف كان أن تعرفي قيمتي» ثم عَلَت ضحكاته.
أجابته بوجهٍ عابس محاولة أن تدراي ضحكاتها: «ومن قال إنني لم أكن أعرف قيمتك، ولماذا لا نقول إن الهدف كان لكي تعرف أنت قيمتي».
أجابها ضاحكًا: «أنا أمزح معكِ يا صغيرتي، ولكن في حقيقة الأمر لقد كانت فترة قاسية ولكن فوائدها كبيرة، وأهمها أنني تأقلمت على الوضع واستطعت أن أحافظ على مشاعري في ظل وجود حقيقة أخرى كانت تستوجب أن تلغي تلك المشاعر».
شَعَرَت مرام بكلماته رغم وصفه غير الدقيق وكتمت العبرات داخلها وقالت له بعينين لامعتين: «تقصد أنك استطعت أن تصالح وتؤَلف بين

قلبك وعقلك؟!»
مازن: «ما أبسط عباراتك! أصبت التعبير يا مرام، فأنا لم أكن شارحًا بارعًا ونادرًا ما أستطيع وصف الأمور بشكلٍ دقيق».
نظرت إليه بابتسامة وقالت له في خجل: «ولكنك كنت تستطيع في الماضي، أتتذكر وقت أن جئتني في المرسم، وحين ذهبنا إلى مقهى ريش في وسط المدينة».
ساد الصمت قليلًا على مازن وهو يحملق في عينيها مبتسمًا ثم قال مدركًا: «حسنًا، لقد أتاني الوحي». ثم قام ليقف أمامها مباشرة ومن خلفه النيل.
نظرت إليه في اندهاش وهي تضحك قائلة: «اهدأ يا مازن هل جُنِنت؟!»
مازن: «لا، لا، انتظري، حقًا لقد ألهمتني أحد أروع الأوصاف».
مرام: «حسنًا، وما هو؟»
ابتسم مازن في خجل قليلًا ثم أردف قائلًا: «ربما يكون وصفًا كوميديًا قليلًا لأنه علمي ولكنها حقيقة، أنت تمثلين لي مصدر الطاقة الذي لا ينبض، مثل الشمس، وبالنظر إليها فهي النموذج الأمثل لتفاعل الاندماج النووي، وحتى الآن لم يقدر أحد على إيجاد تفاعلات مماثلة لتلك التي تحدث في الشمس ولكنني استطعت، حتى قبل أن أبدأ البحث في مشروعي، فقد أوجدت تلك التفاعلات، هذا فقط لأنني أحببتك، فأنتِ شمسي».

****

لم يكن قد باح مازن منذ فترة كبيرة عن تلك المشاعر فقد ابتعد عن تلك الأوصاف والكلمات الغزلية لفترة واحتلت مكان تلك الكلمات والمشاعر الكثير من التفاعلات الكيميائية والأبحاث العلمية، فربما مر زمنٌ طويل واعتلت مشاعره التراب، ولكن لم يذهب بريقها وجوهرها،

فحين وجد من يمسح تلك الأتربة عادت تلمع من جديد، وهي واحدة فقط قادرة على إحداث هذا التغيير فيه، فهي دون قصد تنبش بين ذكرياته لتجعله قويًا وتذكره أنه كان وما زال الشخص الذي لم تستطع أن تحب غيره، ورغم كل ذلك إلا أنها لا تُحسن التعبير في تلك المواقف بغير عينيها التي تقول الكثير والكثير في خضام صمتها، فهي الشيء الأفضل لتتحدث به وقت خجلها.

****

٢-الوداع الأخير.

قرابة التاسعة صباحًا استيقظ مازن ليستقبل يوم طويل انتظره منذ أن التقى الفريق الروسي في باريس، فهو بصدد الاتفاق على صفقة العمر، مشروعه ومشروع مرام.
تناول فطوره سريعًا وبدأ التنسيق مع دكتور مصطفى الذي سيذهب رفقة برانيا لاستقبال الفريق الروسي في المطار، فيما ساعده أصدقاؤه على تأمين هذا اللقاء المرتقب، وقاموا بتوزيع أنفسهم إلى فرقتين، محمد وإسلام يتتبعان السيارة التي تَقِل الفريق الروسي، والفريق الآخر أحمد وآدم يراقبون الوضع أسفل إحدى الشقق المستأجرة في حي الزمالك أمام سفارة النرويج، واختاروا هذا المكان تحديدًا نظرًا للإجراءات الأمنية المشددة في المنطقة.

قبل موعد اللقاء المقرر في الثالثة عصرًا بتوقيت القاهرة كانت الأجواء حماسية فالكل يعمل من أجل مازن ومرام وكأنها أعمالهم الخاصة،

فلم تتوان ديمة لحظة في أن تساند صديقتها وبقيت معها على تواصل دائم بداية من لحظة استيقاظها في الثامنة صباحًا، كذلك دكتور سليمان ودكتور مصطفى اللذان ظلا عاكفين على أوراق البحث الخاص بمازن لكي يقدما له كامل الدعم في شرح وسرد مشروعه، وبرانيا التي لم تتوقف لحظة عن التواصل مع الفريق الروسي لتأكيد موعدهم، كما مدت حبال الوصال لتبقى على علاقة طيبة بهم تتيح لهم التعاون في جو من الطمأنينة، كما الحال لأصدقاء مازن الذين برعوا في اختيار موقع اللقاء ودرسوه جيدًا ويسعون لتأمين الحدث بشكل تام، فقد كانوا جميعًا متحمسين للأمر وعلى قلب رجلٍ واحد.

وصل الضيوف إلى مكان اللقاء المقرر، وجلس كلٌ من مازن ودكتور مصطفى ودكتور سليمان وبرانيا ومرام، ومن جانب الفريق الروسي فقد حضر كاملًا فاسيلي وأوكسانوشكا وساشا.

تطرق مازن شارحًا بإسهاب عن المشروع وقدم نفسه بهويته الحقيقية وأخبرهم أنه صاحب الأبحاث وليس كما ادعى أنه شخص آخر وبرر لهم موقفه ولكن لم يَكن رد السيد فاسيلي جيد حيال الأمر.

- «يا مازن لا شك أنك شخص بارع في أعمالك وأنا مُقدر لأسبابك التي قلتها ولكن تلك المعلومات في مثل هكذا توقيت تخلق جو من الحيطة والحذر تجاهكم».

لم يستطع مازن الرد بغير أن أسبابه تستحق النظر في الأمر جيدًا؛ فقد ظل هاربًا طيلة ثلاثة أعوام، ولا يستطيع أن يثق في أحد بسهولة.

وحين انتهى مازن استمر نقاشهم بشكل متواصل بخصوص مشروع مرام، والتي قامت بدورها وشرحت فكرتها بشكل جيد، واستمالت قناعة الفريق الروسي الذي كان يبدو عليه شغف تبني المشروع وتنفيذه، استمر حديثهم طويلًا بشكل مُفَصَّل وامتد حتى السادسة

مساءً، حتى انتهى مازن ومرام من عرض أفكارهما وشرحها بإسهاب.

أسوأ ما كان يثير خوف مرام هو ثبات النظرة لدى تلك الفتاة الروسية أوكسانوشكا وصمتها الدائم، فهي قد لا تشاركهم الكلام ولكن درجة قربها من السيد فاسيلي كانت توحي لها بأن تلك الفتاة هي الجندي المجهول في ذلك المجلس، فربما هي حقًا صامتة لتحليل الأمور وتحصيل المعلومات وتقنينها في صمت، ولكن إذا تكلمت سوف يكون كلامها قويًا وفعالًا وربما مؤثرًا بشدة في قرارات السيد فاسيلي، وازدادت خوفًا على خوف عندما همست أوكسانوشكا في أُذن السيد فاسيلي بعد أن انتهيا من الشرح، ليطلب المستشار الثاني ساشا بعض من الوقت لأخذ قرار نهائي.

قاطعه مازن على الفور قائلًا: «سيدي الفاضل ليس لدينا الكثير من الوقت؛ لذا عليكم اتخاذ قرار اليوم».

كانت تبدو الأمور أنها أخذت منعطفًا من عدم الثقة، منعطف حاد لا يحتمل مرور اثنين جنبًا إلى جنب، لذا فعلى أحدهم الخضوع لرغبة الآخر لكي تسير الأمور، ولكن استطاعت برانيا أن تتدخل بحكمة لإنقاذ الموقف حين استطاعت الوصول لتفاهم بين الطرفين يقضي بمهلة ساعتين للفريق الروسي لاتخاذ قرار حاسم، ولهم ما يريدونه من الخصوصية اللازمة.

بعد موافقة الفريق الروسي واختلائهم بأنفسهم لنحو ٥٠ دقيقة داخل إحدى غرف تلك الشقة الفسيحة خرج لهم السيد فاسيلي قائلًا إنه بالرغم من إعجابه الشديد بفكرة مشروع مفاعل الاندماج النووي في حال نجاح تنفيذها إلا أن ما حدث يشعره بتقليل الاحترام لأنهم خدعوه مهما كانت أسباب مازن، كما يروقه أيضًا فكرة مصل أخطبوط

الحلقات الزرقاء ويوافق على تبني الفكرة، وربما في حال نجاح علاقتهم أثناء تنفيذ هذا المشروع بالطبع هذا سوف يفتح المجال مرة أخرى لتبني مشروع مفاعلات الاندماج النووي.

تباينت ردود أفعال الحاضرين بين خيبة أمل وندم وبين محاولة لإصلاح الأمر ولكن ساد الصمت أغلب الوقت، وقد كسرته مرام حين ردت بحزم: «نعتذر عن الأمر سيد فاسيلي، فإما تنفيذ المشروعين أو لا شيء».

كلامها لاقى دعم الجميع باستثناء مازن الذي لم يكن منه غير ثبات النظرة وكأنه يطالع الفراغ، ومن ذلك اتضح رد الفريق الروسي الذي هَمَّ بالمغادرة!

وقبيل خروجهم استفاق مازن من غفوته وسريعًا توجه نحو السيد فاسيلي يسأله عن وسيلة للتواصل معه، ليخرج له بطاقة تعريف وبها بيانات التواصل المطلوبة وهو يقول له: «عليك التفكير جيدًا في الأمر، وفي حال عدلت عن قرارك بإمكانك التواصل معي شخصيًا».

هكذا انتهى الاجتماع وهكذا بدت الأمور أكثر صعوبة أمام الجميع، فقد كانت طاقة الأمل والمخرج الوحيد أمام مازن ورفاقه ولذلك بعد هذا الاجتماع وضبابية الرؤية بدأت أفكار مازن تلوح حول الخطة البديلة لتأمين مرام أولًا، ويأتي من بعدها تأمين مشروعه.

ظلَّ مُقيمًا في الشقة التي استأجرها بحي الزمالك لمدة خمسة أيام، خلالها كان صامتًا أغلب الوقت، ليس حُزنًا، وإنما يعمل بشكل دؤوب على خطته، والذي طلب منه الكثيرون أن يخبرهم عنها شيء إلا أنه كان يناور بكلامه ولا يبوح بشيء.

كما أقنع برانيا أن تعود إلى فرنسا وسوف يتواصل معها في حال احتاج إليها.

وفي اليوم الخامس ليلًا جاءته مرام وحضر آدم أيضًا يناقشانه في تلك

الأمور المعلقة.
- «أتعجب لأمرك يا مازن! لماذا كل هذا الوقت؟»
مازن: «ألا يجب أن نفكر في حلول بديلة؟»
مرام: «وبإمكانك أن تفكر في تلك الحلول وسط أهلك وأصدقائك، إذًا ما حاجتك أن تجلس هنا وحدك وتجعلنا قلقين عليك!»
مازن: «لا تفزعوا يا شباب، أنا فقط بحاجة لأن أجلس وحدي، لكي أستطيع التفكير جيدًا».
آدم: «حسنًا، إليك أحد الحلول المطروحة، ربما برانيا بإمكانها مساعدتنا إذا حاولت إقناعهم مرة أخرى».
أجابه مازن وينتابه الشك: «لا أعتقد ذلك، طالما دخل الشك بيننا فلن يَسْهُل إقناعهم، لقد كانوا مُحقين، كم أنا غبي!»
ساد الصمت قليلًا بعد تحسر مازن على إخفاء حقيقته عن الفريق الروسي أثناء لقائهم الأول قبل أن تبادر مرام بتهدئته قليلًا وتحاول أن تخفف عنه، وأثناء حوارهم أُطلقت رصاصة من قاذف كاتم للصوت لتخترق زجاج المنزل، لم تُصِب أحدًا ولكنها جعلتهم يتوقفون عن الكلام لينتبهوا لما يحدث وينظروا جميعًا للنافذة المشروخة، في هذه اللحظة وقبل إدراكهم للأمر أُطلقت بضع رصاصات أخرى لتُصيب إحداها آدم في موقف مباغت لهم حتى صاح مازن بأن يبتعدوا عن الزجاج ولينبطح الجميع أرضًا.
جاءت صيحاته وقت إصابة آدم التي ما أن رأتها مرام وبدأت تهلع وتصرخ لينقض عليها مازن ليجبرها على النزول أرضًا، ثم بدأ يحاول أن يقذف بعضًا من حاجيات المنزل التي في متناولة عبر النافذة بغرض إحداث حالة من الفوضى في الشارع حتى يتدخل الأمن.
على الفور ذهبوا إلى المستشفى لإسعاف آدم لتحدث حالة من الفوضى

والبلبلة في المستشفى نظرًا لخطورة الحالة، فيما كانت مرام تنهار بكاءً ومازن غارق بدم صديقه، وبمجرد دخول آدم إلى غرفة العمليات وصلت عائلته وكذلك أصدقائه ووالدي مرام ومازن.

****

»الرصاصة كانت قريبة جدًا من القلب والحالة غير مستقرة، لذا يلزم أن يسافر للعلاج بالخارج في أسرع وقت ممكن، لا بد أن يكون السفر في موعد أقصاه يومين«. هكذا كان تقرير الطبيب عن حالة آدم الذي لم يكن يحمل أي طمأنينة لعائلته لتبدأه والدته في العويل والنواح على ولدها وكأنها بدأت تفقده، لقد كان كلام الطبيب صادمًا رغم دعوات وصلوات الجميع خارج غرفة العمليات التي لم يرقد بها آدم سوى ساعتين حتى آتهم الدكتور يبلغهم في صدمة أن الوضع متأزم.

انسحب مازن إلى إحدى الغرف ليتحدث إلى والد آدم على انفراد.

- »سوف نسافر غدًا إن شاء الله لإجراء العملية في فرنسا كما طلب الطبيب، وأعدك أنني سوف أعتني بآدم جيدًا فهو شقيقي كما أنتم أهلي«.

لم يَكُن بمقدور والد آدم أن يَرُد بشيء، فهو رجل مؤمن ولا يعترض على أمر الله، ولكن في مثل هذه الأمور العاطفة غلَّابة فنظر إلى مازن وعيناه تدمعان قبل أن يستكمل مازن حديثه قائلًا في عزم: »وعزة الله وجلاله لن يَمُر الأمر مرور الكرام، وسوف يلقى جزاءه كل مذنب، فقط ما عليكم غير أن تدعوا لنا«.

وصل محمد المصري متأخرًا ليدخل المستشفى وهو ثائر، وبخطوات سريعة وصل إلى غرفة العمليات ليجد الجميع واقفًا في صمت ليخبره أحمد بالأمر ليثور أكثر ويبحث عن مازن ويدخل عليه الغرفة التي يتحدث بها مع والد آدم.

- «لا بد أن نتصرف يجب علينا فعل أي شيء، إلى متى سوف نظل صامتين وهم يقتلوننا واحدًا تلو الآخر!» قالها محمد وهو في حالة غضب عارم.

اندفع مازن ليحاول تهدئته: «اهدأ قليلًا يا محمد، آدم ما يزال حيٌ يرزق وسوف يطيل الله في عمره بإذن الله».

دخلت جموع الحاضرين على إثر انفعال محمد ليطلب منهم مازن جميعًا أن ينصرفوا لكيلا يطال الأذى أحدًا آخر، كما طلب من والد مرام ووالده البقاء لترتيب الأمور.

- «سوف أسافر أنا ومرام برفقة آدم لعلاجه، وأعدكم جميعًا بحل الموضوع حلًا جذريًا».

كلماته خلقت مشاعر مختلطة لدى أبوه الذي يخشى عليه مصير صديقه الذي لطخت دمائه ملابس ولده، كذلك والد مرام الذي لم يكن يعرف بماذا يجيب مازن، فهو كان يتوقع أن ما دام أنهما في مصر فلن يستطيع أحد الاقتراب منهما، ولكن ها هم وكادت أن تكون ابنته مكان آدم، يبدو أن عليهما أن يظلا هاربين لفترة طويلة!

- «اسمعني جيدًا يا مازن أنا أضع فيك ثقة كبيرة لا أدري ما مصدرها فرجاءً كُن أهلًا للثقة واقتلع المشكلة من جذورها أرجوك، من أجل سلامتك وسلامة ابنتي».

تملك مازن شعور غريب في تلك اللحظة، فخري لم يلتقي به سوى مرات تُعَد على الأصابع وها هو الآن يُحَمْلَه مسؤولية أغلى شيء لديه ابنته الوحيدة، فبالطبع لم يَكُن منه غير أن رد بكل صرامة: «بمشيئة الله لن يطالها أذى ما حييت، أنا أَعِدُك بذلك».

سريعًا رُتبت أمور سفرهم من داخل القاهرة، وعلى الجانب الآخر من المتوسط ساعدتهم برانيا لإنهاء تصاريح السفر وكذلك المستشفى التي

سوف تُجرى بها العملية.
واتجهت جموع الأهل والأصدقاء لوداع الشباب، أهل آدم يودعونه وهو على سرير متنقل، تخشى والدته أن يعود لها في تابوت، ووالد مرام يكاد يمسك عبراته جيدًا أمام ابنته، ولكن قد خارت قواه وهو يراها تصعد الطائرة، فقد رافقوهم حتى مدرج الطيران بفضل علاقاتهم النافذة، لنكتشف مفارقة عجيبة بين تلك اللحظة التي تغرق فيها أعينهم في دموعها وبين وقت أن عادا إلى مصر بعد غياب طويل حين كانت تبتسم أعينهم وتكاد قلوبهم تقفز من بين الضلوع فرحًا، شتان بين هذا اللقاء وذاك الوداع!

****

إنها الزيارة رقم (...) لا يذكر العدد جيدًا فقد صال وجال ولم يَعُد يهمه عدد المرات فربما هذه المرة هي الأخيرة، فربما الآن تغير كل شيء لدى مازن، فثمة خسارات ليس من بعدها خسارة، وهو الآن يكاد يخسر أعز أصدقائه، بل هو شقيقه الذي لم تَلِده أمه.
لم يكن هناك وقت طويل لكي يلتقطوا أنفاسهم بعد هبوط طائرتهم في مطار شارل ديجول في ليل يوم الرابع عشر من أكتوبر، وكانت معهم برانيا خطوة بخطوة حتى وصلوا إلى المستشفى وانتهاء إجراء العملية أيضًا، ولكن جاء التقرير الطبي صادمًا! فقد نجحت العملية بالفعل وقد تجاوز آدم مرحلة الخطر، ولكنه في غيبوبة ولا يتوقع أن يستفيق منها مبكرًا.
لقد كان الأمر صادمًا لهم إلا أن مازن حاول أن يُظهر قليلًا من التفاؤل، على الأقل لكي يكون قويًا من أجل مرام التي ألقت بنفسها جثة على الفراش، فقد وجد مازن عدم جدوى وجودهم بالمستشفى لذا كان يتوجب عليهم الذهاب إلى أحد المنازل المستأجرة لأخذ قسطًا من

الراحة واستجماع قواهم للتفكير في مصيرهم المجهول!
انفرد مازن مع برانيا يسألها إن كانت تعرف موقع السيد فاسيلي، وهل ما زال في باريس أم أنه سافر عائدًا لبلاده.
- «رجاءً ابقي مع مرام في حالة احتاجت لشيء».
نظرت إليه برانيا وسألته بتعجب: «أين أنت ذاهب؟!»
مازن: «عليّ قضاء بعض الأمور قبل قيام مرام، ربما أتأخر قليلًا فلا تنتظريني، فقط احرصي على سلامتها».
خرج مازن مع حقيبة ظهر يحمل فيها أهم ما لديه الآن -أوراق بحثه ومشروع مرام- متجهًا إلى أحد الفنادق العريقة في وسط باريس، وحجز غرفة وتعمد استعمال بطاقته الائتمانية بعد أن كان حريص كل الحرص ألا يستخدمها!

****

- «صباح الخير برانيا».
ابتسمت لها برانيا وردت تسألها: «هل أنت بخير الآن؟ كان يبدو عليكِ الإرهاق أمس».
أجابت مرام وهي تَحُك عينيها: «نعم أنا بخير، شكرًا لسؤالك».
تابعت برانيا خطواتها نحو المطبخ وهي تتابع كلامها مع مرام: «لقد استيقظت باكرًا ولم أرد إزعاجك، تودين تناول شيء ما بالتأكيد، فقد ذهبت للتسوق وأحضرت بعض الخبز الساخن، أعتقد أنه لم يبرد بعد، تعالي».
تقدمت مرام نحوها شاكرةً وجلستا سويًا على مائدة صغيرة تتوسط المطبخ وسألتها مرام في انتباه: «أين مازن؟!»
لم تكن تعرف كيف تجيبها وهي ينتابها القلق، فهو لم يَعُد منذ فجر اليوم وها تجاوزت الساعة الحادية عشر ظهرًا ولم يأتِ، فمرام حالتها

مزرية نتيجة ما يحدث بالإضافة لرحلة سفر مفاجئة أنهكتها، لذا كان يتوجب أن تحاول إخفاء الأمر وألا تزعجها بغياب مازن.
- «لقد خرج باكرًا، ولكنه لم يخبرني أين هو ذاهب».
تعجبت مرام وكلمات برانيا لها لم تطمئنها على الإطلاق ولكنها زادتها خوفًا وحيرة!
«أين يذهب ونحن في تلك الحال؟! ألا يستطيع تقدير الأمور». قالتها وهي متجهة صوب هاتفها لتحاول الاتصال به، ومجرد أن أمسكت هاتفها وجدت مازن يفتح باب الشقة.
- «ها قد أتى، أين كنت لقد قلقنا عليك منذ أن استيقظت ولم أجدك، مؤكد أنك استيقظت باكرًا». بادرته برانيا بتلك الكلمات لكي تنبهه ألا يقول إنه كان خارج المنزل منذ أمس.
مازن: «معذرة يا فتيات ولكن كان هناك بعض الأمور عليّ الاهتمام بها، أخبراني هل ورد أي اتصال من المستشفى؟»
مرام: «لا، لم يتصل أحد».
قال مازن في أسف: «حسنًا، خيرًا إن شاء الله، على أية حال، برانيا رجاءً رتبي لي لقاء مع السيد فاسيلي وأخبريه أنه بإمكاننا لقاءه في أي من دول الاتحاد الأوروبي».
اتجهت برانيا على الفور ممسكة بهاتفها لترتيب اللقاء كما طلب منها مازن، فيما نظرت مرام إلى مازن في عدم استيعاب وكان يبدو عليها الغضب لتتحدث باللغة العربية: «ألا يتوجب عليك أن تخبرني بما تخطط له قبل أن تقوم بالتنفيذ؟! ألسنا معًا على نفس المركب».
أجابها مازن مبتسمًا برضا: «بلى، نحن على مركب واحد، ولكن دعيني أنا أتولى القيادة واستمتعي أنت بالرحلة».
أجابته بنبرة حزن على ما آلت إليه الأمور: «ولكني غير مستمتعة

بالرحلة وأود العودة».
أخذ مازن نفسًا عميقًا وأجابها مطمئنًا: «لا تقلقي شارفنا على الانتهاء منها وسوف نعود قريبًا».
مرام: «رجاءً أخبرني بما يحدث، أين كنت صباحًا وماذا فعلت؟»
مازن: «صدقيني لم أفعل شيء سوى أنني ذهبت لأحد الفنادق، فقد كنت أريد أن أختلي بنفسي، كما أنني فضلت أن أترككما وحدكما؛ فأنتِ مرهقة وبالتأكيد لن ترتاحين إذا شاركتك برانيا غرفتك».
قاطعتهما برانيا حين عادت مرة أخرى إلى الصالة لتخبرهما أن السيد فاسيلي موجود في سويسرا وبإمكانهم لقائه هناك.
رتب نفسه جيدًا وجمع أفكاره ورتب كلماته للقاء السيد فاسيلي لأنه يعرف كيف يكون المرء حاله وهو مُجبر على قبول أمر يرفضه، فهو لم يكن في موضع اختيار لذا عليه بقبول عرض الفريق الروسي مهما كان الثمن، ما دام أن المقابل سوف يكون حماية مرام وتنفيذ مشروعها، فقد وجد أن هذا هو المخرج الوحيد الآمن لمرام، أما بشأنه فيبدو أنه قد رتب أموره مسبقًا في تلك الليلة التي قضاها وحيدًا في الفندق وهو يفكر في تلك الأزمة التي ربما لن تنتهي إلا بخسائر، وهو يتمنى ألا تكون الخسارة قد حدثت بالفعل بفقدانه صديقه آدم.
مازن: «أوافق على عرضكم، ولكن هناك شروط متعلقة بمشروع المصل لا بد من التأكد من تنفيذها».
فاسيلي: «ما هي تلك الشروط؟»
مازن: «تأمين الحماية الكاملة لمرام، كونها مستهدفة».
فاسيلي: «ومتى تنتهي هذه الوصاية؟»
مازن: «بانتهاء المشروع، لأنه لن تكون هناك فائدة من قتلها».
فاسيلي: «إذًا الخطر ليس على مرام وحسب، وإنما كل من يحاول تنفيذ

المشروع؟»
مازن: «صحيح، وإذ لم تكن قادرًا على حماية نفسك فلن تستطيع حمايتها».
فاسيلي بعد التفكير قليلًا: «المعامل موجودة في روسيا وهي إقامتها في مصر، أظن أنه أمر من الصعب حدوثه، خاصة وأنها ربما تريد السفر إلى أي مكان آخر، وبالتالي أنا لن أستطيع توفير حماية كاملة لها في كل مكان تذهب إليه».
مازن: «هذا أمر غير قابل للرفض لأنه يتوجب عليك حمايتها من أجل المشروع، لأن بدونها لن تستطيع تنفيذ شيء».
سَكَتَ السيد فاسيلي قليلًا ليفكر ثم قال: «إذا كانت داخل الأراضي الروسية طوال مدة تنفيذ المشروع سوف أستطيع تنفيذ ما ترغب وتوفير الحماية الكاملة لها».
وافق مازن وأنهى اجتماعه بشكلٍ ودي، ووعده السيد فاسيلي بمزيد من التعاون في قادم الأيام، وإثر رحلة استغرقت أكثر من خمس ساعات في خطوط السكك الحديدية الأوروبية لكي يصل من باريس إلى زيورخ في سويسرا، فتطلب الأمر أن ينام ليلة هناك على أن يعود مرة أخرى إلى باريس في الصباح.

****

مرت خمسة أيام أخرى كان يتابع فيها مازن حالة صديقه آدم بترقب، حتى بدأ يفقد الأمل ليبدو أن الأمر بات منتهيًا!
فيما كانت برانيا أغلب الوقت مرافقة لمرام حتى تساندها في تلك الأوقات الصعبة، فقد رأت بعينيها حين أُطلقت الرصاصة إلى صدر آدم لتجعله طريح الفراش إلى أجل غير مسمى.
بدا أن الوضع ميئوس منه، فقد كانت آخر آماله هو أن يرى صديقه

قبل أن يقدم على ما هو مُقبل عليه، ولكن ربما يراه بعد بضعة أيام إن كان لهم في العمر بقية وقد يراه في الحياة الأخرى، فقد أصبح مازن ينتظر مرور الوقت ليس إلا!

- «أخبرني يا مازن لماذا تخبرني بكل هذه التفاصيل؟!» قالتها لمياء في ذعر.

مازن: «لا بد أن تعرفي كل كبيرة وصغيرة بشأن هذا المشروع يا لمياء، فأنتِ الشخص القادر على إكمال ما بدأته في حال أصابني أي مكروه».

شعرت بالمسؤولية وكأن جبلًا تحمله على كاهلها وردت تقول: «لا تيأس يا صديقي، صدقني مجرد أن ترى آدم وتتحدث معه مرة أخرى سوف تعود كما عهدنا أن تكون دائمًا، مازن شعلة النشاط التي لا تنبض، فأنا لم أعتد رؤيتك يائسًا».

من خلف باب الغرفة كانت تسمعه مرام جيدًا وأيقنت على الفور أنه حدث شيء ما لتواجهه، حين أنهى مكالمته وذهب للخارج ليُفاجأ بوجود مرام.

- «أنت مُصرٌ على تهميشي، لماذا لا تضعني في قلب الحدث؟ لماذا لا تخبرني بما فعلت؟!

كان يبدو على مرام الانفعال وأعصابها متوترة منذ أن حدث ما حدث في مصر؛ لأنه لن يَسهُل نسيانه، كما أن آدم اعتبرته صديقًا لها، إضافة أنها تخشى على مازن نفس المصير، ولكن ما عانته في اليومين الماضيين جعل صبرها ينفد.

- «رجاءً يا مازن، عليك أن تفهم أنني لم أَعُد راغبة في تنفيذ أي شيء، أنا فقط أريدك أن تكون في أمان، ولو أمكننا العودة إلى مصر لما كنت جالسة هنا حتى الآن».

أجابها مازن في نفاد صبر: «وآدم؟ هل نتركه هنا؟!»

ساد الصمت قليلًا ليَنُمُ عن نفاد الحلول لدى كليهما ليستكمل مازن قائلًا: «اسمعيني جيدًا يا مرام، لقد أصيب محمد، وفقدنا أثر دكتور كندة، وها نحن الآن على وشك أن نفقد آدم، هؤلاء جميعًا أصابهم الضرر لأنهم يحاولون مساعدتنا لذا علينا ألا نخذلهم، يجب ألا تذهب تضحياتهم سدى، لذا أنا اتفقت على تنفيذ مشروعك».

سألته بحدة: «وماذا بشأنك؟»

أجابها مازن بكل حزم: «لقد تفاوضت معهم وسوف أسلمهم أبحاث مشروع الاندماج النووي».

جن جنونها عندما سمعت تلك الكلمات لتنفجر قائلة: «هل جننت؟! أتناقض نفسك؟! قلت لتوك يجب ألا يذهب مجهود من ضحوا من أجلنا سدى، وأنت الآن تريد أن تقدم لهم المشروع على طبق من ذهب! وكيف تضمن ألاعيبهم! أستضع نفسك كبش فداء؟!»

حاول مازن تهدئتها ولكنها استمرت في نحيبها: «لا تقل لي ألا أخاف! كيف لي ألا أخاف عليك وأنا أرى صديقك آدم أمامي بين الحياة والموت؟! مؤكد أنه هناك حلول أخرى».

لقد ضغطت عليه إلى أقصى درجة وقد بلغ من الغضب حدته لذا انفجر قائلًا لها بصوتٍ عالٍ: «لقد انتهى وقت أنصاف الحلول، أي فرقٍ أستطيع أن أصنع وأنا هارب؟ يجب أن نواجه أعدائنا وجهًا لوجه».

تملكها البكاء لما آلت إليه الأمور، ليستكمل مازن في هدوء: «سوف أسلمهم الأبحاث فقط، أي مجرد فرضيات على ورق، وعليهم أن يبحثوا عمن يطبق هذه الفرضيات، هذا كل ما في الأمر، وصدقيني لن يستطيعوا القيام بشيء، نحن فقط نريد كسب مزيد من الوقت إلى أن نطمئن على آدم، وأن تكوني قد باشرتي تنفيذ مشروعك في روسيا».

ردت عليه مرام وهي تمسح دموعها قائلةً: «ما زلت تتحدث بعقلك، أما

أنا أنظر إلى الأمر بقلبي، فكما أنا أول أولوياتك أنت أيضًا أول أولوياتي».

لم يَكُن لدى مازن أي شيء ليقوله غير أنه ربت على كتفها، وقَبَّلَ رأسها ليشعرها بالأمان محاولًا تفادي ما لا يستطيع قوله، وهو أن الأمور ليست على ما يرام وأنه لا يضمن سلامته في هذه المقايضة!

استطاع مازن خلال هذه الأيام أن يتحرك بحرية نظرًا إلى أنه توصل إلى اتفاق مع مطارديه يقضي بتسليمهم أبحاث المشروع في يوم الخامس من نوفمبر، ليقابل كلًا من مكارثي ونولان من الوكالة الإسرائيلية، لودميلا وآلكوت وأودري من المنظمة متعددة الجنسيات، وقبل الموعد المقرر بيوم واحد جلس مع مرام وبرانيا لإلقاء التعليمات الأخيرة.
- «أنتما هنا في أمانٍ تام، أجهزتكما لا يمكن تعقبها، وعليكما ألا تنفقا من أي بطاقات بنكية ويجب ألا تتم أي معاملات بنكية، أنتما تعلمان هذا جيدًا ولكن أُعيد وأكرر مرة أخرى للتأكيد.
أولًا: في حال تمت الأمور في سلام لن يكون مطلوب أي شيء من أحد،
ثانيًا: يوجد حاسب محمول مع مرام، هذا الجهاز لا يمكن فتحه مطلقًا؛ لأنه مربوط بجهاز آخر سوف يكون معي، ولن يُفتح هذا الجهاز إلا في حال حدوث تفجير أو شحنات كهربية عالية تدخل إلى قرص الجهاز الذي معي، لأنه بذلك سوف يتم كسر الشبكة التي تربط الجهازين ويفتح الجهاز الآخر بشكل تلقائي، وسوف تعرفون ما عليه في حال أصابني مكروه.
ثالثًا: في حال أنني اختفيت، عليكما ألا تحاولا التواصل معي مطلقًا.
رابعًا: في حال أصابني مكروه يجب أن تذهب برانيا على الفور إلى روسيا للتنسيق هناك مع الفريق الروسي في أسرع وقت ممكن، ومرام

أنت تعلمين جيدًا أين سوف تذهبين، هل توجد أي استفسارات؟»

تعليماته وصرامة حديثه وجديته جعلتهما حاضرتين بجسديهما، ولكن عقليهما شاردان فيما سوف يحدث غدًا، حتى أن التساؤلات كثيرة وتثار بداخلهما ولكن لسانيهما لا تقدر على البوح بها، فهي ليست تساؤلات واستفسارات حول دور كل شخص، بل مخاوف كل شخص التي كان يخشى البوح بها في تلك اللحظة الفارقة.

- «رجاءً يا مازن، على ماذا يحتوي هذا الجهاز؟ أهي أبحاثك؟»

أومأ مازن بوجهه علامة النفي قائلًا: «أنا لست مجنونًا لكي أضع تلك الأبحاث في يد شخصٍ آخر لكي أورطه في سلسلة هروب أخرى».

مرام: «إذًا ماذا بداخله؟»

ناور مازن في إجابته قائلًا: «الأبحاث موجودة فقط في جهازين، هذا الحاسوب الذي سوف أذهب به، وجهاز آخر سوف تعرفين موقعه فيما بعد، أما ما بداخل هذا الجهاز الذي تحملينه فسوف أخبرك غدًا بعد أن أعود».

أشاحت مرام نظرها عن وجهه تعبيرًا عن ضيقها لعدم صراحته معها، ثم استكمل مازن في هدوء: «كل ما أستطيع قوله لكِ الآن أن عليكِ مساعدت لمياء في تنفيذ مشروعي في حال أصابني مكروه، وانتبهي جيدًا لمشروعك وأبحاثك، ومهما يحدث من حولك يجب عليك إتمام تنفيذ مشروعك وإظهاره إلى النور».

مرام بشكلٍ يائس: «كلماتك تُثير مخاوفي أكثر».

ابتسم مازن ورد يطمئنها: «هذا فقط لأنك تتوقعين الأسوأ، ولكن بمجرد أن ينتهي يوم غد سوف ترتاحين تمامًا، أيًا كانت نتيجة ذلك اليوم».

رغم كلماته الهادئة التي كانت تحمل كل معاني الطمأنينة إلا أن صداها

كان له بُعد آخر، لتدخُل إلى أُذُن مرام وتحدث زلزال بداخلها، وكأنها هزات أرضية توحي بأن القادم أسوأ.

****

لم تستطع مرام أن تنام حتى بسطت الشمس نورها قليلًا، فالسماء ملبدة بالغيوم وربما لن ترى الشمس هذا اليوم، فتلك الأجواء الضبابية الغائمة والباردة دومًا ما كانت تحبها ولكنها اليوم تبعث بها الرعب، حتى أنها بكت، كأنما لم تبك من قبل، فقد أيقظ مازن صوت نحيبها المكتوم وفزع ليجدها واقفة أمام الشرفة فسألها: «ماذا بكِ يا مرام؟! هل كنتِ تحلُمين؟!»

أجابته بصوت يملأه البكاء، وعينين احمرتا من غزارة ما فاضت به تلك الليلة: «رجاءً أن تأخذني معك يا مازن، هذا آخر طلب سوف أطلبه منك».

كلماتها ورجاؤها لم يكونا عاديين، ولكنها كانت تشعر أنها تودعه للمرة الأخيرة، وترغب في مرافقته إلى أقصى مكان يمكن أن تذهب إليه، ولو كان الموت بيدها لذهبت معه، فهي أصبحت على يقين أنه الوداع الأخير وكم تتمنى أن يخيب ظنها!

الموعد كان في تمام الثالثة عصرًا، وأُرسلت إحداثيات موقع اللقاء في تمام الساعة الواحدة ظهرًا، وهو موقع لأحد المستودعات القديمة والمهجورة بجانب أحد خطوط السكة الحديدية، وبالطبع هو المكان المناسب والأمثل لتلك الجماعات، ليبدأ مازن التحرك وقد طلب من برانيا أن تتبعهما في سيارة أخرى؛ لكيلا تعود مرام وحدها، وداعًا كان صامتًا ولكن العيون كانت تتكلم وتتساءل هل سيعود؟

****

قبل المكان المحدد بمسافة ٥٠٠ متر تقريبًا توقف مازن ليرتجل من

السيارة مودعًا مرام قائلًا لها كلماته الأخيرة:
- «عِديني أن تهتمي بنفسك، وأن تنفذي مشروعك».
لم تبال مرام بكلماته، وردت وهي تمسح عبراتها: «فقط اهتم بنفسك ولا تتأخر».
مازن: طبعد ٢٠ دقيقة بالضبط إذ لم أَعُد عليكِ بقيادة السيارة ومغادرة المكان».
أغمضت عينيها محاولةً أن تمنعها المزيد من الدموع: «عُد لي سالمًا».
لم تترك مرام يده بسهولة حين مد يده يُسلم عليها ليرفع يدها ويقبلها، وإنما ظلت ممسكة بيده حتى رفعتها إلى شفتيها تُقبلها، وكم كان يود مازن أن يرمي الدنيا خلف ظهره لكي يبقى مع مرام في ذلك الوقت، في تلك الثانية، في تلك اللحظة، قَبَّلَ رأسها وهي محنية حين قَبَّلَت يده ومن ثم التف سريعًا ليذهب، رأته يرحل أمامها ليبتعد أكثر وأكثر، وكلما زادت المسافة بينهما كلما تساقطت عبرات مرام وهي غير مصدقة أنها ربما لن تراه مرةً أخرى، تلك دموع إحساسها الذي ينبؤها أنها لن ترى مازن مجددًا.
برانيا كانت جالسة في سيارة أخرى على مقربة من سيارة مرام ترقب الوضع، بعد مرور مدة ٢٠ دقيقة دون عودة لمازن، لترى مرام وهي تخرج من السيارة لتجلس خلف المقود وتنطلق بالسيارة حسب تعليمات مازن!
حاولت أن تحافظ على رباط جأشها وألا تتوقع الأسوأ حتى ابتعدت تمامًا عن نقطة لقاء مازن، ثم صفت السيارة جانبًا وخرجت تتحدث إلى برانيا عما حدث، وظلَّتا تتحدثان حول نقطة البحث عن مازن، ولا تريدان قول إنه ربما اختُطف أو ربما يجدوه جثة، فكلا الأمران مؤلم ولن تستطيعا تجاوزه!Rue Des Gravillier

لم يهديهما التفكير سوى لإبلاغ الشرطة بمكان اختفاء مازن، وعلى الفور تحركت وحدات الشرطة للبحث في وسط ظلام دامس، لتقتحم المكان والذي كان منعدم الإنارة ومهجور، وباتت عملية البحث أكثر صعوبة، ومع بزوغ فجر اليوم التالي جاء النبأ بالعثور على مازن متوفي بطلق ناري في ظهره.

كان الخبر بمثابة رصاصة الرحمة التي جعلت في قلبيهما نزيف داخلي، جعلهما حزينتين، ربما لما تبقى من عمريهما، أما مرام فقد تماسكت أعصابها لشعورها بالمسؤولية الثقيلة التي تركها مازن، فعلى الفور أرسلت لوالده وأصدقائه لكي يأتوا إلى فرنسا آخذين جثمانه، وظلَّت تتابع التابوت الخشبي وهو مكلل بالزهور يصعد إلى الطائرة المتجهة إلى مصر، وكم كانت تود أن تكون معه على نفس الطائرة، طائرة تأخذها إلى حيث هو الآن، فربما هي نفسها حزنت أكثر من الباقيين فهي من لازمته حتى مثواه الأخير، وسمعت كلماته الأخيرة، وربما كانت الأقرب إليه، حتمًا كانت الأقرب إليه؛ فهو لم يقم بعمل شيء منذ أن التقاها إلا من أجلها، لقد كان كريمًا معها وقدم كل شيء، بداية من قلبه وانتهاءً بعمره.

****

فَرِغَ المدرج على مرام وبرانيا لتمسحا دموعهما وتحتضنا بعضهما لتؤازر كلٌّ منهما الأخرى، فما أحوجهما الآن لمن يشد أزرهما مثلما كان يفعل مازن، ففي كل شيء كان له بصمة، لذا سوف يفتقدانه طوال حياتيهما.

وفي نفس الوقت التزمتا بالخطة، وحجزت برانيا طائرتها المتجهة إلى روسيا للتعجيل بإنهاء إجراءات بدء تنفيذ مشروع المصل، واتجهت مرام إلى حيث أخبرها مازن قبل وفاته، إلى البيت القديم الذي عاشت فيه معه في شارع ، ومنذ لحظة دخولها وكأنها

أصبحت على سجيتها لتتخلص من ذلك الوجه الجامد وترمي المسؤولية أرضًا وتجهش بالبكاء، ففي كل ركن من أركان المنزل خلدا ذكرى سويًا، تذكرت وقتها كلماته حين قال لها: «إنها إجازة العمر فلنستمتع قدر ما نستطيع». جن جنونها مع كل شيء كانت تتذكره له وزادها الأمر بكاءً، فكيف من كان معها بالأمس القريب أن يكون الآن في مكان آخر ولا تستطيع الوصول إليه!

هدأت قليلًا لتضع أمتعتها في أماكنها المخصصة، وجلست في صمت ووجهٍ احمرت وجنتاه من صمت البكاء، ثم لاحظت إنارة البيان الخاصة بالحاسب مضاءة لتدرك أن الجهاز مفتوح لتجد كلماته الأخيرة.

«حول اختيارك أنت تحديدًا لنقل تلك الرسالة والعمل بها؛ فأنتِ أقرب من حولي وآخر من رأيته قبل رحيلي وذلك من حُسن حظي، لذا عليكِ إيصال هذه الرسالة عن لساني لعائلتي وكل أصدقائي.

هناك مبلغ مالي في حساب باسم آدم في سويسرا، هي وديعة تُصبح حرة بعد خمس سنوات، وأرباحها للبقاء على أمل تَمَسُك آدم بالحياة، وفي النهاية القرار متروك لأهل آدم.

لمياء أختي الصغيرة كم أحببت العمل معكِ وها قد جاء دورك لتكملي الطريق، فعليكِ أن تحافظي على المعلومات التي لديكِ ولا تُصَرِّحي بها لأحد على الإطلاق وأبقيها في ذاكرتك فقط، وسيحين وقت استرجاعها في الوقت المناسب، فقط حافظي على حياتك وعندما يحين الوقت ستجدي من يساعدكِ كما ساعدوني.

أصدقائي الأعزاء لا توجد كلمات توفي حقكم، فأنتم جميعًا كنتم لي أخوة وخير رفيقة. عائلتي الكريمة أنتم بلا شك سبب رئيسي لما وصلت إليه، وربما لم تَكُن هناك فرصة جيدة للتعبير عن مدى امتناني وحبي الشديد لكم، وكنت أتمنى أن يطول بي العمر لكي أتعلم منكم أكثر،

ولكي يسعفني الوقت للتعبير عن حبي لكم.
مرام، انتظري في مكانك إلى أن تتصل بكِ برانيا لِتُعلِمُكِ بأن الأمور في روسيا جاهزة ومن ثم تذهبي إلى هناك ولا تغادري إلى أن يتم تنفيذ مشروعك، ومهما حدث إياك والتوقف عن تنفيذ المشروع فهو أمانتك الآن بعد رب العالمين.
هناك خزينة مغلقة في حساب بنكي في سويسرا، وسوف تُفتَح تلقائيًا بعد ١٤ عام، أظن أنه وقت كافي لتكوني أنجزتي مشروعكِ وأصبحتِ أحد أعلام العلم في العالم، بداخل الخزنة لا يوجد سوى جهاز مؤمن بكلمة سر للدخول وأنتِ تعلمينها جيدًا، بعد فتح الجهاز سوف تعلمين ماذا يتوجب عليكِ أن تفعلي.
أنت الآن في أمان، ولكن احذري من حولك ولا تضعي الثقه كاملةً في أحد، وإن كان ذلك سوف يجعلكِ وحيدة؛ فاعلمي أنني مَعَكِ أينما كُنتِ.
لقد توقفت كثيرًا عند ذكر اسمك، توقفت كثيرًا كلما فكرت فيكِ، ولكن صدقيني نحن نَسطُر التاريخ بقصة الحب التي خلدناها وظلت طاهرة من أي شيء مشين، فربما هي لم تكلل بما يطمح إليه الجميع –الزواج- ولكن أنا سعيد بقضاء تلك السنين وأنا أعشق امرأة واحدة، خير من أن أتزوج الأربعة اللاتي أحلهن لي رب العالمين، فقد كُنتِ خير صديقة وخير أخت وخير حبيبة، أنت الخير ذاته الذي أنعم الله عليّ به.
وأخيرًا لم أرغب في مفارقتكم جميعًا، ولكني أُرغِمتُ على ذلك، فأنا بانتظاركم في مكانٍ أفضل».

****

بَكَت مرام من صميم أعماقها كأنها لم تبك من قبل، فسوف يظل خالدًا في ذكراها ذلك الذي لم يكن بداخله لها غير كل شيء طاهر وبرئ،

وعمل على حمايتها حتى الرمق الأخير، فقد كان على يقين بنسبة كبيرة أن ذلك هو مصيره المحتوم، فقد أقدم على ذلك وهو يعلم النتيجة مسبقًا، ليترك طرف الخيط لدى مرام، مرام التي ظلت تذرف الدموع كشلالٍ ينهمر مع كل كلمة كانت تقرأها في رسالته، وحين تنهيها تعود تقرأها مرةً أخرى، وكأنها كانت تحاول سماع صوته في كل كلمة مكتوبة، وحين بدأت تتدارك الواقع أغلقت الحاسوب، ثم بدأت تدقق في كل ما حدث، وكأنها تعود بالزمن للوراء، فما كان ليحدث كل هذا لو لم يصل مازن إلى ما وصل إليه، فترى هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء! وأدركت أن سؤالها ليس في محله، فهو لم يُضحِّ من أجل المشروع وبقاءه، وإنما ضحَّى من أجل بقاء الأمل لبلاده وللعروبة، نعم لقد كانت تلك هي أمنيته من البداية، عليها أن تحافظ على بقاء أمله حيًا، حتى إن كان مازن قد فارق الحياة.

»إلى كل من لا يريد السلام لتلك الأمة، إلى كل من يتربص بها ويسعى لشتاتها وتفريق شعوبها«. هذه هي الكلمات التي أعدتها مرام لتكون عن لسان مازن وقت أن يتم تنفيذ أبحاثه، ليكون قد أتم رسالته من العالم الآخر.

تمت بحمد الله

تواصل معنا :

01067000701

E-mail :- Fasla. Pub@Gmail. com

Facebook. Com/Fasla. Pub